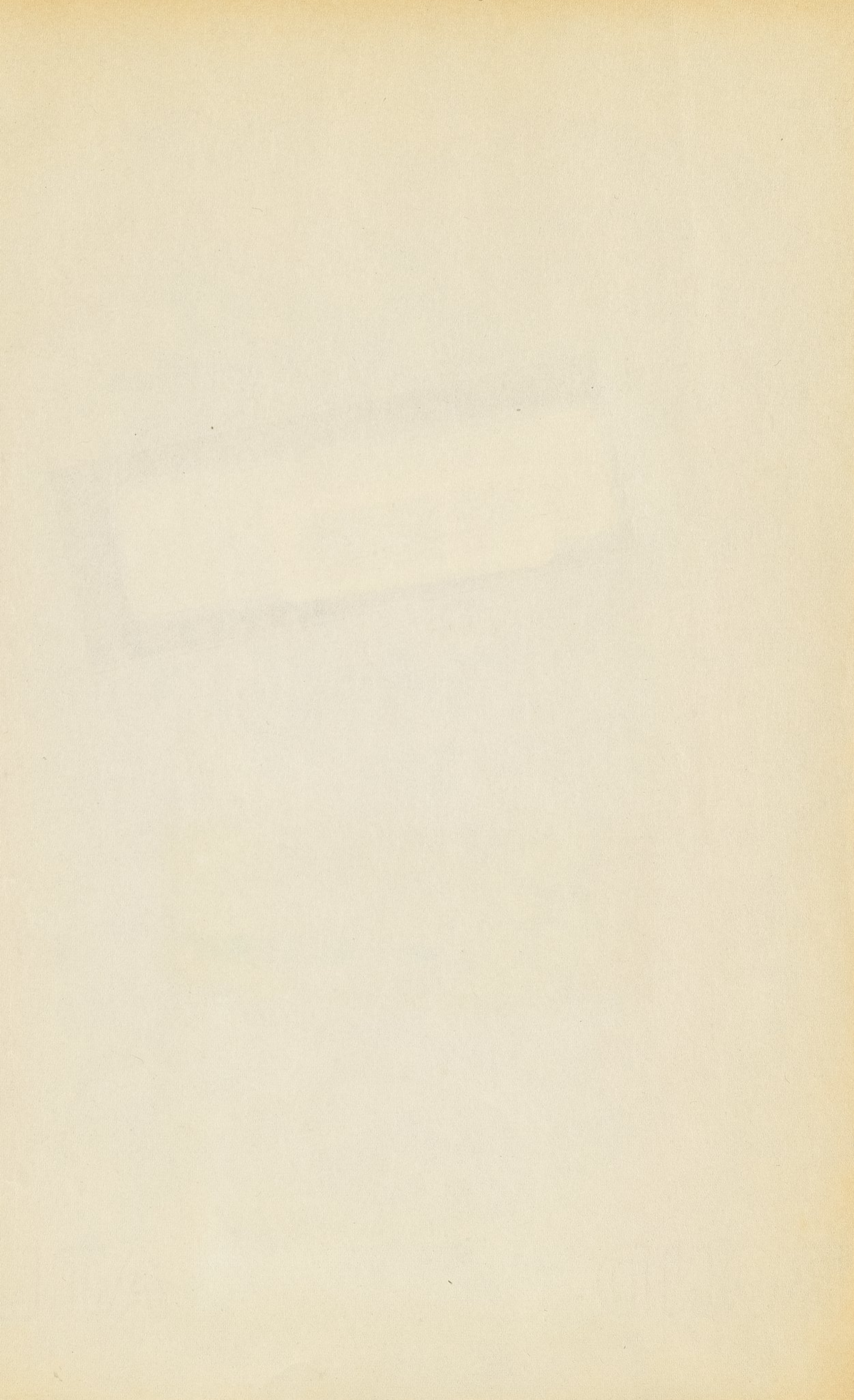



PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 004694723



مطبوعات معهد اللغات الشرقية — كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول (١)

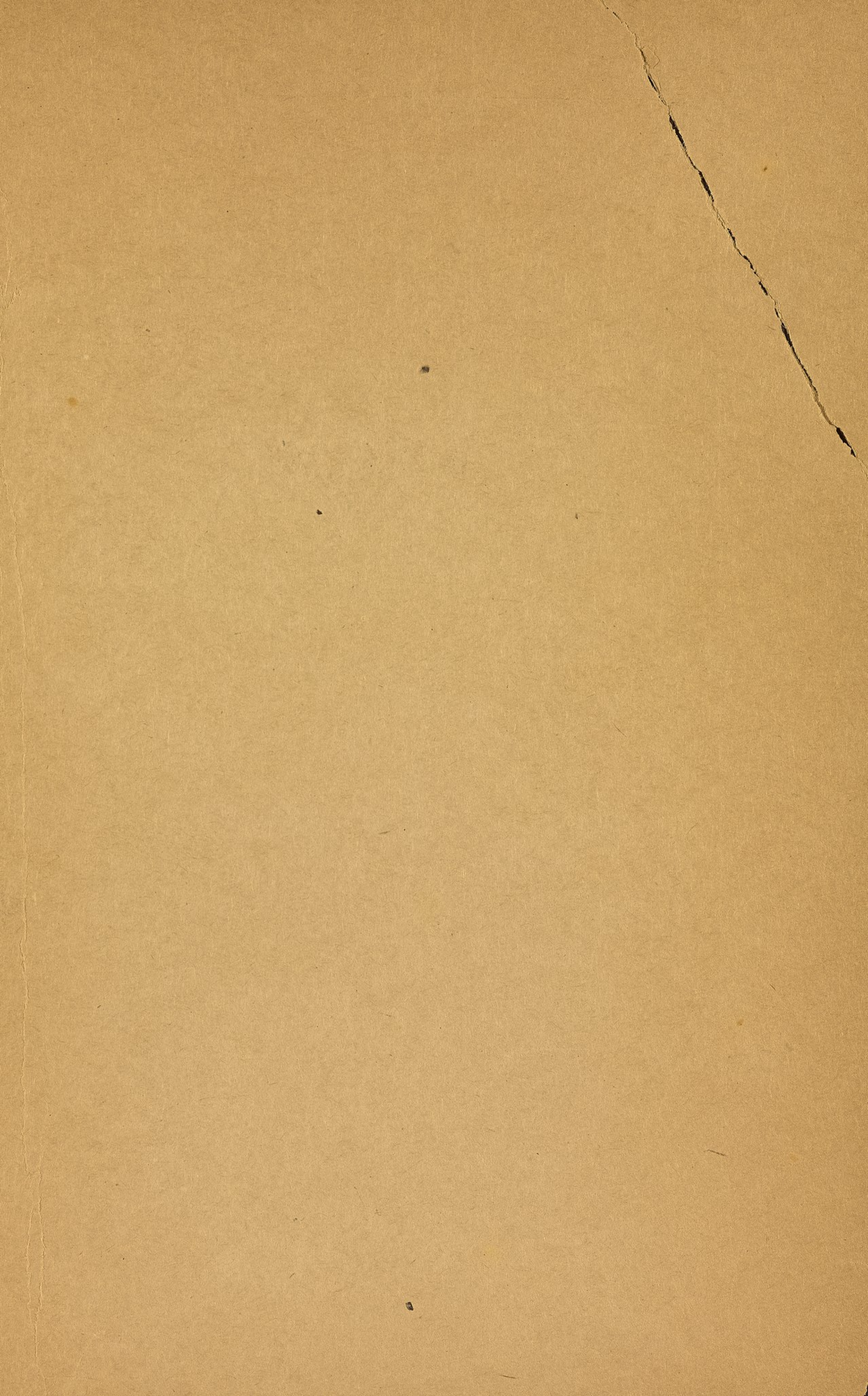
سفرنامه

كتبه باللغة الفارسية
الرحالة
ناصر خسرو علوى

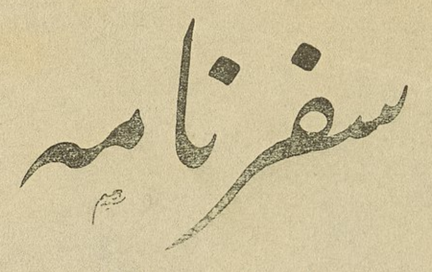
نقله إلى العربية وقدّم له وعلّق عليه
الدكتور
يحيى الخشاب

الطبعة الأولى

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م



مطبوعات معهد اللغات الشرقية — كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول (١)



سفرنامه

كتبه باللغة الفارسية
الرحالة

ناصر خسرو علوى

نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه
الدكتور

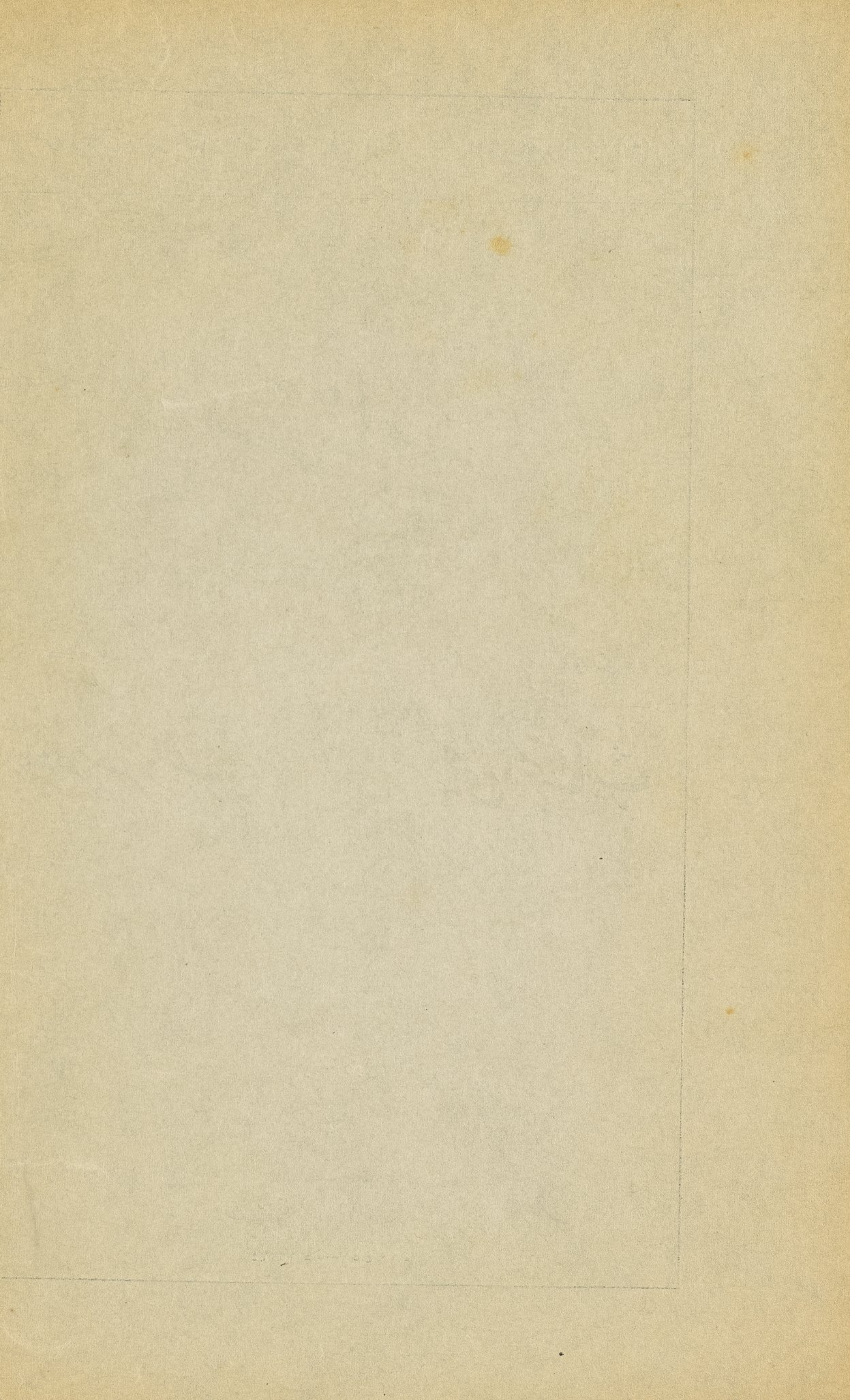
يحيى الخشاب

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

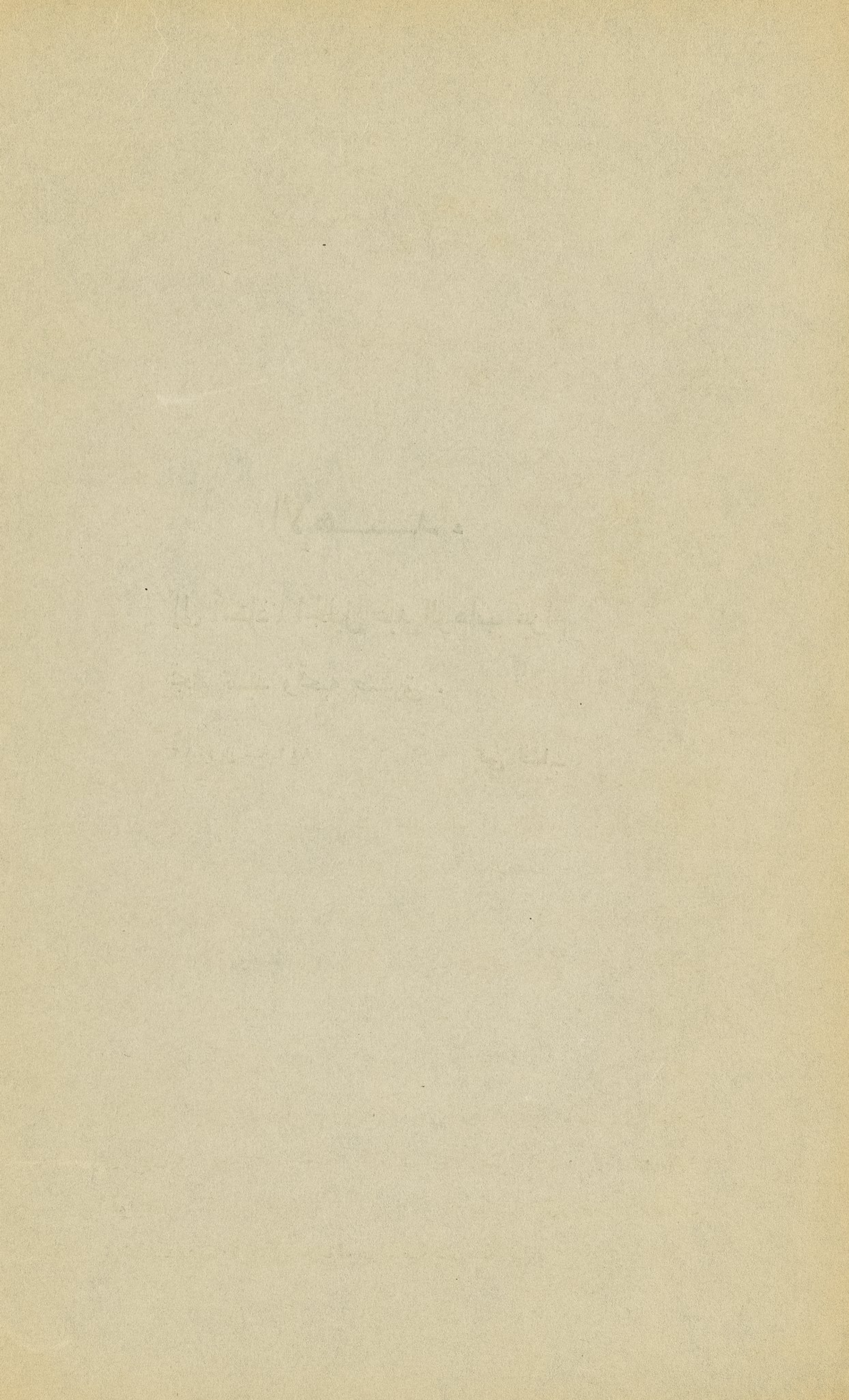


الإهـــداء

إلى أستاذنا الجليل عبد الوهاب عزام

تجلة تلميذ وتحية صديق .

١٢ ابريل سنة ١٩٤٢ — يحيى الخشاب



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

١

كانت سعة العالم الإسلامى ، وتنائى أطرافه ، واتصال أفكاره بعضها ببعض من دواعى الأسفار البعيدة ، والرحلات المديدة . فالبلاد على تباعدها متعارفة ، والسبل على طولها متواصلة . فما يبرح الإنسان بلدا إلى آخر إلاّ وجد البلد الذى رحل إليه موصولا ببلد آخر أبعد منه وهلمّ جرّا . ولا يجد الراحل ما يعوّقه من اختلاف الأمم واللغات ، وتقاطع الأقطار وانقطاع الصلات .

وكان الحج إلى البيت الحرام وزيارة المدينة المنورة مما زاد المسلمين إقداماً على الأسفار ، وتمرساً بها ومراناً عليها . إلى أسباب أخرى .

ومن أجل هـذا سنّ العلماء الارتحال إلى البـلاد القاصية فى طلب العلم ولقاء الشيوخ ، فلم يكن ينبهُ عالم ويركن إلى علمه حتى يطوّف فى الأقطار يلقى كبار العلماء وأجلاّء الشيوخ ويحصل العلم من شيوخ كثيرين فى بلاد مختلفة .

وكان كل راحل للحج أو العلم أو التجارة أو غيرها يحدّث بما رأى ويصف ما شهد ، فكانت أخبار الرحلات والأسفار مثبتة فى كتب التاريخ وتقويم البـلدان وفى سير العلماء ونحوها .

٢

ثم نشأت على مر الزمان طائفة من الرحّالين جعلوا مقصدهم وصف أسفارهم ، وتسجيل تجاربهم فى كتب يجد قارئها من الأخبار المتصلة ، والأوصاف المتتابعة ، والتدقيق فى تسجيل الحوادث والمَشاهد ما لا يجده فى كتب التاريخ والسـيَر التى تُعنى أول ما تعنى بالحوادث مشهودة ومروية ويأتى خلالها وصف البلاد وأهلها تبعا .

وعرفت فى العالم الإسلامى الكتب التى سميت الرحلات . وهى فى جملتها وصف إنسان أسفاره وما شهد فيها من أرض و بلاد وأمم ودول وملوك وعلماء وعادات وأخلاق .

٣

أقدم ما عرفنا من الرحلات رحلة ابن فضلان رسول الخليفة المقتدر بالله العباسى إلى بلاد البلغار القديمة ، وكانت على نهر إتِل (الفلجا) وقد عرفناها بفصل منها نقله ياقوت فى معجم البلدان وكانت هذه الرحلة فى القرن الثالث الهجرى .

ومن الرحلات المعروفة الباقية إلى يومنا رحلة ابن جبير فى القرن السادس الهجرى ، ورحلة أبى الحسن الهروى الموصلى فى القرن نفسه ، ورحلة البلَوىّ المغربى وابن بطوطة المغربى فى القرن الثامن ، ورحلات أخرى توالت إلى هذا العصر .

٤

ومن أقدم الرحلات المعروفة رحلة الشاعر الفارسى المتفلسف ناصر خُسرو ، وهى رحلة تقع حوادثها بين سنة ٤٣٧ وسنة ٤٤٤ هـ ، فهى قبل رحلة ابن جبير بأكثر من مائة سنة ويجول صاحبها فى بلاد إيران مبتدئاً من مرو فى خراسان ماراً بآذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبى العراق ، و يعود إلى إيران منتهياً إلى مدينة بلخ فى خراسان .

ولمصر من هذه الرحلة النصيب الأكبر ، فقد أقام بها الرحالة أكثر من ثلاث سنوات ذهب أثناءها إلى الحجاز . وقد عنى بوصف ما شهد فيها أيام الفاطميين ، وكان الرجل شيعياً فسرّه ما رأى من سلطان الفاطميين فى مصر فنشط للوصف والتسجيل .

قدم مصر من فلسطين وحج المرة الأولى من طريق القلزم وركب البحر إلى الجار على ساحل الحجاز وعاد من هذه الطريق . ثم فارق مصر إلى الحجاز من طريق أسوان وعيذاب وركب السفينة من عيذاب إلى جدة . فقد جاب مصر من مدينة تنيس فى بحر الروم إلى عيذاب على بحر القلزم .

ووصف مصر يشغل نحو ثلث الكتاب ما بين صفحة ٣٧ وصفحة ٧٤ و يجد فيه

القارئ صفحات طريفة ممتعة ، يجد أحياناً حقائق لا يظفر بها قارئ كتب التاريخ والرحلات .

انظر قوله عن دور القاهرة ص ٥٠ :

« وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول إنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة ، وهى بعيدة بعضها عن بعض ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر ، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت ، من هدم أو إصلاح ، دون أن يضايق جاره » .

٥

ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور يحيى الخشاب ، وعلّق عليه تعليقات مفيدة ، وقدّم له مقدمة قيّمة فى تاريخ الشاعر وعصره وكتابه ، وقرر معهد اللغات الشرقية نشره فكان أول منشوراته ولعله فاتحة مباركة وحلقة فى سلسلة متصلة من المؤلفات القيّمة ينشرها المعهد من بعدُ بتوفيق الله تعالى .

ونشر هذا الكتاب بالعربية اليوم أمنية طال انتظارها ، وربح محقق لقراء العربية عامة والمصريين منهم خاصة .

وهو ثمرة جديدة تضاف إلى ثمرات كلية الآداب فى نشر الآداب الشرقية والتعريف بها بالتأليف والترجمة والتصحيح والشرح .

فقد أخرج أساتذة الآداب الشرقية فى هذه الكلية فى أقل من خمسة عشر عاماً كتباً من عيون الأدب الفارسى إلى ما كتبوا من مقالات وألقوا من محاضرات .

وإنى لآمل أن يتصل السعى ، ويستمر الدأب ، وتزيد العناية بدرس الآداب الشرقية عامة ، ونقل ذخائرها إلى اللغة العربية حتى تكون مصر مصدراً لأحسن ما فى الآداب الشرقية ، وموردا لطلاب هذه الآداب من أقطار العالم كلها .

عبد الوهاب عزام

رئيس معهد اللغات الشرقية


سفرنامه
ناصر خسرو

مقدمة

١

كانت الحياة السياسية فى الجزء الشرقى من الدولة الإسلامية ، إيران والعراق والشام ، مضطربة أشد الاضطراب فى القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس ، فإن دولا كثيرة اقتسمت الحكم فيه ، وكان بعضها يكبر على حساب بعضها . ولقد تحرج مركز الخليفة العباسى فى بغداد حتى كان بعض سلاطين هذه الدول ينال منه ويعلن الحرب عليه فكان يضطر إلى أن يلجأ إلى سلطان دولة أخرى ليحميه ، وكان منهم من يطلب إلى الخليفة أمرا ، فإن أبى هدد بعزله وتولية سواه من بيت العباسيين . وانتهى أمر الخليفة السنى فى بغداد بأن سيطر عليه وعلى عاصمته أحمد البويهى (٩٤٥/٣٣٤) ، وهكذا أصبح السلطان الشيعى حامياً للخليفة السنى ، وقد أبقى السلطان على خليفة بغداد ، وإن كان لا يعتقد صحة خلافة العباسيين ، حمله على ذلك رغبته فى المحافظة على سلطانه الكامل على الشيعة من أتباعه ، فإن عزله خليفة بغداد واعترافه بالخليفة الشيعى (الفاطمى) خطر عليه ؛ خطر صوره أحد مستشاريه بقوله : « إنك أنت اليوم مع خليفة عباسى تعتقد أنت وأهلك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرت بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأهلك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه »[١] .

وكانت الدولة الصفارية تعتدى على الخليفة العباسى فتحميه الدولة السامانية ، وكان السلطان محمود الغزنوى يطلب لنفسه ألقابا فيأباها عليه الخليفة فيهدده بالعزل[٢] ، وكان الخليفة قد تجرد من كل سلطاته وحقوقه تحت سيطرة البويهيين ، وكان الخليفة

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٨ طبعة مصر .

(٢) سياست نامه ص ١٤ — ١٥ ، ١٣٥ والطبرى ج ١٢ ص ٢٠ طبعة مصر .

المسلم الثانى ، الذى استقر فى القاهرة منذ سنة ٩٧٢/٣٦٢ ، ينتهز فرصة ضعف منافسه فيبعث دعاته يدعون السامانيين والغزنويين والبويهيين للقضاء على الخلافة العباسية والاعتراف به خليفة شرعيا على المسلمين . وكانت الدعوة فى هذا السبيل محكمة غاية الإحكام فى نظامها ونشاطها وطرق الإقناع بها ، فنجحت فى خراسان إلى حد ما ، إذ انضم إلى دعاتها أمير الرى أحمد بن على وحسين بن على المروزى من الأمراء ، ورغب هذا الأخير فى أن تتم الدعوة الفاطمية بلاد ما وراء النهر ، فنصح إلى الداعى الفاطمى ، النخشبى ، أن يسافر إليها وأن يعمل على استمالة رجال قصر السلطان السامانى نصر بن أحمد . ونجح النخشبى فى بعثته وحمل السلطان على دفع مبلغ ضخم للخليفة الفاطمى القائم بأمر الله تعويضا عن قتل حسين بن على المروزى فى بخارى . وإذا كان السلطان السامانى قد دخل فى الدعوة الفاطمية ، فإن رجال جيشه وعلماء الدين فى بلاده لم يرضوا عن سلوكه واعتبروه خارجاً على الدين الصحيح ، فأما العلماء فقد نصحوا الجند بأن يعودوا إلى ديارهم لأن سلطانهم قد حاد عن الصراط السوى ، وأما الجند فقد أجمعوا أمرهم على خلع السلطان . ولكنّ الأمير نوحا ، ابن السلطان ، نجح فى خلع أبيه وولِىَ الأمر من بعده وأرضى الساخطين من رجال الجيش والعلماء ثم حشد قوى الدولة جميعها للقضاء على الدعوة الفاطمية ، وآثر مقاتلة رجالها على محاربة الكفار من الترك ، وأفلح فى القضاء على نشاط الخليفة الفاطمى ودعاته فيما وراء النهر وخراسان ، وإن تكن دعوتهم قد استمرت سرية فيما بعد[1] .

وإذا كان أمر الدعوة الفاطمية فى خراسان وما وراء النهر على نحو ما رأينا ، فإنه فى فارس والعراق كان أشد قوة وأبعد أثراً . ذلك أن الدولة البويهية نفسها دولة شيعية ، وقد خلفت سادتها الزياريين الذين طردوا العلويين من ملكهم فى بلاد الديلم من قبل ، وكان ملوكها يميلون ميلا ظاهراً إلى المذهب الفاطمى أو الباطنى . يحدثنا المؤرخون أن مجد الدولة مثلا كان باطنيا . وقد أثمر نشاط الفاطميين فى إقليم فارس خاصة أيما إثمار . وكان موسى بن أبى عمران حجة فيها (أى كبير القائمين بأمر الدعوة الفاطمية) ، وقد نجح هذا

---

(١) سياست نامه ١٩٢ — ١٩٣ .

فى تنشئة ابنه على مذهبه ، ثم لقنه أصول الدعوة وطرق بثها فى الناس ، وطلب إلى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى أن ينصبه حجة من بعده ، ولكن الخليفة رفض هذا التنصيب ، لأن المناصب الدينية لا تورث إنما يتولاها من يراه الخليفة أهلا للقيام بها ، وقد ثابر الابن حتى ظفر بثقة الخليفة ، وخلف والده فى منصب حجة فارس ، واتخذ لنفسه لقب المؤيد لدين الله . وكان السلطان فى ذلك الوقت أبا كاليجار البويهى ، ومع أنه كان شيعيا كان متردداً أشد التردد فى قبول المذهب الفاطمى والاعتراف بخليفة الفاطميين ، وكانت تتجاذبه فى ذلك عوامل مختلفة . فتشيعه وسخطه على خليفة بنى العباس كانا يقربانه من هذا الاعتراف ، ولكن حاشيته وجنده الترك والسياسة التقليدية التى سارت عليها أسرته من عدم المبايعة لخليفة الفاطميين ، كل هذا كان يدفعه إلى النفور من هذا الاعتراف . وكان المؤيد يعمل جاهداً فى شيراز ليدخل أهلها فى مذهبه ، فنجح فى استمالتهم حتى قيل عنه لوزير أبى كاليجار : « إن الناس يتخذون هذا الرجل أبا لهم وأخا وصاحباً ومحلا لكل سر ومفزعا فى كل خير وشر » ، ونجح آخر الأمر فى إقناع أبى كاليجار نفسه بالدخول فى مذهبه ، وقد ساعده على بلوغ هذه الغاية وزير شاطره الرأى ، فإنه لم يكن طبيعيا أن يُضطهد رجل لا يبغض السلطان آراءه ، ولو عاش فى بلاط محمود الغزنوى السنى المتعصب لما لقى من العزلة والشر أكثر مما يلقى فى عهد السلطان البويهى الشيعى . قَبِل السلطان دعوته ولكنه اشترط عليه ألاّ يخرج من بيته حتى لا تشيع الفتنة بين الناس . ولم يمض زمن طويل حتى أعدت دروس خاصة للسلطان فى قصره ، يبدؤها المؤيد بتلاوة القرآن ، ثم يقرأ فصلا من « دعائم الإسلام » للقاضى أبى حنيفة النعمان الذى سنرى مكانته الأدبية والعلمية فى مصر الفاطمية ، وتكررت هذه المجالس ، فقد كانت تعقد مساء كل خميس ، وازداد شغف السلطان بها ، فأخذ يسأل عما أشكل عليه من مسائل ، وسمح للمؤيد بأن يختم درسه بالحمد والدعاء للخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وانتهى الأمر بقول السلطان لداعيه : « إنى أسلمت نفسى ودينى إليك ، وإننى راض بجملة ما أنت عليه » . ولكن الوزير الذى كان يرعى المؤيد ويؤازره عند السلطان يموت ويلى الوزارة من بعده وزير سنى شديد التعصب لأهل السنة فيحمل على المؤيد ويشى به عند السلطان ، وقد ساعده فى حملته ما قام به المؤيد نفسه فى الأهواز ، فقد ذهب إليها وجمع شيعته من حوله واتخذ

من مسجد مهدم مكانا للاجتماع — ويظهر أن اتخاذ المساجد القديمة مكانا للاجتماع كان عادة عند الباطنية[1] — وأصلح المؤيد المسجد وعمّر منبره ووضع عليه لوحة من الذهب عليها أسماء الأئمة من أبناء على بن أبي طالب إلى المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، ثم كان يدعو لهذا الإمام فى خطبة الجمعة وكان مؤذن المسجد ينادى بحىّ على خير العمل . وقد أثار هذا المسلك شعور أهل السنة وخاصة قاضى الأهواز الذى بلغ من غضبه أن كتب إلى الخليفة العباسى شاكياً ونذيرا[2] . استغل الوزير السنى ثورة أهل الأهواز ورفع الأمر إلى أبى كاليجار فغضب وثار على المؤيد لمخالفته أمره بأن لايغادرمنزله فى شيراز وأخذت مكانته منه تهبط حتى صرّح له ، فى مناظرة كانت بينه و بين عالم سنى ، بأن مناظِرَه السنى خير منه ومن جميع أبناء القدّاح (يعتبره الفاطميون جدا لهم وأحد أبناء على) . ومنذ ذلك الوقت لم يعد لدى المؤيد شك فى أن السلطان قد تخلى عنه ، و فى أن حياته أصبحت فى خطر وأيقن أن بقاءه فى شيراز غير محمود العاقبة ، فظل مختفيا بها إلى أن فر إلى القاهرة حيث إمامه المستنصر ، وكان ذلك عام ٤٣٧/١٠٤٥[3] .

٢

فى هذا الجو المضطرب سياسيا ودينيا نشأ ناصر خسر و . فقد ولد فى قبأديان عام ٣٩٤/١٠٠٣ ، من أسرة متوسطة الحال لا هى بالغنية ولا هى بالفقيرة ، وتثقف ثقافة واسعة والتحق بخدمة السلطانين الغزنويين محمود ثم ابنه مسعود ، فقد نشأ نشأة سنية وبدأ حياته فى بلاط حماة السنة وقتذاك . وتبدلت الأحوال السياسية ونجح السلاجقة فى القضاء على معظم الدويلات الشرقية وأفلحوا فى توحيد الإمبراطورية الإسلامية وأصبح الأمر — إلا أقله — بيدهم ، فالتحق ناصر بخدمة جغرى بيك السلجوقى حاكم خراسان ، وتولى أمر خزانته فى مرو مدة طويلة حتى نسب إليها . وكان كسائر الناس فى ذلك العصر

(١) سياست نامه لنظام الملك ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٢) السيرة المؤيدية . مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٦٠٥٦ ص ١٨ وما بعدها ثم ص ٩١ وما بعدها .

(٣) ناصر خسرو (باللغة الفرنسية) ص ٣١ ليحيى الخشاب .

حائراً فى المذهب الحق الذى ينبغى له أن يتبعه أيكون شيعيا أم سنيا فإذا وفق إلى أن يختار بينهما ، فأى فرقة من الفرق العديدة يتبع ، وقد انقسم كل منهما إلى فرق كثيرة . والشيعة الفاطمية لا يفتر لدعاتها نشاط ، وهم يشككون الناس فى أمر الدين ، و يستغلون مافيهم من ضعف حتى يصلوا إلى إقناعهم . والسلاطين من أهل السنه ، الغزنو يون ثم السلاجقة ، يضربون بشدة على أيدى الفاطميين و يغالون فى اضطهاد من يشتبه فيه أنه شيعى ، وعلماء الدين يتلقون الأسئلة من جمهرة الشعب الحائر و يحاولون أن يهدئوا من نفوسهم وأن يوحدوا فيما بينهم فلا يصلون فى ذلك إلى شىء . انظر إلى قول المقدسى يصف إقليم خراسان ، فيتحدث عن المذاهب المختلفة فيه[1] :

« هو أكثر الأقاليم علما وفقها و به يهود كثيرة ونصارى قليلة وأصناف المجوس . وأولاد علىّ فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشميا إلا غريبا ، ومذاهبهم مستقيمة غير أن الخوارج بسجستان ونواحى هراة كروخ واستربيان كثيرة ، وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة ، وللشيعة والكرامية بها جلبة ، والغلبة فى الإقليم أصحاب أبى حنيفة ، إلا فى كورة الشاش و إيلاق وطوس ونسا وأبيورد وطراز وصنغاج وسوادبخارا وسيخ والدندانقان واسفرايين وجو يان فإنهم شفعوية كلهم ، والعمل فى هذه المواضع على مذهبهم ، ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس والمروين ، ولا يكون قاضيا إلا من الفريقين ... ونيسابور أيضا شفعوية . . وللكرامية جلبة بهراة وغرج . ولهم خوانق بفرغانة والختل وجوزجانان ، و بمرو الرود خانقاه وأخرى بسمرقند . و برساتيق هيطل أقوام يقال لهم « بيض الثياب » مذاهبهم تقارب الزندقة ، وأقوام على مذهب عبدالله السرخسى لهم زهد وتقرب . وأكثر أهل ترمذ جهمية ، وأهل الرقة شيعة ، وأهل قندر قدرية ، والشار يصلى العيدين على قول عبد الله بن مسعود ، ومذهب أبى حنيفة يوالون بين القراءتين و يكبرون أربعاً » . ثم انظر إليه وهو يتحدث عن أثر هذا الاضطراب الدينى فى نفوس الناس[2] :

« وذهب رجل إلى عالم من علماء الدين فقال له : عافاك الله جئتك مسترشداً ، إنى

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٣٢٣ (طبعة أوربا) .

(٢) ص ٣٦٥ من المصدر نفسه .

رجل دخلت فى جميع هـذه الأهواء فما أدخلت فى هوى منها إلا القرآن أدخلنى فيه ولم أخرج من هوى إلا القرآن أخرجنى منه ، حتى بقيت ليس فى يدى شىء » . فقال العالم : أرأيت هل اختلفوا فى أن محمدا رسـول الله ، وأن ما أتى به من الله حق . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى القرآن أنه كتاب الله . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى دين الله أنه الإسلام . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى الـكعبة أنها القبلة . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى الصلوات أنها خمس . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى رمضان أنه شهرهم الذى يصومونه . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى الحج أنه بيت الله الذى يحجونه . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى الزكاة أنها من مائتى درهم خمسة . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى الغسل من الجنابة أنه واجب . قال لا : فذكر شيئا من هذا وأشباهه ثم قرأ : « هو الذى أنزل عليك الـكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الـكتاب وأخر متشابهات » (٣/٧) ، فهل تدرى ما المحكم ؟ قال لا . قال : فالمحـكم ما اجتمعوا عليه ، والمتشابه ما اختلفوا فيه ، شد نيتك فى المحـكم وإياك والخوض فى المتشابه » .

وحين رجع المقـدسى من البصرة إلى خوزستان ، قال له أحد أصدقائه ممازحا : أعد الصلاة التى صليتها بخوزستان فإنهم يصلون إلى غير قبلة[1] .

هذه صورة من حياة الناس وكيف أثرت فيها كثرة الفرق الإسلامية ، وهى تبين إلى أى حد بلغ منها هذا الأثر بفضل نشاط الدعاة من هذه الفرق جميعا . وقد رأينا كيف كان يحرص رجال الدين وأهل السنة على إبقاء عامة الشعب بعيدين عن الدخول فى المتشابهات من آيات القرآن وأحكام الدين المترتبـة على تفسيرها ، فهم حريصون على أن يقيم المسلم أركان الإسلام الخمسة . ولـكن الرجل المثقف الذى يقرأ آراء الفرق الـكثيرة فى مختلف المسائل والذى يحب أن يتناول المتشابهات من آيات القرآن ليبحث أحكامها ، ويبدى رأيه صريحا فيها كان حائرا حقا ، لم يُجد فيـه شىء من حرص الحـكام السنيين على ثبات إيمانه .

وكان ناصرخسرو يشغل منصبا كبيراً فى الدولتين الغزنوية والسلجوقية ؛ وهو واسع

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤١٥ (طبعة أوربا) .

الاطلاع ، يقرأ الفلسفة و يناقش آراء الفارابى وابن سينا ، وقد نظر حوله فوجد هذا الخلاف قائما فحاول أن يصل إلى الحقيقة فسلك فى ذلك من الطرق ما استطاع سلوكه . رجع إلى القرآن وكتب الحديث ورجع إلى التوراة والإنجيل وكتب مذاهب الهنود بلغاتها الأصلية ، وأطال النظر فى الأفستا والزند واتصل بعلماء الأديان ، مسلمين ونصارى و يهود وهنود ومجوس ؛ وناقشهم فى المسائل التى لم يهتد إلى رأى فيها ، فلم يظفر بمن يقنعه . ورأى أن يرحل إلى بلاد العرب وفارس وتركستان والهند ، لعله يجد من يهديه إلى الطريق الحق لمعرفة الله ؛ ولكنه مع هذا كله لم يصل إلى ما يريد[1] . وكانت نتيجة هذا الفشل فى معرفة الحقيقة أن وقع فيما يقع فيه الفلاسفة والمفكرون من الشك الذى قد يصل إلى الإلحاد ، وظهرت آثار هذه الفترة فى شعره ، فقد كان شاعراً من أعظم شعراء الفرس وأغزرهم مادة . وانتهز خصومه فرصة الشك هذه وأخذوه ببعض أبيات قالها تنم عن الحيرة وقد تصل إلى الكفر . ومن هنا اختلف رأى الكتاب الفرس فيه ، فبعضهم يأخذه بهذه الأبيات ويرميه بالكفر ، و بعضهم يصفه بالتقوى و يصل نسبه بعلى و يجعله حكيما من الحكماء المسلمين[2] . على أن فترة الشك هذه لم تطل على كل حال ، وهذا ناصر يؤثر أن يرحل إلى مصر ، حيث نظمت الدعاية للمذهب الفاطمى تنظيما دقيقا كما سنرى ، لعله يجد فيها ما تصبو إليه نفسه من معرفة الحقيقة ، فإنه قد سمع من دعاة مصر فى خراسان وفارس من يتحدث عن مذهب جديد يختلف عن الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية ، كما عرف أن من هؤلاء الدعاة من يستمع إلى أسئلة المتحير و يجيبه عليها ، و إنه ليحب أن يسأل لماذا وكيف ، وأن يجاب عما يسأل جوابا يشفى غلته ، فليعزم إذاً على الرحيل و بالله التوفيق .

٣

يحدثنا ناصر خسرو فى ديوانه ، أن الذى دفعه إلى رحلته هو ما قرأ فى القرآن الكريم فى سورتى محمد والفتح من قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب

---

(١) ناصر خسرو بالفرنسية ليحي الخشاب ص ٤١ — ٥٢ .

(٢) سفر نامه النص الفارسى ص ١٢ ، الترجمة ص ٩ .

أقفالها » (٢٤/٤٧) . إذن ففى القرآن ، إذا أمعن النظر فيه وتدبر معانيه ، ما يفرج كربته ويبدد الشك من نفسه ، ويشع فيها من الهدوء والاطمئنان ما يوصل إلى إيمان قوى سليم ، ولم يكد يستمر فى القراءة قليلا حتى قرأ فى السورة التالية قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » (١٠/٤٨) . ثم قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين ، إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » (١٨/٤٨) ، حينئذ أخذ منه الحماس كل مأخذ فنهض من مقعده وعزم على الرحيل إلى حيث الشجرة التى بايع المؤمنون تحتها النبى صلى الله عليه وسلم على أن يقاتلوا معه ، المؤمنون من أمثال جعفر والمقداد وسلمان وأبى ذر[١] ، فلعل من سحر المكان ماينفذ إلى نفسه الحائرة بالسكينة والأمن . وقوّى هذا الرأى عنده ودفعه إلى العمل على تحقيقه ، ما صادفه من تفاؤل توالى عليه بعد عزمه على الرحيل ، يصفه فى سفرنامه ، فيقول إنه سافر إلى پنج ديه فى عمل من أعمال الديوان وصادف ذلك اليوم اقتران الرأس والمشترى ، ويقال إن الله تعالى يستجيب الدعاء فى هذا اليوم ، فذهب إلى زاوية ودعا ربه أن ييسر له أمره ويهديه . وعاد بعد الصلاة إلى رفاقه فوجد أحدهم ينشد شعرا فجال بخاطره أن ينشد قصيدة معينة فهمّ بكتابتها ليعطيها للمنشد لينشدها له ، ولم يكد يفرغ من الكتابة حتى كان المنشد ينشد القصيدة نفسها ، فتفاءل ناصر وعلم أن الله تعالى سيقضى حاجته ويروى غلته بمعرفة الحقيقه التى يبحث عنها . وفى هذه الحال النفسية حال الضال يبحث عن الهدى والسبيل إلى الحق ويطيل التفكير والتأمل ، أخذ ناصر يشرب الخمر شهرا كاملا حتى إذا كانت ذات ليلة رأى فى المنام رجلا ينهره لأنه يدمن على الشراب ، فيناقشه ناصر ويدافع عن مسلكه وحجته فى ذلك ان الفيلسوف الحائر يجد فى الخمر ونشوتها ما يخفف من همومه ، وحجة صاحبه أن التسرية عن النفس لاتكون بفقدان الشعور وأن الفيلسوف لايستطيع أن يكون هاديا للناس وهوفاقد لوعيه ، وإنما على الفيلسوف أن يبحث عما يزيد العقل والحكمة.

---

(١) ديوان ناصر ص ١٧٣ (طبعة طهران) .

ويسأل ناصر محدثه عن السبيل لهذه الزيادة فيشير المحدث إلى القبلة قائلا «من جد وجد» ثم ينصرف عنه. ويصحو ناصر من نومه، ويتمثل الرؤيا كأنها حقيقة فيفيق من الخمار ويقول لنفسه إن عليه أن يفيق من غفلة أربعين عاما جلى كما أفاق من سبات البارحة، ويعتزم الرحلة إلى مكة، إلى القبلة التى أشار إليها محدثه، فينصرف إلى مرو ويطلب إعفاءه من الوظيفة ويعزم على الحج وكان ذلك فى جمادى الآخر ٤٣٧ (١٠٤٧)، فى نفس العام الذى سافر فيه المؤيد إلى مصر.

٤

غادر ناصر مرو مستصحبا أخاه أبا سعيد وغلاما هنديا، وبعد أن زار بيت المقدس، قصد الحج لأن محدثه فى الرؤيا أشار إلى القبلة حين سأله أين يجد ما يبدد شكوكه، ولأن قراءة القرآن هدته إلى الذهاب حيث الشجرة التى تعاهد تحتها المؤمنون على نصرة النبى عليه السلام إلى النهاية مهما كلفهم الأمر، وعاد إلى بيت المقدس فعزم على زيارة مصر على أن يغادرها إلى مكة مرة أخرى. فلم يكن فى عزمه أن يقيم بمصر زمنا طويلا، ولم يكن فى نيته أن يرحل إلى بلاد أخرى، لذلك لم يكن استعداده كاملا لهذه الرحلة الطويلة الشاقة التى سطرها فى كتابه سفر نامه، والتى دامت سبع سنوات، لقد اكتفى، حين طلب إعفاءه من عمله فى الديوان، بالقليل الذى لا بد منه للرحلة بل لقد ترك بقية أمواله. وهو وإن يكن قد لقى فى مصر والحجاز، وكان تابعا لسلطان مصر، من كرم الضيافة وحسن الاستقبال شيئاً كثيرا كما سنرى فيما بعد، فإنه قد لقى فى الوقت نفسه من الصعوبات شيئاً كثيرا فى سائر رحلته، وخاصة حيث لم يكن يجد عونا من صديق أو إغاثة ممن يعرف قدره. وهو يحدثنا أنه وصل إلى فلج ولبث فيها أربعة أشهر لم يكن معه طوالها غير سلتين من كتب، والناس هناك جهلاء لا يعنون بشراء الكتب ولا يقدرونها، فلم يكن له بد من التحايل على كسب القوت، وهو يجيد الكتابة بالخط الجميل، وكان معه بعض الألوان، فكتب على محراب المسجد بيتاً من الشعر وزينه بأوراق الشجر، فلما أبصر السكان هذا الرسم أعجبوا به وطلبوا إليه أن ينقش المحراب ووعدوه بمائة منّ من التمر، فسره هذا

العرض ونقش لهم محراب مسجدهم ليظفر بقوته من التمر . ثم هو يحدثنا عن الحال التى كان عليها ، هو وأخوه ، عند ما بلغا البصرة ، لقد بليت ملابسهما ولم يبق منها إلا خرق مدلاة على جسدهما ، وطال شعر رأسهما ، وبدت عليهما سيما الفقر والجوع والإعياء ، فاضطر ناصر إلى أن يبيع هذه الكتب التى اضطر من أجلها إلى أن يعود من مكة إلى مصر . فلما باعها ذهب مع أخيه إلى الحمام ، ولكن الحمامى رفض إدخاله ولم يرق لحاله ، ولا لحاجته إلى الدفء والنظافة ، وحسب أطفال الطريق أن بهما جنة فأخذوا يعدون وراءهما و يقذفونهما بالحجارة .

ولكن ناصراً و إن لم يعدّ المال الكافى للقيام بهذه الرحلة الطويلة ، لأنه لم يدبر أمرها قبل قيامه من مرو ، ولكن الحوادث هى التى كانت تسيره ، فإنه كان يعتمد على شخصيته فى كثير من الأحيان ، فهو الرجل الذائع الصيت الذى يعرفه كبار القوم ، فإن أصابه ضر أو ألمت به مصيبة استطاع أن يجد عون الأصدقاء ليبدلوا عسره يسراً . فتراه فى عيذاب مثلا ، وقد اضطر إلى الإقامة بها ثلاثة أشهر ، يتقدم إلى وكيل صديق له كان قد عرفه فى أسوان ليأخذ منه ما احتاج إليه من الدقيق . وكذلك استأجر جملا ، نسيئة لينقله من فلج إلى البصرة ، فلما بلغها لم يكن معه الأجر الذى اتفق عليه ، فاتصل بوزير أمير الأهواز فرحب به وأضافه خمسة وأربعين يوما ودفع ما عليه من دين للجمّال . وحين بلغ مهروبان وأراد أن ينتقل إلى أرّجان وجد الطريق خطراً لا يؤمن السير فيه ، فكتب إلى كبير من كبرائها فأرسل إليه ثلاثين فارساً صحبوه آمناً إليها .

وعلى هذا النحو نجد أن ناصراً لم يكن يسير فى رحلته وفق ترتيب سابق مرسوم ، وكل ما استعد له فى أمر الرحلة كان قاصراً على زيارة مكة ، ثم زيارة مصر على أن لا يطيل المكث فيها ليعود إلى مكة مرة أخرى .

٥

كتب ناصر حوادث رحلته ، يوما فيوما ، تشهد بذلك الدقة التى نراها فى وصفه لبعض الأماكن كمسجد بيت المقدس ، ولبعض الحفلات ، كحفلة افتتاح الخليج ، فالصفات

التى يصفها والأسماء التى يذكرها ليست مما يعلق بالذاكرة سنوات عدة ، ثم يكون بمثل هذه الدقة وذاك الكمال . ولقد اتفق الكتاب على هـذا وإن اختلفوا فى تحديد التاريخ الذى كتب فيـه سفرنامه . أما شيفر فإنه يرجح أنه كتبه قبل سـنة ٤٥٣/١٠٦٠ لأن ناصراً يشير فى كتابه إلى نصر الدولة الذى مات فى هذا التاريخ . وأما تقى زاده فإنه يذهب إلى أنه كتبه بعد سنة ٤٥٥/١٠٦٣ ، لأنه يذكر طغرل بيك على أنه متوفى ، إذ يقول عنه رحمه الله : وقد مات فى هذا التاريخ . ولـكن من الصعب أن نقرر أن كلمـة « رحمه الله » — التى كثيراً ما تذكر فى الـكتب الشرقية — أصلية فى النص إذ من السهل أن تكون من إضافات النساخ ، ثم إن ناصراً فى هذا التاريخ وبعده ، كان مقيما فى يُمكان وكان قد كوّن لنفسه فيها فرقة خاصة لها مذهبها المتأثر أشد التأثر بالمذهب الفاطمى فى مصر ، وفى هذه الأثناء كتب أكثر كتبه بعد أن وضع دستوره الدينى فى كتابه « وجه دين » ، أفليس عجيباً أن يكتب فى هـذا الوقت رحلته ولا يشير إلى أثر مصر فى نفسه ، بل إنا لنراها خالية حتى من إشارة صريحة إلى مذهبه الذى اعتنقه فى مصر وإلى اهتدائه إلى الحقيقة التى قال إنه ينشدها فى أول الـكتاب . فلهذه الاعتبارات كلها نرجح أنه كتب سفرنامه بعد عودته إلى خراسان مباشرة ، حينما عاد إلى وطنه بعد غيبة سبع سنوات ، وقبل أن يندفع فى الطريقة الجديدة التى اصطبغت بها حياته فيما بعد والتى جعلت منه عدوا خطراً على الدولة السلجوقية وعلى مذهبها الرسمى — السنة — والتى جعلت منه صاحب فرقة يدعو إليها ويضطر إلى الاختفاء فى الجبال من أجلها . ومما يقوى هذا الترجيح أنه يذكر فى سفرنامه لقاءه بأخيه أبى الفتح عبد الجليل ويصور سروره بهذا اللقاء كما يذكر أن أخاه كان دائم السؤال عنه ، ولـكنه يذكر فى الديوان — الذى كتب بعد عودته من مصر — أن أخاه قد هجره وتنكر له ، وأن أقاربه جميعاً ساخطون عليه ، ولو كتب سفرنامه فى ذلك الوقت لما أشار إلى أخيه راضيا عنه فرحا بلقائه .

ويعتقد الـكتاب ونحن معهم ، أن النص الذى بأيدينا ناقص ، وأن الـكتاب الذى وصل إلينا مختصر اختصره بعض النساخ عن « سفرنامه » آخر أطول من هذا . ويستشهد

غنى زاده على نقص النص بدليلين : أولهما ، أن مقدمة شاهنامة بايسنقر[1] نقلت عن سفرنامه نصا جاء فيه : إن الحكيم ناصر خسرو قال إنه بلغ طوس سنة ١٠٤٥/٤٣٨[2] فرأى رباطا كبيراً حديث البناء ، فلما سأل عن الذى بناه قيل له إنه بنى من صلة كانت للفردوسى ، كان قد أرسلها إليه السلطان محمود . فلما سأل ناصر عما كان من أمر هذه الصلة ، قيل له إن الفردوسى توفى قبل أخذها ، وإن وارثته رفضت قبولها ، فبنى الرباط بها . يقول غنى زاده وهذه العبارة ليست مسطورة فى كتاب سفرنامه الذى بأيدينا فهو مختصر إذن . وقال فى ملحوظاته على النص إنه يستبعد خطأ مقدمة شاهنامة بايسنقر . والدليل الثانى ، الذى يسوقه غنى زاده على اختصار الكتاب هو ما جاء فى الصفحة العاشرة منه حيث يقول : « ويطول وصف مسجد الجمعة فى ميافارقين لو ذكرته ، ولو أن صاحب الكتاب شرح كل شىء أتم الشرح[3] » .

ونحن نرى أيضا أن النص الذى بأيدينا مختصر والدليل الثانى الذى ذكره الأستاذ غنى زاده هو الذى يجعلنا نرجح ذلك . والواقع أن فى نص الكتاب عبارات كثيرة تقوى هذا الرأى ، كأن يقول ناصر فى وصف بيت المقدس « قد صورته وضممته إلى مذكراتى[4] » . أو كقوله عن زنجبار والحبشة « وسأشرح ذلك فى مكانه[5] » ، ثم لا نجد هذا الشرح فى الكتاب ، وهكذا . وأما دليل الأستاذ غنى زاده الأول على اختصار النص فلسنا نوافقه عليه ، ذلك أن النص الخاص بالفردوسى ورباط طوس والذى نقله الأستاذ عن مقدمة شاهنامة بايسنقر موجود فى كتاب چهار مقاله لنظامى العروضى حيث تنسب رؤية الرباط للعروضى نفسه . مع اختلاف يسير فى النص[6] ، ومن الجائز أن صاحب مقدمة شاهنامة بايسنقر قد أخطأ فى النقل فوضع اسم ناصر خسرو بدلا من نظامى العروضى وسفرنامه بدلا من چهار مقاله . ومما يرجح جواز هذا الخطأ قول أستاذنا عبد الوهاب عزام عن هذه المقدمة

---

(١) مقدمة سفرنامه طبعة كاويانى ص ك .

(٢) يصحح الأستاذ غنى زاده سنة ٤٣٨ فيجعلها ٣٧ ؛ ليوافق هذا التاريخ الجديد رحلة ناصر التى نتحدث عنها .

(٣) ص ٨ سفرنامه (العربى) .

(٤) ص ٤٥ (الفارسى) ، و٣٢ (العربى) .

(٥) ص ٥٩ (فارسى) ٤٦ (العربى) .

(٦) چهار مقاله ص ٥١

إنها مليئة بالغلط والخرافات[1] .

وذهب بعض الكتاب إلى أن سفرنامه قد نظم شعراً ، والراجح أن التوافق بين بعض حوادث الرحلة وقصائد الديوان هو الذى حدا بهم إلى هذا القول ، وليس فى كتب ناصر أو ما كتب عنه نص على رحلة منظومة أو ذكرٌ لها .

وكان ناصر خسرو أميناً فى كتابته ، إذا رأى شيئاً رَأْى العين نص على ذلك نصا ، وإذا سمع عن شىء رواه وجعل العهدة على راويه .

٦

فى ضوء ما نشر من كتب ناصرو خسرو نستطيع أن نقسم رحلته إلى مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى تبدأ بقيامه من مرو فى ربيع الآخر سنة ٤٣٧ (اكتوبر ١٠٤٥) ، وتنتهى ببلوغه القاهرة فى ٧ صفر ٤٣٩ (٤ أغطس ١٠٤٧)

والمرحلة الثانية إقامته فى مصر من ٧ صفر ٤٣٩ (٤ أغسطس) إلى أواخر جمادى الثانى ٤٤٢ (أواخر اكتوبر ١٠٥٠) .

والمرحلة الثالثة عودته إلى بلخ عن طريق الحجاز وفلج والحسا والبصرة وتبدأ منذ قيامه من مصر وتنتهى فى ٢٦ جمادى الآخر ٤٤٤ (٢٦ اكتوبر ١٠٥٢) .

٧

أما المرحلة الأولى فيبدو منها ، لأول وهلة ، أن ليس لناصر مأرب سياسى أو دينى . هو راغب فى الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وهو عائد من مكة إلى بيت المقدس وفى نيته أن يذهب إلى مصر ، يزورها كما زار الشام ، على ألاّ يقيم بها طويلا لأنه يصرح برغبته فى الذهاب إلى مكة . وليس من شك أن رغبته فى زيارة مصر كانت سعياً وراء البحث عن الحقيقة ، إذ فى مصر مذهب دينى عرف بنشاط دعاته فى خراسان ، فلا بد لمن يبحث عن الدين الصحيح أن يذهب إليها لدراسة مذهبها .

---

(١) مدخل الشاهنامه (العربى) ص ٢٩ .

ويبدو ناصر ، فى هـذه المرحلة ، رجلا عالما يحب أن يتصل بالعلماء وأن يناظرهم أو يتحدث إليهم ، فهو يسافر من نيسابور فى صحبة الخواجة الموفق[١] ، ذلك العالم الذى اشتهر فى العصر السلجوقى والذى قدم أبا منصور الكندرى لطغرل بيك ليتخذه وزيراً ، والذى شُهر بأن تلاميذه يشغلون مناصب الوزارة أو ما شابهها من المناصب الكبيرة فى الدولة والذى تلمذ له نظام الملك وعمر الخيام وحسن الصباح . وصحبة ناصر الموفق تبين الصلة العلمية البحتة التى كانت بين الرجلين ، كما ترجح أن ناصرا فى هذا الجزء من الرحلة كان عالما ليس غير . ومما يؤيد هذا الرأى مقابلته عليا النسائى فى سمنان[٢] ، وأبا الفضل خليفة بن على الفيلسوف فى شميران وقد ناظره فى علوم الدين والرياضيات وتوثقت الصلة بينهما[٣] ، ومقابلته ، فى تبريز ، الشاعر قطران الذى سأله عما أشكل عليه من أشعار الدقيقى ومنجيك فكان ناصر يملى عليه الشرح وقطران يكتب[٤] . ويحدثنا أنه نزل ضيفا فى بيت رجل بمدينة قرول فدخل عليه أعرابى وطلب منه أن يحفّظه القرآن فأخذ ناصر يتفكه معه ويحفّظه سورة قل أعوذ برب الناس[٥] .

ومع ظهور هذا الاتجاه العلمى فى المرحلة الأولى من الرحلة فإنا نلاحظ أن ناصرا قد غادر تبريز عن طريق مرند فى صحبة جماعة من جيش الأمير وهسودان والأمير وهسودان هذا من بنى مسافر الذين عرفوا بميولهم الشيعية . بل إن منهم من كان باطنيا[٦] . أيدل هذا على أن ناصرا قد بدأ رحلته وهواه مع الباطنية ؟ إذا لم ينص على ذلك فى كتابه سفرنامه ولا أظهره فى كتبه الأخرى ، فإن رواية رشيد الدين — وهو مؤرخ موثوق به فيما يختص بالمذهب الباطنى — تؤيد هذا الرأى ، وهو يقول إن المستنصر بالله الفاطمى قد دعا ناصرخسرو ليحضر إلى مصر ، كما دعا حسن الصباح أيضا[٧] .

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة الثانية من الرحلة نقف قليلا عند كلامه عن أبى العلاء المعرى ، فهو يصفه بأنه حاكم معرة النعمان وأنه واسع الغنى كثير العبيد وكأنّ سكان المدينة خدم له ثم يقول إن نوابه يدبرون أمر المدينة ولا يرجعون إليه إلا فى الأمور الهامة . وهذا

---

(١) ص ٣ . (٢) ص ٣ . (٣) ص ٥ . (٤) ص ٥ . (٥) ص ١٠ .
(٦) الكامل لابن الأثير الجزء ٨ ص ١٢٥ (طبعة مصر) ، سنة ٣٣٠ هجرية .
(٧) الورقات ٢٨٦ — ٢٩٠ .

الوصف بالثراء والجاه والملك يناقض ما عرف عن أبى العلاء من الفقر . وقد أراد أستاذنا الدكتور طه حسين بك أن يوفق بين حديث ناصر خسرو و بين ماعرف عن أبى العلاء ، فقال[1] : « لهذا التوفيق وجهان يحتملهما العقل : الأول أن الرحالة وصف ما شهد فى المعرة من جاه أبى العلاء وسلطانه المعنوى فظن ذلك ثروة وملكا . الثانى وهو ما نميل إليه أن أبا العلاء كان يملك المعرة حقا ، وكان يحكمها بنواب يدبرون أمرها ويرجعون إليه فى جلائل الأعمال ، فإذا شئنا أن نرجح ذلك فإن الأدلة التاريخية الثابتة لا تواتينا ، ولكنا نذكر قول صالح بن مرداس له حين شفع عنده فى المعرة . قد وهبتها لك .

« أفلا يمكن أن يكون هذا إقطاعا ، وأن المعرة صار أمرها من ذلك الوقت إلى أبى العلاء ، على أن تعترف بسلطان حلب وتؤدى إليها الخراج ؟ ذلك ممكن ، ولكن التاريخ لم يروه ولم ينص عليه ، لا لأنه روى غيره بل لأنه أهمل المعرة إهمالا تاما فى ذلك العصر » .

وقد لاحظ أستاذنا بعد ذلك أن قصة صالح مع أبى العلاء كانت بين سنة سبع عشرة و بين سنة عشرين وأربعمائة « وأن زيارة ناصر خسرو كانت بعد ذلك أى سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة . ولو أنه مر بالمعرة قبل هذه القصة لكان من الحق أن نرفض خبره ولا نصغى إليه . أما وهو لم يمر بها إلا بعد صالح وقصته فمن الظلم للتاريخ أن نمر بهذا الخبر من غير أن نثبت هذا الاحتمال » .

وأما وصف ناصر لأبى العلاء بالثراء فإن الأستاذ يلاحظ « أن فى حياة أبى العلاء شيئا يلزمنا ألا نصدق ما يرويه التاريخ من فقره المدقع ، من غير تحفظ ولا أناة ، فإن فى رسائله ما يدل على أنه قد كان يهدى إلى أصحابه الهدايا ، و يعين أصدقاءه » . ونحن نوافق أستاذنا على رأيه ، وهو الخبير بأبى العلاء .

ونلاحظ أن ناصرخسرو قد أطلق على نفسه لقب ملك حين كان معتصما فى يُمكان يدعو إلى مذهبه[2] ، أفلا يمكن أن يكون وصفه لأبى العلاء بأنه يحكم المعرة من هذا القبيل وهو ما عبر عنه أستاذنا بالسلطان المعنوى ؟

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء (الطبعة الثالثة ١٩٣٧) ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) روشنائى نامه (طبعة برلين) ص ١٥ .

٨

أما المرحلة الثانيـة فهى إقامة ناصر خسرو فى مصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . وقد رأينا من قبـل أن ناصرا لم يصرح برغبته فى الإقامة طويلا بمصر . وهو لا يذكر شيئاً عما كان بها من الاهتمام الشديد بالدعوة للمذهب الفاطمى ، و إذا استثنينا الإشارات العديدة للمستنصر على أنه أميرُ المؤمنين ، فإنا لا نجد إشارة إلى اعتناقه لهذا المذهب[١] .

ومنـذ استقر الفاطميون فى مصر سعوا سعياً حثيثاً لنشر مذهبهم ، وقد أشرنا من قبل إلى نشاطهم فى هذا السبيل فى بلاد الشرق الإسلامى ، وقد كان الخلفاء الفاطميون يدعون من يثقون بإخلاصه لهم و بقدرته على الدعوة لمذهبهم ، يدعونهم إلى مصر ليتخصصوا فى المذهب الفاطمى على يد كبار هذا المذهب وليحضروا دروس الخليفة أيضا[٢] ، وكذلك كان بعض الملوك ممن يدينون بالمذهب الفاطمى يرسلون أبناءهم إلى مصر حتى ينشَّئوا على حب الفاطميين ومذهبهم[٣] .

وكان للثقافة الدينية الشأن الأول فى المجال العلمى بمصر الفاطمية . وكانت المساجد : الأزهر وعمرو والحاكم ، ودار الحكمة ، وقصر الخليفة نفسه أمكنة لإلقاء دروس الفقه والفلسفة الإسلامية . وقد اشترك فى هذه الدروس ، منذ استقر الفاطميون فى مصر ، قاضى القضاة وداعى الدعاة والوزير والخليفة نفسه .

أما قاضى القضاة فكان يختار عادة من أسرة كبير قضاة الفاطميين أبى حنيفة النعمان ابن منصور القيروانى بن حيون الذى رأس القضاة أيام المعز لدين الله (٣٤١ — ٩٥٢/٣٦٦ — ٩٧٥) . وقد اتُخِذَت كتب أبى حنيفة بن حيون هذا أساسا للمؤلفات الفاطمية التى كتبها المجتهدون فى المذهب من بعده . و ينسب إليه ابن خلكان كتبا كثيرة منها : « كتاب الدعوة » و « الإخبار فى الفقه » و « الانتصار فى الفقه » . وينسب إليه المسبِّحى كتاب « اختلاف أصول المذاهب » . ويقال إن له كتابا فى نقد مذاهب أبى حنيفة

---

(١) ص ٦٣ ، ٦٦ ، ١٠٤ .

(٢) جامع التواريخ لرشيد الدين ورقات ٢٨٦ — ٢٩٠ .

(٣) ص ٥٣ من سفرنامه (العربى) .

والشافعى وابن شُريح . وقد رأينا من كتبه : « افتتاح الدعوى » و « المجالس والمسايرات » وكلاهما مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول[1] . و « دعائم الإسلام » و « تربية المؤمنين » و « أساس التأويل الباطن » وهى مخطوطات بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن[2] .

وكان النعمان بن حيون هذا يعرض منهاج كل كتاب على الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قبل كتابته ، ثم يقدمه إليه بعد ذلك[3] ، وكان الخليفة يكلفه بوضع كتاب فى موضوع يختاره بعض الأحيان . يقول فى كتابه المجالس والمسايرات « وأمرنى الإمام المعز لدين الله بتأليف شىء من العلم وقصّ على جميع معانيه وأصّل لى أصوله وألقى إلى جملة من القول فلم أكن قبل ذلك تقدمت فى تأليف شىء منه ولا اتسع على فيه اتساعا يوجب أن أتقدم فى تصنيفه فلما فتق لى المعنى فيه ولخصه وأوضح لى معانيه وأمرنى بتأليفه وتبسيطه تقدمت فى ذلك تقدم واثق بعون الله به . . فابتدأت منه جزءا ورفعته إليه فوقع إلى : يا نعمان وقَفْتُ على الكتاب الذى عملته فرأيته قد جاء حسنا ما بعده أحسن[4] » . ومن أصول المذهب الفاطمى أن العلم يتوارثه الأئمة ، فكان العالم ، مهما سمت مكانته فى العلم ، يعرض مؤلفه على الإمام « لأنه لا يصلح العمل به ولا تحل الفتيا والقضاء بما فيه إلا أن يصححه إمام الزمان ..[5] » ، ومن هنا كان التشابه الكبير بين كتب النعمان بن حيون وكتب من جاء بعده من رجال الفقه الفاطميين .

وأما داعى الدعاة فهو كما يدل اسمه كبير الدعاة ، فقد قُسّم العالم الإسلامى إلى جزائر — أقسام — كان فى كل قسم حجة أى رئيس مذهبى ، وفى كل بلد داع ليدعو إلى المذهب وليكون صلة بين الناس و بين إمامهم الخليفة الفاطمى ، وذلك كما يقول المعز لدين الله : « إن الله أوجب على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والسعى إلينا من قُرب ومن بُعد كما أوجب الله عليهم فى ظاهر أمره الحج إلى بيته الحرام من الآفاق ، ولكننا للرأفة بهم ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم

---

(١) تحت رقم ٢٠٠٨٨ و ٢١٠٠٦٥ .
(٢) ناصر خسرو (بالفرنسية) ليحي الخشاب ص ٨٨ .
(٣) المجالس والمسايرات ١٣٥ .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٥ .
(٥) نفس المصدر ص ٧٣ .

علينا ..[1] » وكان لهؤلاء الدعاة أساليب لنشر الدعوة ، لا محل للتحدث عنها هنا . وقد وسع اختصاص الدعاة أربعة أمور : أولها علمى وهو أن عليهم أن يلقنوا المؤمنين أصول المذهب وأن يجيبوا من يسأل منهم عما يشكل عليه . والثانى سياسى وهو أن يجمعوا المؤمنين من حولهم وأن يدعوهم إلى الاعتراف بالخليفة الفاطمى وخلع خليفة بنى العباس . والثالث مالى وهو أن عليهم أن يجمعوا النجوى من المؤمنين باسم الخليفة الفاطمى وأن يرسلوا إليه ما يجمعون بعد خصم النفقات اللازمة لهم أثناء تأدية عملهم . والرابع إدارى فإن عليهم أن يقسموا البلاد أقساما إدارية كما يرون وأن يأخذوا العهد على من يولونه على كل قسم نيابة عن الخليفة .

وأما الوزير فكثيرا ما كان يشترك فى التعليم فقد شارك ابن كلس وزير المعز والعزيز فى المجالس العلمية فى قصر الخليفة وفى الجامع الأزهر وألف فى الدعوة الفاطمية كتابا سماه « الرسالة الوزيرية » وكان بيته مجمعا للعلماء من أهل زمانه[2] . وكان اليازورى كبير الدعاة قبل أن يصل إلى الوزارة وفى أثناء توليته إياها .

وأما الخليفة فقد كان وارثا للعلم عن سلفه كما قلنا ، وكان يشترك فى إلقاء المحاضرات وخاصة فى شهر رمضان فى المساجد وفى قصره . ومن ناحية أخرى كان يثق ببعض العلماء ويكلفهم بالكتابة فى موضوع بعينه أو بتلاوة كتاب خاص ، ومن هذا تكليفه ناصر خسرو بالكتابة فى موضوع البرزخ الذى شرحه فى كتابه المصباح[3] ، ومن ذلك أيضا تكليف المعز لدين الله أبا حنيفة المعروف بابن حيون بقراءة كتاب فى علم الباطن ، أخرجه من خزانته وأمره بقراءته على الناس كل يوم جمعة فى مجلس بقصره المعمور[4] .

وكانت دروس الدعوة أو مجالسها مقسمة إلى قسمين ، قسم يستمع إليه عامة الناس من الراغبين فى تحصيل العلم ، وقسم يستمع إليه المتخصصون فى الدعوة ، كما أعدت دروس خاصة للنساء .

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٤ .

(٢) ناصر خسرو ص ٩٥ .

(٣) خوان الإخوان لناصر خسرو ، نشر يحيى الخشاب ص ١١٦ (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة)

(٤) المجالس والمسايرات ص ٦٧ .

هذا ملخص للحالة العلمية فى مصر ، حين وفد عليها ناصر خسرو . ونلاحظ أنه فى وصفه لمصر لا يحدثنا عن شىء من هذا ، ولا يميط اللثام عن اقتناعه بالمذهب الفاطمى ، وتدرجه فى مراتب الدعوة حتى بلغ أرفع درجاتها . ولكنه أشار إلى ذلك كله صراحة فى ديوانه ، كما تحدث عن صلته بالخليفة فى كتبه الأخرى . فهو يذكر حضوره مجلس المؤيد وتَفتُّح أبواب الحكمة له وكيف عرف الظاهر والباطن واهتدى إلى إمام الزمان المستنصر وهو يرجو الله أن يبقيه طول حياته قادرا على مدح سيد الخلق المستنصر ، جوهرة تاج الرسالة ومفخرة الإنس والجن . ويشبه الإمام بسحاب الربيع والناس بالتراب ، ويشبه ضمائرهم بالليل ، والإمام بالنهار المضىء الذى يهديها . ثم هو يتحدث عن طرحه التردد ، فهو لا يريد أن يكون قلقا ، ويعلن ميله إلى العلويين فهو داخل فى ملتهم مقتنع بها فإنها هى الحق الذى سعى لمعرفته . ثم يتحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم وكيف أمره الله تعالى بالقيام بدعوته مع ما كان يعترضه من صعاب ويبين كيف استعان النبى بعلى فى حمل عبء النبوة ، وهو يشبه عليا ومحمدا بآدم وحواء فمن لا يدرى الصلة بينهما فليرجع إلى قصتهما فإن النسل الباقى يخرج من على ومحمد كما يخرج النسل الفانى من آدم وحواء . وكما أن النبى نوحا قد ثأر من الكفار يوم الطوفان فكذلك أمطر علىٌّ أرواح الجبابرة طوفانا من حد سيفه ، وفسّر كيف كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم بأن عليا قد زرع فى قلوب المؤمنين مروج الورد بدل نار جهنم . ثم يشبه عليا بهرون من موسى ويطيل الكلام فى هذا المعنى . ثم يعود فيشبهه بعيسى ، فعيسى قد أحيا الموتى وكذلك أحيا على الجهلاء بعلمه ، والجاهل والميت سواء . ثم هو يتحدث عن بطش على بالكفار وكيف كان سيفه ذو الفقار قويا على الكافرين ، حتى امتلأت السماء بأرواح لا أجساد فيها وفاضت القبور بأجساد بغير أرواح . ويصف يوم الخندق فيقول إن أرضه صارت كالمرجان من كثرة ما أراق «ذو الفقار» من دماء . وهو يطلب من المؤمنين أن يسموا عليًا «الكرّار» كما سماه النبى (صلعم) . ثم ينتقل إلى خطبة غدير خم ويذكر قول النبى (صلعم) من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه . ثم يتعجب ممن يأكل الطعام نيئا والوقود أمامه أو ممن يظل عطشانا على شاطىء النيل أو الشط . ويدعو الناس أخيرا إلى الدخول فى المذهب الفاطمى ، فى الحصن الذى لا يدخله إبليس ، الحصن الذى شيده الله من الغفران ، وحماه جبريل من الشيطان ، الحصن الذى فيه العز

والراحة وخارجه الشر والخذلان . وينتهى بمدح رب هذا الحصن ، إمام الزمان الخليفة الفاطمى [1] .

ثم يحدثنا فى قصيدة أخرى من ديوانه عن صلته بالإمام المستنصر ، ويقول إن الإمام نفسه هو الذى أخذ عليه العهد بأن لا يبوح بسر هدايته ، وهو الذى وعده بأن يوضح له ما يسأل عنه ، ثم وضع يده فى يد النبى ليبايع كل منهما صاحبه تحت الشجرة التى تحمل ثمار العلم ، وهكذا تمت البيعة التى أرادها من قبل . ويصف ناصر بعد ذلك كيف ارتقى مراتب الدعوة درجة درجة حتى بلغ مرتبة الحجة وصار واحدا من الإثنى عشر حجة الذين نصبهم الإمام بنفسه فى مراكزهم ، وكيف منحه الإمام ، أفضل الرجال ، هذه الدرجة ، وهى درجة لم ينلها أحد فى أسرته ، وهكذا ، بعد أن كان تائها فى غياهب الجب ارتفع فوق القمر ، وليس أعظم من هذا علوا [2] .

لم يحدثنا ناصر عن شىء من هذا فى كتابه سفرنامه أثناء إقامته فى مصر ، ولكنا مع ذلك نستطيع أن نتبين أنه كان يتمع بمركز ممتاز أثناء إقامته الطويلة بها . فقد حج مرتين فى صحبة رسول الخليفة مع أن الحج كان ممنوعا بسبب قحط فى الحجاز ، وعاد فى المرة الثانية فى صحبة أمير مكة . وأراد أن يرى مائدة الخليفة يوم العيد فسمح له بذلك . كل هذا يبين مكانة ناصر أثناء الرحلة وتمتعه بمعاملة ممتازة من الخليفة والوزير وقتذاك مما يدل على اعتناقه المذهب الفاطمى ، وهو ما حدثنا عنه فى ديوانه كما رأينا .

ولكن لماذا أخفى ناصر اعتناق هذا المذهب فى مصر فى سفرنامه ؟ ألأن ناصرا كتب رحلته بعد عودته إلى وطنه مباشرة ، فى الفترة التى انكب فيها على عبادة الله وقَبلَ أن يبدأ حياته داعيا للدعاة فى خراسان ، فلم يكن هناك مجال لأن يتحدث عن اعتناقه مذهبا تحارب به الدولة السلجوقية وتعمل على إبادته ؟ أو لأن ناصرا كان ، فى بادئ الأمر ، يخاف إن هو أظهر آراءه الجديدة أن يتعرض أخوه ، وهو من كبار رجال الأمير السلجوقى جغرى بيك ، للأذى ؟ أو يكون ذلك نتيجة اختصار النص الذى كتبه ناصر خسرو نفسه

---

(١) الديوان ٣١٣ — ٣١٦ .

(٢) الديوان ٣٦٤

على يد كاتب سنى فلم يثبت ما خالف المذهب السنى من آراء ؟ كل هذه الفروض جائزة .

يبقى بعد ذلك سؤال هو هل كان ناصر — وقد أصبح فاطمىَّ المذهب — مبالغاً ومتعصبا حين وصف مصر هذا الوصف الذى كله ثناء وتمجيد ؟ فهل هو يبالغ حين يتحدث عن ثراء المصريين أو عمّاهم فيه من الرغد والأمن ؟ أو حين يتكلم عن سوق القناديل فيقول إنه لا يعرف مثله فى العالم (١) ؟ الواقع أن أسلوب المبالغة يسود الكتاب كله ولا يقتصر على وصف مصر وحده . فهو يقول عن صيدا وآمد إنه لم ير مثلهما على وجه الأرض (٢) ويتحدث عن حصير فى مقام إبراهيم فيقول إنه لم ير مثلها فى مكان قط (٣) ، ويقول عن كنيسة القيامة إنه ليس لها نظير فى أى جهة من العالم (٤) ، وكذلك يقول عن إصفهان إنه لم ير فى كل البلاد التى تتكلم الفارسية مدينة أجمل ولا أكثر سكانا وعمرانا منها (٥) ، ويقول عن طبس إن الناس بها فى سلام وأمن عظيمين حتى أنهم لا يغلقون بيوتهم ليلا ويتركون البهائم فى الطريق مع أن المدينة غير مسورة (٦) . وهكذا نرى أنه يبالغ فى أكثر من موضع من الكتاب وأن العبارات التى وردت عن بعض ما رأى أو سمع فى مصر ليست إلا من هذا القبيل ، فهى لا تفيد تعصبا فيما نرى .

٩

هكذا يعزم ناصر على العودة إلى وطنه ، وقد أصبح من أبرز رجال الدعوة الفاطمية ، وهو لا يذهب إلى خراسان عن الطريق الذى سلكه فى مجيئه ولكنه يختار طريق الحجاز وفلج والحسا ويطيل إقامته فى كل بلد منها . ونلاحظ أنه اختار طريق الحجاز ، وأقام ستة أشهر مجاورا فى مكة مع أنه زارها ثلاث مرات من قبل ، كما نلاحظ أن أمير جدة أعفاه من المكس الواجب عليه وكتب لأمير مكة ليعفيه منه أيضا ، وقد يرجح هذا أن لناصر صفة خاصة فى رحلته إلى الحجاز هذه المرة .

ويحدثنا ناصر بأنه يغادر مكة قاصدا الحسا التى يبلغونها عادة فى ثلاثة عشر يوما ،

---

(١) ص ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٤ .
(٤) ص ٩ ، ١٤ .
(٥) ص ٣٤ . (٦) ص ٣٧ . (٧) ص ١٠٣ . (٨) ص ١٠٤ .

ولـكنه يسلك طريقا موحشا ملؤه المخاطر بين أعراب من سفاكى الدماء ، فى الطائف ومطار والثريا وجزع وسربا وفلج واليمامة ثم يصل أخيرا إلى الحسا ، وقد استغرقت رحلته وسط هؤلاء الأعراب تسعة أشهر .

أما أن يغادر ناصر مكة قاصدا الحسا فهذا أمر اقتضته الصلات بين مصر والحسا فى ذلك الوقت وقد كان صاحبها أبو سعيد يدفع الخمس للخليفة الفاطمى القائم ولو أن اعترافه بشرعيته لم يكن كاملا . وفى سنة ٣١٧/٩٣٠ أغار أبو طاهر على الـكعبة وانتزع الحجر الأسود ونقله إلى الحسا ، فأمر الخليفة الفاطمى المنصور برد الحجر إلى مكانه فَرُدَّ سـنة ٣٣٩/٩٥٠ . وساءت الصلات بين قرامطة الحسا والخليفة الفاطمى فبعث أبو الحسن بن أحمد إلى أصدقائه البويهيين وثيقة تثبت اغتصاب الخليفة الفاطمى الأول الخلافة ، وقد قرئت هذه الوثيقة جهارا فى دمشق [1] ولم يتوان هذا الرجل فى إعداد حملة لمحاصرة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى مصر ، فى السنة التالية لدخوله فيها ، فاضطر هذا أن يكتب إليه كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه و إلى آبائه من قبله ووعظه . . [2] وفى سنة ٤٢٠/١٠٣٠ حاول الـكاتب الدرزى المقتنع أن يحمل السادة قرامطة الحسا على الاعتراف بالخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ولـكن محاولته ذهبت عبثاً [3] . فهل نستطيع على ضوء الصلات المتقدمة بين قرامطـة الحسا والفاطميين ، أن نقول إن رحلة ناصر إلى هذه البلاد لم تكن مجرد سياحة إنما كان من ورائها توطيد الصلات بين البلدين ، وتجديد العلاقة بين السادة والمستنصر ؟ وخاصة إذا لاحظنا أن الدولة السنية القوية ، وهى دولة السلاجقة ، كانت قد أخذت فى الاستيلاء على أملاك البويهيين ، فأفقدتهم العراق فى سنة ٤٢٠/١٠٢٩ ثم كرمان فى سنة ٤٤٠/١٠٤٨ حتى فنيت دولتهم فى سـنة ٤٤٧/١٠٥٠ ، فـكان على الفاطميين أن يصلوا ما انقطع من صلات مع أصدقائهم أو أن يجددوا هذه الصلات أو يوثقوها ليقفوا معهم صفا واحدا أمام التيار السنى الذى اقتلع الدولة الشيعية البويهية والذى أخذ فى محاربة المذهب

---

(١) دايرة المعارف الإسلامية مادة القرامطة لأستاذنا ماسينيون وانظر ص ٨١ من هذا الـكتاب

(٢) ابن الأثير حوادث سنة ٣٦٣/٩٧٣ ، ج ٨ ص ١١ من طبعة مصر .

(٣) مقال ماسينيون عن القرامطة .

الفاطمى وما شابهه حربا لا هوادة فيها ولا رفق . ولم يشأ ناصر أن يترك حادثة انتزاع الحجر الأسود من الكعبة ، وهى الحادثة التى استغلها الكتاب السنيون ضد القرامطة والفاطميين عامة فاستنكرها وأكد بذلك احترام قومه للكعبة وللبيت المقدس .

وأما تنقل ناصر وسط الأعراب فى الطائف ومطار والثريا وجزع وسربا وفلج فهو عندنا لأغراض سياسية أيضا . فان الصلات بين اليمن ومصر كانت قوية وخاصة أيام المستنصر ، يحدثنا مؤرخ معاصر لناصر هو محمد بن مالك بن أبى الفضائل اليمانى(١) بأن رئيس الصليحيين استأذن المستنصر الفاطمى فى سنة ١٠٤٧/٤٣٩ فى نشر الدعوة الفاطمية ووجه إليه بهدايا فأذن له . فهل ذهب ناصر إلى أعراب هذه الجهات المختلفة ليؤلف بينهم ويجمع شتاتهم ليكونوا جميعاً إذا ما ناداهم الخليفة الفاطمى باسم رئيسهم ؟ هذا ما نرجحه .

١٠

عاد ناصر إلى بلخ سنة ١٠٥٢/٤٤٤ فى صحبة أخيه أبى الفتح عبد الجليل ، وقد طوّف كثيرا فى خراسان ، وهى جزيرته التى عُيِّن حجة لها من قِبل الفاطميين ، ثم انتقل إلى مازندران فأقام بها زمنا طويلا حتى نسب اليها ، وقد استطاع أن يقنع كثيراً من أهلها بالدخول فى مذهبه . ولكن مناظرته للعلماء وشهرته بمذهب خاص يتنافى مع السنة وجهره بآرائه وعنايته ببثها بين الناس ، كل هذا أثار عليه الناس والحكومة ، فاعتدِىَ على منزله وأضطر أهلهُ إلى هجره كما اضطر هو إلى أن ينجو بنفسه فهاجر إلى يُمگان ، وهناك أخذ يصنّف الكتب والرسائل فى مذهبه ، وكان بعضها بوحى من الخليفة الفاطمى المستنصر بالله نفسه(٢) .

وكتب ناصر كثيرة ، منها المنظوم ومنها المنثور ، ونكتفى بأن نذكر كتبه المنشورة أو المخطوطة التى رأيناها . فالمنظومة هى الديوان وسعادت نامه و روشنائى نامه ، والمنثورة هى زاد المسافرين وخوان الإخوان والرسالة ووجه دين وسفر نامه ، وعثرنا على مخطوطة تحتوى

---

(١) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٢ — ٤٣ .
(٢) خوان الإخوان ص ١١٦ نشر يحيى الخشاب (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة)

على جزء من كتاب گشايش ورهايش [1] . وقد لخص شريعته فى كتاب وجه دين الذى أراد أن يقلد به « كتاب البيان » الذى وضعه غياث أحد كبار رجال الدعوة الباطنية فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، وهو يحوى شرحا باطنيا لأركان الإسلام والجهاد والإمامة [2] .

وظل ناصر يدعو لمذهبه فى يمگان ، ولا يزال لدى الإسماعيليين النزاريين فى شوغان كتب لناصر منها « الصحيفة » و « مرآة المحققين » ثم إنهم يعرفون « سفرنامه » ولكنهم ينسبونه إلى سعيد سهراب أحد أقارب ناصر خسرو الذين عاصروه [3] . ولايزال قبر ناصر للآن مزارا يؤمه الإسماعيليون النزاريون — نزار بن المستنصر — من الصين وآسيا الوسطى الروسية والهند والأفغان [4] .

***

وبعد فإنى أشكر أستاذى الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب الذى أتاح لهذا الكتاب أن ينشر باللغة العربية ، فهو الذى أشار علىّ بترجمة الفصل الخاص بمصر من سفرنامه كملحق لبحث الماجستير سنة ١٩٣١ ، وهو الذى أشار بعد ذلك بنقل الكتاب كله إلى اللغة العربية وتفضل بمراجعته ثم عمل على أن يكون من مطبوعات كلية الآدابوأول مطبوعات معهد اللغات الشرقية بها .

يحيى الخشاب

---

(١) دار الكتب الملكية المصرية ، مخطوط رقم ٨٢ فارسى (ووضع خطأ تحت موضوع التصوف) وانظر كتابنا ناصر خسرو (بالفرنسية) ص ١٣٢ — ١٤١ ، ص ١٤٩ — ٢١٧

(٢) سياست نامه ص ١٨٥ وبيان الأديان لأبى المعالى العلوى ص ٣٩ (تصحيح عباس إقبال) .

(٣) Majerczak فى مجلة العالم الإسلامى سنة ١٩١٢ص ٢١٢ (Revue du Monde Musulman)

(٤) Semenow فى مجلة دراسات تاجستان ، Ivanow فى ملاحظات على « أم الكتاب » . وناصر خسرو ليحيي الخشاب ص ٢٩٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما يقول أبو معين الدين ناصر خسرو القُبَاديانى[1] المروزى تاب الله عنه . كانت صناعتى الإنشاء ، وكنت من المتصرفين فى أموال السلطان وأعماله ، واشتغلت بالديوان ، وباشرت هذا العمل مدة من الزمن ، وذاع صيتى بين أقرانى . وفى ربيع الآخر سنة ٤٣٧ (أكتوبر ونوفمبر ١٠٤٥) ، أيام أبى سليمان چغرى بيك داود بن ميكائيل بن سلجوق حاكم خراسان[2] ، ذهبت من مرو فى عمل للديوان ، ونزلت فى پنج ديه مرو الرود . كان ذلك يوم قران الرأس والمشترى ، ويقال إن الله تعالى وتقدس يستجيب فيه إلى ما يطلب الناس من حاجات ، فذهبت إلى زاوية وصليت ركعتين ودعوته تعالى وتبارك أن ييسر لى أمرى ، فلما عدت لأصدقائى وأصحابى وجدت أحدهم ينشد شعرا فارسيا ، فجال بخاطرى أبيات ، فكتبتها على ورقة لأعطيه إياها حتى ينشدها ، فإذا به ينشد ما كتبت من شعر ولما أعطه الورقة ، فتفاءلت بهذه الحال ، وقلت فى نفسى إن الله تعالى وتبارك قد قضى حاجتى . ثم ذهبت إلى جُزْجانان فمكثت بها حوالى شهر ، وظللت أشرب الخمر ؛ قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : «قولوا الحق ولو على أنفسكم» ، حتى إذا كانت ذات ليلة رأيت فى المنام رجلا يقول لى : «إلى متى تشرب هذا الشراب الذى يسلب لب الرجال ، خير لك أن تصحو» . فأجبت : إن الحكماء لا يستطيعون شيئا غير هذا يقلل هموم الدنيا» . فأجاب : «إن التسرية عن النفس لا تتأتى بفقد الشعور والعقل ، والحكيم لا يستطيع أن يقول إن الرجل المسلوب الفؤاد يصلح هاديا للناس ، بل ينبغى عليه أن يبحث عما يزيد العقل والحكمة» . قلت : «وأنَّى لى هذا ؟» . قال : «من جَدَّ وجد»

---

(١) هى مدينة وولاية على جيحون قرب ترمذوهى مجاورة للصغانيان . معجم البلدان ج ٤ ص ١٩٦ ، طبعة أوربا . والمروزى نسبة إلى مرو .

(٢) ولى خراسان من قبل أخيه طغرل بيك وقد توفى سنة ١٠٥٩/٤٥١ فخلفه ابنه الب أرسلان الذى أصبح سلطانا بعد موت عمه طغرل سنة ١٠٦٣/٤٥٥ .

ثم أشار إلى القبلة ولم يقل شيئا . فلما صحوت من النوم ، كانت هذه الرؤيا ماثلة بأ كملها أمامى ، وقد أثرت فىّ ، فقلت لنفسى : صحوت من نوم البارحة وينبغى أن أصحو من نوم أربعين سنة خلت ، وأمعنت الفكر فوجدتنى لن أسعد مالم أعدل عن كل سلوكى .

وفى يوم الخميس السادس من جمادى الآخر سنة ٤٣٧ (٢٠ ديسمبر ١٠٤٥) ، منتصف شهر دَى[١] من السنة الفارسية ٤١٠ من التقويم اليزدجردى ، اغتسلت وذهبت إلى الجامع فصليت ، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يعيننى على أداء الواجب ، وعلى ترك المنهيات والسيئات ، كما أمر الحق سبحانه وتعالى .

ثم توجهت من هناك إلى شبورغان ، وفى المساء كنت فى قرية بارياب[٢] ، ومنها سرت إلى مرو الرود عن طريق سنكلان وطالقان . فلما بلغت مرو طلبت إعفائى مما عهد إلىّ من عمل ، وقلت إنى عازم على الحج ، ثم أديت ما علىّ من حساب ، وتركت أموالى عدا القليل الضرورى منها .

وفى الثالث والعشرين من شعبان (٦ مارس ١٠٤٦) عزمت على السفر إلى نيشابور ، فسرت من مرو إلى سرخس ، وهى على ثلاثين فرسخا منها ، ومن سرخس إلى نيشابور أربعون فرسخا ، وقد بلغتها يوم السبت الحادى عشر من شوال (٢٢ ابريل ١٠٤٦) . ويوم الأربعاء آخر هذا الشهر كسفت الشمس ، وكان الحاكم حينئذ طغرل بيك محمد[٣] أخ جغرى بيك ، وكانوا يشيدون مدرسة بقرب سوق السراجين ، أمر ببنائها ، وقد ذهب

---

(١) الأشهر الفارسية الشمسية القديمة هى :

١ — فروردين (مارس — أبريل)	٧ — مهر (سبتمبر — أكتوبر)
٢ — أردى بهشت (أبريل — مايو)	٨ — آبان (أكتوبر — نوفمبر)
٣ — خرداد (مايو — يونيو)	٩ — آذر (نوفمبر — ديسمبر)
٤ — تير (يونيو — يوليو)	١٠ — دى (ديسمبر — يناير)
٥ — مرداد . آمرداد (يوليو — أغسطس)	١٢ — بهمن (يناير — فبراير)
٦ — شهريور (أغسطس — سبتمبر)	١٢ — أسپندارمز (فبراير — مارس)

وقد لاحظ Schefer (ص ٤ هامش) إنه ينبغى أن تكون السنة ٤١٣ بدلا من ٤١٠ ، وهو العدد الذى ذكر خطأ فى المخطوطات المختلفة للكتاب .

(٢) ويقال لها فارياب أيضا التى منها المعلم الثانى الفارابى المتوفى ٣٣٩ (٩٥٠) .

(٣) أول السلاجقة العظام ، وقد استولى على نيشابور سنة ١٠٣٧/٤٢٩ ، وفى ١٠٥٥/٤٤٧ دخل بغداد ومات سنة ١٠٦٣/٤٥٥ .

أثناء ولايته ، لأول مرة ، للاستيلاء على ولاية اصفهان .

وفى الثانى من ذى القعدة (١٢ مايو ١٠٤٦) غادرت نيشابور ، فى صحبة الأستاذ الموفق (١) الذى كان مؤدبا للسلطان ، فبلغنا قومس ، عن طريق كوان ، وزرت مشهد الشيخ بايزيد البسطامى قدس الله روحه (٢) .

وفى الجمعة الثامن من ذى القعدة (١٨ مايو ١٠٤٦) سرت إلى دامغان ، ثم بلغت سمنان عن طريق آبخورى وچاشت خواران ، فى غرة ذى الحجة سنة ٤٣٧ (٩ يونيو ١٠٤٦) ، وقد مكثت هناك زمنا وتعرفت بأهل العلم . وقد دلونى على رجل اسمه على النسائى ، وهو شاب يتكلم الفارسية بلهجة الديالمة ، كان شعر رأسه مرسلا ، وكان ، وهو يتكلم ، يقول « إنى قرأت كذا على الأستاذ أبى على سينا رحمه الله وهكذا سمعت منه » لكى أعرف أنه تلميذ ابن سينا . ولما ناظرته قال « إنى قليل المعرفة بكل علم وأحب أن أقرأ معك قليلا فى الحساب » فخرجت متعجبا وقلت : « ماذا يعلم الآخرين وهو لا يعلم شيئا ؟ » .

وعددت من بلخ إلى الرى ثلاثمائة وخمسين فرسخا ، ويقال إنه من الرى إلى ساوه ثلاثون فرسخا ، ومن ساوه إلى همدان كذلك ، ومن الرى إلى أصفهان خمسون فرسخا وإلى آمل ثلاثون . وبين الرى وآمل جبل دماوند ، وهو كالقبة ويسمى لواسان ، ويقال إن بقمته بئرا يستخرج منه النوشادر ويقال والكبريت أيضا ، فيصعد عليها رجال يحملون جلود البقر ويملؤنها بالنوشادر ، ثم يدحرجونها من قمة الجبل ، لتعذر إيجاد طريق لنقلها .

وفى الخامس من محرم سنة ٤٣٨ (١٣ يوليو ١٠٤٦) ، الموافق للعاشر من شهر مُرْداد سنة ٤١٥ من تاريخ الفرس ، توجهت ناحية قزوين فبلغت قرية قوهة وكان بها قحط حتى بيع المنّ من خبز الشعير بدرهمين ، وقد غادرتها فى التاسع من محرم (١٧ يوليو) فبلغت

---

(١) كان الخوجة هبة الله الموفق كاتبا للسلطان طغرل بيك ، وهو الذى أشار عليه باختيار أبى منصور الكندرى ، الوزير المشهور ، كاتبا للمراسلات العربية ، والموفق هو والد أبى سهل محمد ابن هبة الله المعروف بابن الموفق ، الذى اختير للسير فى خدمة السيدة ابنة الخليفة القائم زوجة طغرل بيك التى أمر السلطان ألب أرسلان بعودتها إلى بغداد . (ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٢ طبعة مصر)

(٢) هو طيفور بن عيسى ، وكان جده الأعلى (سروشان) مجوسيا وأسلم . وتوفى أبو يزيد البسطامى سنة ٢٦١/٨٧٤ . وقد أنشأ القبة التى على قبره الأمير المغولى ألجايتو سلطان محمد خود بنده الذى اتخذ من حفيد أبى يزيد مؤدبا (الشيخ شرف الدين) ، وذلك سنة ٧٠٠/١٣١٣ .

قزوين ، وهى آهلة بالحدائق التى لا تحدها أسوار أو أشواك ، فلا يحول دون دخولها عائق . رأيت قزوين مدينة عظيمة ، ذات حصن مكين عليه شرفات . وبها أسواق جميلة ، إلا أن الماء بها قليل ، وهو يجرى فى قنوات تحت الأرض ، وكان حاكمها رجلا من العلويين . ويشتغل معظم صناعها بصناعة الأحذية .

وفى الثانى عشر من محرم سنة ٤٣٨ (٢٠ يوليو ١٠٤٦) غادرت قزوين عن طريق بيل وقبان وهما من ضواحيها ، وسرت إلى قرية تسمى خرزويل . كان معنا ، أنا وأخى وغلام هندى كان يصحبنا زاد قليل ، فذهب أخى للقرية ليشترى شيئا من البقال ، فقال له أحدهم : ماذا تريد أنا البقال ؟ فقلت : « كل ما عندك يناسبنا ، فإنا غرباء وعابرو سبيل » فقال : « ليس عندى شىء أبدا » وبعد ذلك كنت أقول « إنه بقال خرزويل » عن كل شخص فى أى مكان يقول كلاما من هذا النوع .

بعد مغادرة هذه القرية جزنا منحدرا صعبا ، وبعد مسيرة ثلاثة فراسخ بلغنا قرية تسمى برز الخير ، من أعمال طارم ، كان جوها حارا ، وبها شجر كثير من الرمان والتين ومعظمه برّى . ومن هناك اجتزنا نهرا يسمى شاه رود ، عليه قرية تسمى خندان ، تجبى فيها المكوس من قبل أمير الأمراء وهو من ملوك الديلم . وحين يخرج النهر منها يلتقى بنهر آخر اسمه سپيدرود ، ثم يدخل النهران واديا شرقى جبال جيلان ، ويمر النهر بجيلان ثم يصب فى بحر آبسكون (بحر قزوين) . ويقال إن ألفا وأربعمائة نهر تصب فى هذا البحر الذى يقال إن محيطه ألف ومائتا فرسخ ، وإن فى وسطه جزائر آهلة . بالسكان ، وقد سمعت هذا من كثيرين .

والآن أعود إلى رحلتى وما كان فيها :

ومن خندان إلى شميران ثلاثة فراسخ من صحراء جبلية كلها . وشميران قصبة ولاية طارم . وعلى حافة المدينة قلعة مرتفعة مشيدة على صخر صلد ، محاطة بثلاثة أسوار . وقد حفرت فى وسطها قناة تجرى حتى شاطئ النهر ، ومنها يستخرجون الماء ويحملونه إلى القلعة ، ويقيم بها ألف رجل مختار من أبناء عظماء الولاية ، وذلك حتى لا يستطيع أحد أن يضل أو يثور . ويقال إن لهذا الأمير قلاعاً كثيرة فى ولاية الديلم ، وإن العدل

والأمن مستتبان بها ، بحيث لا يستطيع أحد أن يغتصب شيئاً من غيره ، بل إن الناس هناك يدخلون مسجد الجمعة ، ويتركون أحذيتهم خارجه فلا يأخذها أحد . ويكتب اسم هذا الأمير هكذا : « مرزبان الديلم جيل جيلان أبو صالح مولى أمير المؤمنين » واسمه جستان إبراهيم[1] ، وقد رأيت فى شميران رجلا طيباً من در بند ، اسمه أبو الفضل خليفة بن على الفيلسوف ، كان رجلا فاضلا ، أضافنا وأكرمنا ، وقد تناظرنا معاً ، واتصلت بيننا الصداقة . سألنى : علام عزمت ؟ فقلت إنى أنوى الحج ، قال : أريد أن تمر بنا فى عودتك حتى أراك .

وفى السادس والعشرين من محرم (٣ أغسطس ١٠٤٦) غادرت شميران ، وفى الرابع عشر من صفر (٢١ أغسطس) بلغت مدينة سراب وغادرتها فى السادس عشر ، (٢٣ أغسطس) ، ثم مررت بسعيد آباد ، و بلغت تبريز فى عشرين صفر ٤٣٨ (٢٧ أغسطس ١٠٤٦) ، وكان ذلك فى الخامس من شهريور الشهر القديم ، وتبريز قصبة ولاية آذربيجان وهى مدينة عامرة وقد قست طولها وعرضها فكان كل منهما الفاوأربعمائة قدم . وكان ملك ولاية آذربيجان يذكر هكذا فى الخطبة : « الأمير الأجل سيف الدولة وشرف الملة أبومنصوروهسودان بن محمد ، مولى أمير المؤمنين[2] » . وحكوا لى أنه فى ليلة الخميس السابع عشر من ربيع الأول ٤٣٤ (٥ ديسمبر ١٠٤٢) ، فى الأيام المسترقة ، بعد العشاء ، زلزلت الأرض ، فخرب جزء من المدينة ، ولم يصب الجزء الآخر بسوء ، ويقال إنه هلك فيها حينئذ أربعون ألف نسمة . ورأيت فى تبريز شاعراً اسمه قطران[3] يقول شعراً

---

(١) جستان بن إبراهيم من بنى سالار ، أيده طغرل بيك فى سنة ١٠٣٨/٤٣٠ على ولاية الديلم وطبرستان .

(٢) آخر الأمراء المستقلين فى أسرة بنى سالار أو بنى مسافر التى حكمت آذربيجان منذ سنة ٩٤١/٣٣٠ ، وقد سارطغرل بيك إلى تبريزسنة ١٠٤٦/٤٤٦ ، فأطاعه أميرها أبو منصور وهسودان ابن محمد الراودى ، وخطب له ، وحمل إليه ما أرضاه به وأعطاه ولده رهينة (ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٧ طبعة مصر) .

(٣) أبو منصور قطران الجبلى الأزدى ، وهو من بلاد الجبل فى الديلم كما يدل اسمه . عاش فى تبريز ، وينسب إليه « قوس نامه » ، وقد كتب أشعارا كثيرة منها مدائح للأمير البويهى أسد الدولة . وقد توفى قطران سنة ١٠٧٢/٤٦٥ Browne ج ٢ ص ٢٧١ حيث رجع إلى لباب الألباب وتذكرة الشعراء ، وانظر شيفر ص ١٨ .

جميلا ، ولكنه لم يكن يجيد الفارسية ، وقد زارنى ومعه ديوانى منجيك[١] والدقيقى[٢] وقرأ على منهما ، وسألنى عما أشكل عليه من المعانى ، فكنت أجيبه وهو يكتب ما أقول ، ثم تلى علىّ شيئاً من أشعاره .

فى الرابع عشر من ربيع الأول (١٩ سبتمبر) غادرت تبريز عن طريق مرند ، مع جماعة من جيش الأمير وهسودان ، فسرنا حتى بلغنا خوى ، ومن هناك سرنا إلى برْكرى بصحبة رسول . ومن خوى إلى بركرى ثلاثون فرسخاً ، وقد بلغناها فى الثانى عشر من جمادى الأول (١٦ نوفمبر) . ومن هناك ذهبنا إلى وان ثم إلى وسطان ، وكان لحم الخنزير يباع فى سوقها ، كما يباع الضأن ، ويجلس نساؤها ورجالها أمام الحوانيت ، ويشربون بغير حياء .

ومن هناك بلغنا مدينة أخلاط ، فى الثامن عشر من جمادى الأول (٢٢ نوفمبر) ، وهى على الحدود ما بين بلاد المسلمين والأرمن . وبينها وبين بركرى تسعة عشر فرسخاً . وعليها أمير اسمه نصر الدولة[٣] ، نيف على المائة ، وله أبناء كثيرون ، أعطى

---

(١) أبو حسن على بن محمد منجيك ، ويقول صاحب « إحياء الملوك » إنه سمى منجيك نسبة إلى قرية تحمل هذا الاسم فى ترمذ . وكان منجيك شاعراً مجيداً ولكنه كان هجاء يخشى الناس هجاءه . ويقال إنه كان شاعراً لأمراء صغانيان كما يقال إنه كان من شعراء محمود الغزنوى ، وقد ضاع معظم شعره ، ومن القليل الذى بقى قصيدة يمدح فيها أبا المظفر أحمد الصفارى وأخرتان يمدح فيهما طاهر بن أحمد أمير سستان .

(٢) أبو منصور محمد بن أحمد من شعراء العصرين السامانى والغزنوى ، فى القرن الرابع الهجرى ، يقول عوفى فى « لباب الألباب » ، (ج ٢ ص ١١،١٢) إنه كان فى خدمة الأمراء الچغانيين ، ويروى أبياتا له فى مدح الأمير أبى سعيد محمد بن المظفر بن محتاج الچغانى (المتوفى ٣٢٩) ، وكذلك يروى من مدائحه فى الأمير السديد منصور بن نوح السامانى (٣٥٠ — ٩٦١/٣٦٥ — ٩٧٥) والأمير الرضى نوح بن منصور (٣٦٥ — ٩٧٥/٣٨٧ — ٩٩٧) . ويقول صاحب « تاريخ گزيدة » (ص ٨١٨) إنه كان معاصراً للامير نوح بن منصور .

وقد ذكر أستاذنا الدكتور عزام فى مدخل الشاهنامة (العربية) الآراء المختلفة فى دين الدقيقى ، ثم قال إن اسمه اقترن باسم الفردوسى إذ كان السابق له فى نظم الشاهنامة ، فنظم ألف بيت ثم حالت المنية دون أمنيته .

راجع مدخل الشاهنامة للدكتور عزام ص ٣٨ — ٣٩ وما بعدها ، وانظر فى آل محتاج حواشى القزوينى على چهار مقاله ص ١٦٣ وما بعدها .

(٣) هو ثالث أبناء مروان بن روشك مؤسس الأسرة الكردية التى تحمل اسمه والذى حكم ديار بكر والجزيرة (٣٧٣ — ٩٨٣/٤٨٧ — ١٠٩٤) . ولى العرش سنة ١٠١١/٤٠٢ بعد موت =

كلا منهم ولاية . ويتكلمون بها ثلاث لغات . العربية ، والفارسية ، والأرمنية . وأظن أنها سميت « أخلاط » لهذا السبب ، والمعاملة هناك بالنقود النحاسية ، ورطلهم ثلاثمائة درهم .

فى العشرين من جمادى الأول (٢٤ نوفمبر) غادرنا أخلاط ، ونزلنا فى رباط (كروانسراى) . كانت السماء تمطر ثلجاً ، والبرد قارساً . وقد غرسوا فى جزء من الطريق ، عمداً ليسير المسافرون على هديها أيام الثلج والضباب . ثم بلغنا مدينة بطليس ، وهى واقعة فى واد ، وقد اشترينا منها عسلا ، المائة مَنّ بدينار ، حسب ما باعونا . ويقال إن بها من يجنى فى السنة الواحدة ثلاثمائة وأربعمائة جرة عسل .

وخرجنا منها فرأينا قلعة تسمى « قف انظر » ، وتركناها إلى مكان به جامع ، يقال بناه عويس القرنى قدس الله روحه [١] . ورأيت الناس عند حدوده يطوفون بالجبل و يقطعون أشجاراً تشبه السرو ، فسألت ماذا تعملون بها ؟ فقالوا : نضع طرفاً من الشجرة فى النار فيخرج هذا القطران من طرفها الآخر ، فنجمعه فى البئر ، ثم نضعه فى أوعية ونحمله إلى الأطراف . وهذه الولايات التى ذكرتها باختصار بعد أخلاط تابعة لميافارقين .

ثم سرنا إلى مدينة أرزن ، وهى مدينة عامرة وجميلة ، فيها أنهار جارية و بساتين وأشجار وأسواق جميلة ، ويبيع البرسيون [٢] هناك المائة منّ عنباً بدينار واحد فى شهر آذر (نوفمبر وديسمبر) ، ويسمون هذا العنب رز إرمانوش .

وانتقلنا إلى مدينة ميافارقين التى يفصلها عن أخلاط ثمانية وعشرون فرسخاً ، ومن باخ

= أخويه ، وكان فى بدء ولايته تابعاً للدولة البيزنطية ، فلما دخل طغرل بيك الجزيرة (٤٤٦/١٠٥٤) ، أصبح نصر الدولة تابعاً له ، وحكم اثنتين وخمسين سنة وتوفى ٤٥٣ — ١٠٦١ .

راجع ابن الأثير الجزئين ١٠،٩ ، وراجع شيفر ص ٢١ — ٢٢ ، وما أشار إليه من مراجع . وانظر كتاب « خلاصة تاريخ الكرد والكردستان » ، لمحمد أمين زكى بك (بالكردية)والذى نقله للعربية الأستاذ محمد على عونى ص ١٤٨ .

(١) من الصحابة ، ويقال إنه قتل فى صفين . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه قتل فى أرمينيا اوسجستان ، ويذهب آخرون إلى أنه مات فى الصحراء بين المدينة ودمشق ، وأن قبره فى هذا البلد الأخير . راجع ابن الأثير ج ٣ ص ٢٧٢ طبعة أوربا ، ورحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ، وشيفر ص ٢٣ (٢) .

(٢) البرسيون هم الفرس الذين حافظوا على دين زردشت ولم يسلموا بعد الفتح الاسلامى .

إليها ، عن الطريق الذى إجتزناه ، إثنان وخمسون وخمسمائة فرسخ . وقد دخلناها يوم الجمعة السادس والعشرين من جمادى الأول ٤٣٨ (٢٣ نوفمبر ١٠٤٦) ، وكانت أوراق الشجر حينئذ لا تزال خضراء . وميافارقين محاطة بسور عظيم من الحجر الأبيض الذى يزن الحجر منه خمسمائة منّ . وعلى بعد كل خمسين ذراعا من هذا السور برج عظيم من الحجر نفسه ، وفى أعلاه شرفات ، وهى من الدقة بحيث تقول أن يد بناء ماهر أكملتها اليوم . ولهذه المدينة باب من ناحية الغرب ، له عتبة عليها طاق حجرى ، وقد ركب عليها باب من حديد لا خشب فيه . ويطول وصف مسجد الجمعة بها لو ذكرته ، ولو أن صاحب الكتاب شرح كل شىء أتم الشرح[1] ، وقد قال إن الميضأة التى عملت بهذا المسجد أربعين مرحاضاً ، تمر أمامها قناتان كبيرتان ، الأولى ظاهرة ليستعمل ماؤها ، والثانية وهى تحت الأرض ، لحمل الثفل وللصرف . وخارج هذه المدينة ، فى الربض ، أربطة (كروانسراها) وأسواق وحمامات ومسجد جامع آخر يصلون فيه الجمعة أيضاً . وفى ناحية الشمال سور آخر به مدينة تسمى المحدثة ، بها سوق ومسجد جامع وحمامات ، وكل ما ينبغى لمدينة من مهمات . ويذكر اسم سلطان الولاية فى الخطبة هكذا : الأمير الأعظم عز الإسلام سعد الدين نصر الدولة وشرف الملة أبو نصر أحمد ، وقد بلغ المائة من عمره ، ويقال إنه حى . والرطل هناك أربعمائة وثمانون درهما . وقد بنى هذا الأمير مدينة على مسافة أربعة فراسخ من ميافارقين سماها الناصرية ، ومن آمد إلى ميافارقين تسعة فراسخ .

فى السادس من شهر ذىْ القـعدة (٢٢ ديسمبر ١٠٤٦) بلغنا آمد التى شيدت على صخرة واحدة طولها ألفا قدم وعرضها كذلك . وهى محاطة بسور من الحجر الأسود ، كل حجر منه يزن ما بين مائة وألف منّ ، وأكثر هذه الحجارة ملتصق بعضه بالبعض من غير طين أو جص . وارتفاع السور عشرون ذراعاً وعرضه عشر أذرع . وقد بنى على بعد كل مائة ذراع برج نصف دائرته ثمانون ذراعاً ، وشرفاته من هذا الحجر بعينه . وقد شيدت فى عدة أماكن داخل المدينة ، سلالم من الحجر ، ليتيسر الصعود

---

(١) هذه الجملة ، كما يبدو ، من وضع ناسخ الكتاب ، وهى تدل على أن هذا الناسخ ، أو كاتبا سواه ، قد اختصر كتاب سفرنامه . راجع تعليق الأستاذ غنى زاده ص ١٠ (١٠) سفرنامه طبعة برلين .

إلى السور ، وقد بنيت قلعة على قمة كل برج . ولهذه المدينة أربعة أبواب كلها من الحديد الذى لا خشب فيه ، يطل كل منها على جهة من الجهات الأصلية . ويسمى الباب الشرقى باب دجلة ، والغربى باب الروم ، والشمالى باب الأرمن ، والجنوبى باب التل . وخارج هذا السور سور آخر ، من نفس الحجر ، ارتفاعه عشر أذرع ومن فوقه شرفات فيها ممر يتسع لحركة رجل كامل السلاح ؛ بحيث يستطيع أن يقف فيه ويحارب بسهولة . ولهذا السور الخارجى أبواب من الحديد شيدت مخالفة لأبواب السور الداخلى ، بحيث لو اجتاز (السائر) أبواب السور الأول ، وجب عليه اجتياز مسافة لبلوغ أبواب السور الثانى ، وهذه المسافة تبلغ خمس عشرة ذراعا . وفى وسط المدينة عين يتفجر ماؤها من الحجر الصلب ، وهذا الماء من الغزارة بحيث يكفى لإدارة خمس طواحين ، وهو غاية فى العذوبة ولا يعرف أحد من أين ينبع . وفى المدينة أشجار و بساتين تسقى من هذا الماء ، وأمير المدينة وحاكمها هو ابن نصر الدولة الذى مر ذكره . وقد رأيت كثيراً من المدن والقلاع فى أطراف العالم ، فى بلاد العرب والعجم والهند والترك ، ولكنى لم أر قط مثل مدينة آمد ، فى أى مكان على وجه الأرض ، ولا سمعت من أحد أنه رأى مكاناً آخر مثلها[1] . ومسجدها الجامع من الحجر الأسود ، وليس مثله متانة وإحكاما . وقد أقيم فى وسطه أكثر من مائتى عمود من الحجر ، كل عمود قطعة واحدة ، وفوق هذه الأعمدة عقود من الحجر ، وقد نصبت فوقها أعمدة أقصر من تلك . وجميع أسقف المسجد على هيئة الجملون ، وقد كملت نجارة ونقارة ونقشا ودهنا . وفى ساحته صخرة كبيرة عليها حوض كبير مستدير من الحجر ، يبلغ ارتفاعه قامة رجل ، ومحيط دائرته ذراعان . وفى وسط الحوض أنبوبة من النحاس يتفجر منها ماء صاف ، لا يظهر مدخله أو مخرجه . وبالمسجد ميضأة عظيمة جميلة الصنع بحيث لا يوجد أحسن منها ، وقد بنيت عمارات آمد كلها من الحجر الأسود ، وأما ميافارقين فعماراتها من الحجر الأبيض .

---

(١) تؤيد رواية Procope قول ناصر خسرو عن آمد . وقد أصلح أسوارها جستنيان ، وكانت حتى سنة ٥٧٢/١١٧٦ مقاما للبطريق اليعقوبى . وقد بلغها الپ ارسلان سنة ٤٦٣/١٠٧٠ فأعجب بمناعة سورها فلمس عليه بيده ثم مسح بها وجهه تبركا . وشيد سور طرطوشه (بالأندلس) على نمط سور آمد الذى شيده مهندس رومانى . وقد صوره Rey فى كتابه Monuments de l'architecture des Croisés en Syrie (باريس ١٨٧١ ص ٧٣) . ويقول على الهروى فى كتابه « الإشارات إلى الزيارات » أن فى آمد خمسة مساجد (الورقة ٥٨) . وراجع شيفر ص ٢٦ .

وبالقرب من المسجد كنيسة عظيمة غنية بالزخارف ، مبنية كلها من الحجر ، وقد فرشت أرضها بالرخام المنقوش . وقد رأيت فيها ، على الطارم ، وهو مكان العبادة عند النصارى ، بابا من الحديد المشبك لم أر مثله فى أى مكان .

ومن آمد إلى حران طريقان ، أحدهما لا عمران فيه وهو أربعون فرسخاً ، والثانى به أماكن معمورة وقرى كثيرة معظم أهلها من النصارى وهو ستون فرسخاً ، وقد سرنا مع القافلة فى هذا الطريق ، وكانت الصحراء غاية فى الاستواء ، إلا أن بها أحجاراً كثيرة بحيث لا تستطيع الدواب أن تخطو خطوة واحدة من غير أن تعثر بحجر تحت حوافرها . وقد بلغنا حران يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الآخر سنة ٤٣٨ (٢٨ ديسمبر ١٠٤٦) ، الموافق اثنين وعشرين من شهر دى القديم ، وكان هواؤها فى ذلك الوقت كهواء خراسان أيام النوروز .

وسرنا من هناك فبلغنا مدينة تسمى قرول حيث أضافنا رجل كريم فى بيته . وهناك دخل أعرابى فى الستين من عمره فاقترب منى وقال : حفظنى القرآن فلقنته « قل أعـوذ برب الناس » فكان يقرؤها معى ، فلما وصلت إلى آية « من الجنة والناس » قال : «أقول أيضا سورة « أرأيت الناس » ، فقلت هذه السورة ليست قبل تلك فقال : «ما سورة نقالة الحطب» ، ولم يعرف أنه قيل فى سورة «تبت» حمالة الحطب لا نقالة الحطب . ولم يستطع هذا الأعرابى المشرف على الستين ، فى تلك الليلة ، أن يحفظ سورة « قل أعوذ » ، مع تكرارى لها معه .

وفى يوم السبت الثانى من رجب سنة ٤٣٨ (٢ يناير ١٠٤٧) بلغنا مدينة سروج ، واجتزنا الفرات فى اليوم التالى ونزلنا فى منبج ، وهى أول مدن الشام ، وكان هذا أول بهمن القديم (يناير — فبراير) ، والطقس هناك معتدل جدا . ولم يكن خارج المدينة عمارات قط . وقد سرت منها إلى حلب ، ومن ميافارقين اليها (إلى حلب) مائة فرسخ .

ورأيت مدينة حلب فإذا هى جميلة ، بها سور عظيم ، قست ارتفاعه فكان خمسا وعشرين ذراعا ، وبها قلعة عظيمة مشيدة كلها على الصخر ، ويمكن مقارنة حلب ببلخ ، وهى مدينة عامرة ، أبنيتها متلاصقة . وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق ، ويذهب اليها التجار من جميع هذه البلاد . ولها أربعة أبواب ، باب

اليهود وباب الله وباب الجنان وباب أنطاكيه . والوزن فى سوقها بالرطل الظاهرى وهو أربعمائة وثمانون درهما[١] ، وتقع مدينة حما جنوبى حلب بعشرين فرسخا ، ومن بعدها حمص ، ومن حلب إلى دمشق خمسون فرسخا ، وإلى أنطاكية اثنا عشر فرسخا ، وإلى طرابلس كذلك ، ويقال إن من حلب حتى القسطنطينية مائتى فرسخ .

وفى الحادى عشر من رجب سنة ٤٣٨ (١١ يناير ١٠٤٧) خرجنا من حلب ، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ منها قرية تسمى جند قنسرين ، وفى اليوم التالى سرنا ستة فراسخ وبلغنا مدينة سرمين ، التى لا سور لها . وبعد مسيرة ستة فراسخ أخرى بلغنا معرة النعمان ، وهى مدينة عامرة ولها سور مبنى . وقد رأيت على بابها عمودا من الحجر ، عليه كتابة غير عربية فسألت ما هذا ؟ فقيل إنه طلسم العقرب ، حتى لا يكون فى هذه المدينة عقرب أبدا ، ولا يأتى اليها ، وإذا أحضر من الخارج وأطلق بها فإنه يهرب ولا يدخلها . وقد قست هذا العمود فكان ارتفاعه عشر أذرع[٢] . ورأيت أسواق معرة النعمان وافرة العمران . وقد بنى مسجد الجمعة على مرتفع وسط المدينة بحيث يصعدون اليه من أى جانب يريدون وذلك على ثلاث عشرة درجة . وزراعة السكان كلها قمح وهو كثير ، وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفستق واللوز والعنب . ومياه المدينة من المطر والآبار .

وكان بهذه المدينة رجل أعمى اسمه أبو العلاء المعرى . وهو حاكمها . وكان واسع الثراء عنده كثير من العبيد ، وكأن أهل البلد كله خدم له . أما هو فقد تزهد ، فلبس الكليم ، واعتكف فى البيت ، وكان قوته نصف منّ من خبز الشعير ، لا يأكل غيره . وقد سمعت أن باب سرايه مفتوح دائما وأن نوابه وملازميه يدبرون أمر المدينة ولا يرجعون إليه إلا فى الأمور الهامة ، وهو لا يمنع نعمته أحدا ، يصوم الدهر ويقوم الليل ولا يشغل نفسه مطلقا بأمر دنيوى . وقد سما المعرى فى الشعر والأدب إلى حد أن أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرون بأنه لم يكن من يدانيه فى هذا العصر ولا يكون . وقد وضع كتابا سماه الفصول والغايات ، ذكر به كلمات مرموزة وأمثالا فى لفظ فصيح عجيب ، بحيث لا يقف

---

(١) هو الرطل الذى اعتمد فى مصر أيام الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ — ١٠٢٠/٤٢٧ — ١٠٣٥) .

(٢) جاء ذكر هذا الطلسم فى كتاب خوان الإخوان لناصر خسرو . ص ١١٩ — ١٢٠ ، نشر يحيى الخشاب . مطبعة المعهد العلمى الفرنسى ١٩٤٠ .

الناس إلا على قليل منه ، ولا يفهمه إلا من يقرأه عليه . وقد اتهموه « بأنك وضعت هذا الكتاب معارضة للقرآن [١] » . ويجلس حوله ، دائما ، أكثر من مائتى رجل : يحضرون من الأطراف ، يقرءون عليه الأدب والشعر . وسمعت أن له أكثر من مائة ألف بيت شعر . سأله رجل : « لم تعط الناس ما أفاء الله تبارك وتعالى عليك من وافر النعم ولا تقوت نفسك ؟ » فأجاب « إنى لا أملك أكثر مما يقيم أودى » . وكان هذا الرجل حيا وأنا هناك .

وفى الخامس عشر من رجب سنة ٤٣٨ (١٥ يناير ١٠٤٧) سرنا إلى كويمات ، ومنها إلى حما . وهذه مدينة جميلة عامرة على شاطىء نهر العاصى ، ويسمى هذا النهر بالعاصى لأنه يذهب إلى بلاد الروم ، فهو يخرج من بلاد الإسلام ليدخل بلاد الكفر . وقد نصبوا عليه سواقى كثيرة . ومن حما طريقان ، أحدهما بجانب الساحل وذلك غرب الشام ، والآخر فى الجنوب وهو ينتهى إلى دمشق ، فسرنا عن طريق الساحل . وقد رأينا فى الجبل عينا ، قيل إن ماءها يتفجر فى الثلاثة أيام التالية لنصف شعبان من كل سنة ثم ينضب فلا تخرج منه قطرة واحدة حتى السنة التالية . ويذهب الكثيرون لزيارة هذه العين تقربا إلى الله سبحانه وتعالى ، وقد بنيت هناك عمارات وأحواض [٢] . ولما سرنا من هناك بلغنا سهلا كساه النرجس ثوبا أبيض . وذهبنا بعد ذلك إلى مدينة تسمى عرقة . وبعد مسيرة فرسخين منها بلغنا شاطىء البحر فتبعناه ، ناحية الجنوب ، حتى بلغنا مدينة طرابلس بعد مسيرة خمسة فراسخ .

---

(١) عن الباخرزى : قيل لأبى العلاء : ما هذا إلا جيد إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن ، فقال حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون ؟ مجلة المستشرقين الألمانية الجزء ٢٩ ص ٦٤٠ (جولدزيهر ١٨٧٦) .

(٢) يشير إلى العين التى ذكرها يوسف والتى زارها Titus فى رحلته من عرقة إلى بارين ، ويقول يوسف إن العين تجمد يوم السبت ، وعند المسلمين إنها تجمد يوم الجمعة .

ويقول القس صامويل ليد فى كتابه : The Ansaryeh and Ismaeleya, a visit to the secret sects of Northern Syria ص ٢٥٠ : إن هذه العين تخرج من تحت صخر ، وإنها تتفجر فى فترات غير منتظمة ، ولكنها تكثر فى الصيف وتقل فى الشتاء . ويتفجر الماء أحيانا بقوة عظيمة بحيث يقتلع ما فى طريقه من أشجار ، والعين التى تسمى فوارة الدير لا تزال حتى اليوم مقصد الحجاج من النصارى والمسلمين .

والعمارات التى يشير إليها ناصر خسرو هى دير مار جرجس ، الذى كان يسكنه القس الإغريق . وقد وصفها Burckrdt فى رحلته إلى الشام والأراضى المقدسة . راجع شيفر ص ٣٨ .

ومن حلب إلى طرابلس أربعون فرسخا عن هذا الطريق . وكان بلوغنا إياها فى يوم السبت الخامس من شعبان (٦ فبراير) . وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج والموز والليمون والتمر ، وكان عسل السكر يجمع حينذاك . ومدينة طرابلس مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر ، فإذا ماج علت أمواجه السور ، أما الجانب المطل على اليابس فبه خندق عظيم عليه باب حديدى محكم . وفى الجانب الشرقى من المدينة قلعة من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه ، وعلى قمتها عرّادات لوقايتها من الروم ، فهم يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن . ومساحة المدينة ألف ذراع مربع . وأربطتها أربع أو خمس طبقات ، ومنها ما هو ست طبقات أيضا . وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين . وقد رأيت بطرابلس ما رأيت فى بلاد العجم من الأطعمة والفواكه ، بل أحسن منه مائة مرة . وفى وسط المدينة جامع عظيم ، نظيف ، جميل النقش حصين ، وفى ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام فى وسطه فوّارة من النحاس الأصفر . وفى السوق مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير ، يأخذ منه الناس حاجتهم ويفيض باقيه على الأرض ويصرف فى البحر . ويقال إن بها عشرين ألف رجل ، ويتبعها كثير من السواد والقرى ، ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندى بل أحسن منه . وهى تابعة لسلطان مصر . قيل وسبب ذلك أنه فى زمن ما أغار عليها جيش الروم الكفار فحارب به جند سلطان مصر وقهروه ، فرفع السلطان الخراج عنها ، وأقام بها جيشا من قبله ، على رأسه قائد ، لحمايتها من العدو . وتحصل المكوس بهذه المدينة ، فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب العشر للسلطان ، فيدفع منه أرزاق الجند . وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة . وسكان طرابلس كلهم شيعة . وقد شيد الشيعة مساجد جميلة فى كل البلاد . وهناك بيوت على مثال الأربطة ، ولكن لا يسكنها أحد ، وتسمى مشاهد . ولا يوجد خارج طرابلس بيوت أبدا ، عدا مشهدين أو ثلاثة من التى مر ذكرها .

وغادرت طرابلس وسرت على شاطىء البحر ، ناحية الجنوب ، فرأيت على مسافة فرسخ واحد قلعة تسمى قلمون ، فى داخلها عين ماء . وسرت من هناك إلى طرابزن ، ومن

طرابلس إليها خمسة فراسخ . ومنها بلغنا مدينة جبيل وهى مثلثة ، تطل زاوية منها على البحر . ويحيطها سور حصين شاهق الارتفاع . وحولها النخيل وغيره من أشجار المناطق الحارة ، وقد رأيت فى يد غلام بها وردة حمراء وأخرى بيضاء حديثتى القطف (تازة) ، وكان ذلك فى اليوم الخامس من اسپندارمذ الشهر القديم (فبراير) سنة ٤١٥ من تاريخ العجم .

ومن هناك بلغنا بيروت ، فرأيت بها طاقا حجريا ، شق الطريق فى وسطه ، وقد قدرت ارتفاعه بخمسين ذراعا . وجانباه من الحجر الأبيض ، تزن كل قطعة منه أكثر من ألف منّ ، وعلى جانبيه بناء من الطوب النيء ارتفاعه عشرون ذراعا ، وقد نصبت على قمته أعمدة من الرخام ، طول كل منها ثمانية أذرع ، وهى سميكة بحيث لا يستطيع رجلان أن يحيطاها بأذرعهما إلا بصعوبة . وعلى رأس هذه العمد عقود ، على الجانبين ، كلها من الحجر المنحوت الذى لا يفصله عن بعضه جص أو طين . وفى الوسط تماما الطاق الكبير يعلوها بخمسين ذراعا ، وقد قست كل حجر منه فإذا به ثمانية أذرع طولا وأربعة عرضا ، وأظن الحجر الواحد يزن سبعة آلاف مَنّ . وقد نقشت هذه الحجارة بدقة ومهارة بحيث يقل ما يشابهها مما ينقش على الخشب . ولم يبق هناك أبنية غير هذا الطاق . وقد سألت أى مكان هذا ؟ فقيل لى : سمعنا أنه باب حديقة فرعون وهو قديم جداً . والوادى المجاور لهذه الناحية مملوء بأعمدة الرخام ، تيجانها وجذوعها ، وهى من الرخام المدور والمربع والمسدس والمثمن ، وهى من الصلابة بحيث لا يؤثر فيها الحديد ، وليس فى هذه الجهة جبل حتى يقال إنهم جلبوها منه . وهناك حجارة تبدو كأنها معجونة (جرانيت[1]) ، وهى تفل الحديد . وفى نواحى الشام أكثر من خمسمائة ألف من أعمدة وتيجان وجذوع ، ولا يعرف أحد ماذا كانت ولا من أين نقلت .

ثم توجهنا إلى مدينة صيدا ، وهى على شاطىء البحر أيضاً ، يزرع بها قصب السكر بوفرة . وبها قلعة حجرية محكمة ، ولها ثلاث بوابات . وفيها مسجد جمعة جميل يبعث فى النفس هيبة تامة ، وقد فرش كله بالحصير المنقوش ، وفى صيدا سوق جميل نظيف ، وقد

---

(١) يسميه الكتاب العرب المانع . شيفر ص ٤٥ .

ظننت ، حين رأيته ، أنه زُين خاصة لمقدم السلطان أو لأن بشرى سعيدة أذيعت ، فلما سألت قيل لى هكذا عادة هذه المدينة دائماً ، وفيها حدائق وأشجار منسقة حتى لتقول إن سلطاناً هاويا غرسها وفى كل من هذه الحدائق كشك ، وأغلب شجرها مثمر .

و بعد مسيرة خمسة فراسخ على شاطئ البحر بلغنا مدينة صور ، وهى ساحلية أيضاً . وقد بنيت على صخرة امتدت فى الماء ، بحيث أن الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لا يزيد على مائة ذراع ، والباقى فى ماء البحر . والقلعة مبنية بالحجر المنحوت الذى سدت فجواته بالقار حتى لا يدخل الماء من خلله . وقد قدرت المدينة بألف ذراع مربع . وأربطتها من خمس أو ست طبقات ، وكلها متلاصقة ، وفى كثير منها نافورات ، وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات . وتعرف مدينة صور ، بين مدن ساحل الشام ، بالثراء ، ومعظم سكانها شيعة . والقاضى هناك رجل سنى اسمه ابن أبى عقيل ، وهو رجل طيب ثرى . وقد بنى على باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد والحصير والقناديل والثريات المذهبة والمفضضة وصور مشيدة على مرتفع ، وتأتيها المياه من الجبل . وقد شيد ، على بابها ، عقود حجرية ، يمر الماء من فوقها إلى المدينة ، وفى الجبل واد مقابل لها ، إذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخاً ناحية المشرق بلغ دمشق .

بعد أن سرنا سبعة فراسخ من صور ، بلغنا عكة ، وتكتب هناك « مدينة عكة » . وهى مشيدة على مرتفع بعضه من أرض وعرة و بعضه سهل ، ولم تشيد المدينة فى الوادى المنخفض مخافة غلبة ماء البحر عليها ، وخشية أمواجه التى تعج على الساحل . ومسجد الجمعة فى وسط المدينة ، وهو أعلى مبانيها ، وأعمدتها كلها من الرخام . و يقع قبر صالح النبى عليه السلام خارجه ، على يمين القبلة . وساحته بعضها من الحجر و بعضها الآخر مزروع ، و يقال إن آدم عليه السلام كان يزرع هناك . ومسحت المدينة فكان طولها ألفى ذراع وعرضها خمسمائة ، ولها قلعة غاية فى الإحكام ، يطل جانباها الغربى والجنوبى على البحر ، وعلى الأخير ميناء ، ومعظم مدن الساحل كذلك . والميناء اسم يطلق على الجهة التى بنيت للمحافظة على السفن ، وهى تشبه « الاسطبل » ، وظهرها ناحية المدينة ، وحائطاها داخلتان فى البحر ، وعلى امتدادهما مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعا ، وقد

شدت السلاسل بين الحائطين ، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص فى الماء فتمر السفينة فوقها ، ثم تشد حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء .
وعند الباب الشرقى ، على اليد اليسرى ، عين يصلون إلى مائها بنزول ست وعشرين درجة وتسمى عين البقر . ويقال إن آدم عليه السلام هو الذى كشفها ، وكان يسقى منها بقرته ، ولذا سميت عين البقر[١] .

وحين يذهب المسافر من عكة ناحية المشرق ، يجد جبلا به مشاهد الأنبياء عليهم السلام ، وهذا الجبل واقع على جانب الطريق المؤدى إلى الرملة . وقد عزمت على التبرك بزياره هذه المشاهد والتقرب إلى الله تبارك وتعالى . وقد قال سكان عكة إن فى الطريق أشراراً يتعرضون لمن يرون من الغرباء وينهبونهم ، فأودعت نفقتى بمسجد عكة ، وخرجت من بابها الشرقى يوم السبت الثالث والعشرين من شعبان سنة ٤٣٨ (٥ مارس ١٠٤٧) . وقد زرت ، فى اليوم الأول ، قبر عك بانى المدينة ، وهو أحد الصالحين الأولياء . وكنت حائراً إذ لم يكن معى دليل يرشدنى ، وفجأة تعرفت ، فى اليوم نفسه ، بفضل من الله تبارك وتعالى ، برجل من العجم أتى من آذر بيجان للتبرك بزيارة المشاهد مرة أخرى ، فشكرت لله تبارك وتعالى هبته ، وصليت ركعتين ، وسجدت له شكراً على توفيقه إياى لأفِيَ بعزمى . ثم بلغت قرية تسمى بِروة وزرت قبر عيش وشمعون عليهما السلام . ومن هناك بلغت مغارك التى تسمى دامون فزرت المشهد المعروف بقبر ذى الكفل عليه السلام[٢] . ثم واصلت السير إلى قرية أخرى تسمى أعبلين وبها قبر هود عليه السلام فزرته وكان بحظيرته شجرة الخرتوت ، وكذلك زرت هناك قبر النبى عزيز عليه السلام . ثم يممت وجهى شطر الجنوب فبلغت قرية تسمى حظيرة ، وفى الجانب الغربى منها واد به عين ماء عذب ، تخرج من الصخر ، وقد بنى أمامها مسجد على الصخر به بيتان صخريان فوقهما سقف من الحجر أيضا ، وعليهما باب صغير يستطيع الزائر دخوله بصعوبة ، وهناك

---

(١) كانت مكانا مقدسا عند المسلمين والنصارى واليهود . وقد بنى المسلمون عندها جامعا باسم على ابن أبى طالب . وقد تكلم عنها ابن جبير ص ٣٠٧ ، وياقوت ج ٣ ص ٧٥٨ — ٧٥٩ والقزوينى فى عجائب المخلوقات ص ١٩٠ . وراجع شيفر ص ٥٠ .
(٢) ابن أيوب . قصص الأنبياء لابن إسحق أحمد ص ١٢٩ — ١٣٠ طبعة مصر .

قبران متجاوران أحدهما قبر شعيب عليه السلام والثانى قبر ابنته التى كانت زوج موسى عليه السلام . ويُعنى أهل هـذه القرية بهذا المسجد عناية فائقة من تنظيف وإنارة وغير ذلك . ومن هناك بلغت قرية تسمى إربل ، فى ناحية القبلة منهـا جبل فى وسطه حظيرة بها أربعة قبور لأربعة من أبناء يعقوب ، إخوة يوسف عليهم السلام . وذهبت من هناك فرأيت تلا من تحته غار فيه قبر أم موسى عليه السلام فزرته . ثم خرجت فبدا لى واد فى آخره بحر صغير ، طوله ستة فراسخ وعرضه ثلاثة وماؤه عذب لذيذ . وتقع غربيه مدينة طبرية . وتصرف فى هذا البحر كل مياه الحمامات وفضلات المدينة وكذلك يشرب منه سكانها وسكان الولاية التى على شاطئه . وسمعت أن أميراً دخل هـذه المدينة ذات مرة فأمر بسد قنوات القاذورات والماء الملوث حتى لا تُفضى إلى البحر ، فنتن ماؤه وأصبح لا يصلح للشرب ، فأمر ثانية بفتح هـذه القنوات فعاد ماء البحر عذباً . ولطبرية سور حصين ، يبدأ من شاطىء البحر ويمتد حول المدينة والطرف المحدود بالبحر لا حائط له . وبها مبان كثيرة فى وسط البحر فإن قاعه صخرى ، وقد شيدت هناك مناظر على رءوس أعمدة رخامية أساسها فى الماء . وفى بحر طبرية سمك كثير . ومسجد الجمعة فى وسط المدينة ، وعند بابه عين ماء ، بُنى عند رأسها حمام ماؤه ساخن فلا يستطيع مستحم أن يصبه على جسده من غير أن يمزجه بماء بارد ، ويقال إن الذى بناه هو سليمان بن داود عليه السلام . وقد دخلته . وفى الجانب الغربى من مدينة طبرية مسجد اسمه مسجد الياسمين ، وهو مسجد جميل فى وسطه ساحة كبيرة بها محاريب ، وحولها الياسمين الذى سمى به المسجد ، وفى رواق بالجانب الشرقى قبر يوشع بن نون ، وتحت هذه الساحة قبور سبعين نبياً عليهم السلام ، قتلهم بنو إسرائيل . وجنوب طبرية بحر لوط وهو مالح المياه ويصب به ماء بحر طبرية . وكانت مدينة لوط تقع على شاطئه ، ولم يبق منها أثر قط . وسمعت من انسان أن فى بحر لوط شيئاً كالحجارة السوداء ، غير صلب ، يشبه البقر ، يخرج من قاعه فيأخذه السكان ويقطعونه ويحملونه إلى المدن والولايات . ويقال إنه إذا وضعت قطعة منه تحت شجرة يمتنع الدود عنها من غير أن يمس جذعها أذى منه ، فلا يتلف الشجر مما تحت الأرض من دود وحشرات ، والعهدة على الراوى . وقيل كذلك إن العطارين يستخدمونه لأنه يبعد دودة تصيب البذور اسمها النقرة . وفى طبرية يصنعون الحصير ، ومنه حصير الصلاة ، وتشترى

الواحدة منها بخمسة جنيهات مغربية . وفى الجانب الغربى من المدينة جبل فيه قطعة من حجر المرمر مكتوب عليها بخط عبرى أن الثريا كانت على رأس الحمل ساعة الكتابة . ويقع قبر أبى هريرة خارج المدينة ناحية القبلة ، ولكن لا يستطيع أحد زيارته ، لأن السكان هناك شيعة ، فإذا ذهب أحد للزيارة تجمع عليه الأطفال وتحرشوا به وحملوا عليه وقذفوه بالحجارة ، ولهذا لم أستطع زيارته . سرت بعد ذلك إلى قرية تسمى كفر كنه ، بجانبها تل بنيت على قمته صومعة جميلة بها قبر النبى يونس عليه السلام ، وعليها باب متين بقربه بئر ماؤها عذب .

وقد عدت إلى عكاء بعد زيارة هذا المشهد ، وبينهما مسافة أربعة فراسخ ، فمكثت بها يوما واحداً ثم غادرتها إلى قرية تسمى حيفا ، فى طريق به كثير من هذا الرمل الذى يستخدمه صياغ العجم والمسمى بالرمل المكى . وحيفا مشيدة على البحر ، وبها نخل وأشجار كثيرة . وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودى .

وسرنا بعد ذلك فبلغنا ، بعد مسيرة فرسخ واحد ، قرية أخرى تسمى كنيسة ، وعندها ينحرف الطريق عن البحر ، ويدخل الجبل ، ناحية المشرق ، حيث الصحراوات والمحاجر التى تسمى وادى التماسيح ، ويعود لمحاذاة الشاطىء بعد مسيرة فرسخين . وهناك رأينا عظام حيوانات بحرية كثيرة مختلطة بالتراب والطين ، وقد تحجرت من كثرة ما ثار عليها من الموج .

وقمنا من هناك وسرنا حتى بلغنا مدينة تسمى قيسارية ، بينها وبين عكاء سبعة فراسخ . وهى مدينة جميلة بها ماء جار ونخيل وأشجار النارنج والترنج ، ولها سور حصين له باب حديدى ، وبها عيون ماء جارية . ومسجدها الجامع جميل ، ويرى المصلون البحر ويتمتعون به وهم جلوس فى ساحته ، وهناك زير من الرخام يشبه الخزف الصينى وهو عميق بحيث يسع مائة منّ ماء .

فى يوم السبت آخر شعبان (١٠ مارس) قمنا من هناك ، وسرنا مقدار فرسخ ، عن طريق الرمل المكى ، وقد رأيت فى الطريق كله ، سهله وجبله ، كثيراً من شجر التين والزيتون وبعد بضعة فراسخ بلغنا مدينة تسمى كفر سابا أو كفر سلام ، ومنها حتى الرملة ثلاثة فراسخ ، فى طريق كله شجر كالذى ذكرت .

وفى يوم الأحد غرة رمضان (١١ مارس) بلغنا الرملة ، ومن قيسارية إليها ثمانية فراسخ . وهى مدينة كبيرة بها سور حصين من الحجر والجص ، مرتفع ومتين وعليه أبواب من حديد . ومن المدينة إلى شاطىء البحر ثلاثة فراسخ . والماء هناك من المطر ، ولذا فقد بنى فى كل منزل حوض لجمع مياه المطر فيبقى ذخيرة دائمة . وفى وسط مسجد الجمعة أحواض تمتلىء بالماء فيأخذ منه من يشاء . ومساحة الجامع ثلاثمائة قدم فى مائتين . وقد كتب أمام الصفة إنه فى الخامس عشر من شهر محرم سنة ٤٢٥ (١١ ديسمبر ١٠٣٣) زلزلت الأرض بشدة هنا فخربت عمارات كثيرة ، ولم يصب أحد من السكان بسوء . وفى هذه المدينة رخام كثير . وقد زينت معظم السرايات والبيوت بالرخام المنقوش الكثير الزينة . و يقطع الرخام بمنشار لا أسنان له وبالرمل المكى . ويعملون المنشار على أعمدة الرخام بالطول لا بالعرض فيخرجون منه ألواحا كألواح الخشب . ورأيت هناك أنواعا وألوانا من الرخام ، من الملمع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض ومن كل لون . وفى الرملة صنف من التين ليس أحسن منه فى أى مكان يُصدر منها إلى جميع البلاد . وتسمى مدينة الرملة فى الشام والمغرب فلسطين .

فى الثالث من رمضان غادرت الرملة فبلغت قرية تسمى خاتون[1] ، وقد سرت منها إلى قرية أخرى تسمى قرية العنب . وقد رأينا فى الطريق كثيرا من نبات السذاب الذى ينبت برّيا على الجبال وفى الصحراء . وقد رأيت فى هذه القرية عين ماء عذب تخرج من الصخر ، وقد بنيت هناك أحواض وعمارات . وقد ذهبنا صاعدين وكنا نحسب أنا بعد صعود الجبل سنهبط إلى المدينة فى الطرف الآخر ، ولكنا وجدنا أمامنا بعد أن صعدنا قليلا ، سهلا واسعاً بعضه صخرى و بعضه كثير التراب ، وعلى رأس جبل فيه تقع مدينة بيت المقدس . ومن طرابلس ، التى هى على الساحل ، إليها ستة وخمسون فرسخا ، ومن بلخ إليها ستة وسبعون وثمانمائة فرسخ .

فى الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ (١٦ مارس ١٠٤٧) بلغنا بيت المقدس . وكان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية ، وطوال رحلتنا لم نقر فى مكان قط ولا وجدنا راحة كاملة . وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس « القدس » . ويذهب إلى القدس فى موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات ، فيتوجه إلى

---

(١) قرية لطرون أو نطرون (شيفر ٦٥)

الموقف ويضحى ضحية العيد كما هى العادة . ويحضر هناك لتأدية السنة ، فى بعض السنين ، أكثر من عشرين ألف شخص ، فى أوائل ذى الحجة ، ومعهم أبناؤهم . كذلك يأتى لزيارة بيت المقدس ، من ديار الروم ، كثير من النصارى واليهود ، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش هناك . وهناك كنيسة عظيمة سيأتى وصفها فى مكانه . وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها ، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء ، والخيرات بها كثيرة ورخيصة وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف منّ من زيت الزيتون ، يحفظونها فى الآبار والأحواض ، ويصدرونها إلى أطراف العالم . ويقال إنه لا يحدث قحط فى بلاد الشام . وسمعت من ثقات أن وليا رأى النبى عليه السلام فى المنام فقال له : « ساعدنا فى معاشنا يا رسول الله » ، فأجابه النبى عليه السلام : « علىّ خبز الشام وزيته » .

والآن أصف مدينة بيت المقدس .

وصف بيت المقدس :

هى مدينة مشيدة على قمة الجبل ، ليس بها ماء غير الأمطار ورساتيقها ذات عيون وأما المدينة فليس بها عين فإنها على رأس صخر . وهى مدينة كبيرة كان بها ، فى ذلك الوقت ، عشرون ألف رجل ، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية ، وكل أرضها مبلطة بالحجارة ، وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات ، وجعلوها مسطحة . بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار . وفى المدينة صناع كثيرون ، لكل جماعة منهم سوق خاصة ، والجامع شرقى المدينة وسوره هو سورها الشرقى . وبعد الجامع سهل كبير مستو يسمى « الساهرة » يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر ، ولهذا يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم ويقيمون به حتى يموتوا فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد . اللهم عفوك ورحمتك بعبيدك ذلك اليوم يارب العالمين . وعلى حافة هذا السهل قرافة عظيمة ، ومقابر كثير من الصالحين ، يصلى بها الناس ويرفعون بالدعاء أيديهم فيقضى الله حاجاتهم ، اللهم تقبل حاجاتنا واغفر ذنوبنا وسيئاتنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين . وبين الجامع وسهل الساهرة واد عظيم الانخفاض كأنه خندق وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين . ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر عجب منها ، حتى أن الناظر إليها ليسأل نفسه كيف رفعت فى مكانها ؟ ويقول العامة إنها بيت فرعون . واسم هذا الوادى

« وادى جهنم » وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه فقيل إن عمر رضى الله عنه أنزل جيشه أيام خلافته فى سهل الساهرة هذا ، فلما رأى الوادى قال هذا وادى جهنم ويقول العوام إن من يذهب إلى نهايته يسمع صياح أهل جهنم ، فإن الصدى يرتفع من هناك ، وقد ذهبت فلم أسمع شيئاً . وحين يسير السائر من المدينة ، جنوبا ، مسافة نصف فرسخ ، و ينزل المنحدر ، يجد عين ماء تنبع من الصخر ، تسمى عين سلوان . وقد أقيمت عندها عمارات كثيرة . ويمر ماء هذه العين بقرية شيدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين . ويقال إن من يستحم من ماء هذه العين يشفى مما ألم به من الأوصاب والأمراض المزمنة . وقد وقفوا عليها مالا كثيرا . وفى بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة و يصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء و به أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف . وهذا المستشفى ومسجد الجمعة يقعان على حافة وادى جهنم . وحين ينظر السائر من خارج المسجد يرى الحائط المطل على هذا الوادى يرتفع مائة ذراع من الحجر الكبير الذى لا يفصله عن بعضه ملاط أو جص . والحوائط ، داخل المسجد ، ذات ارتفاع مستو . وقد بنى المسجد فى هذا المكان لوجود « الصخرة » به وهى الصخرة التى أمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يتخذها قبلة . فلما قضى هذا الأمر ، واتخذها موسى قبلة له ، لم يعمر كثيرا ، بل عجلت به المنية ، حتى إذا كانت أيام سليمان عليه السلام ، وكانت الصخرة قبلة بنى مسجدا حولها بحيث أصبحت فى وسطه وظلت الصخرة قبلة حتى عهد نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام فكان المصلون يولون وجوههم شطرها ، إلى أن أمرهم الله تعالى أن يولوا وجوههم شطر الكعبة وسيأتى وصف ذلك فى مكانه .

وقد أردت أن أقيس هذا المسجد ، ولكنى آثرت أن أتقن معرفة هيأته ووضعه أولا ثم أقيسه ، فلبثت فيه زمنا أمعن النظر ، فرأيت عند الجانب الشمالى ، بجوار قبة يعقوب عليه السلام طاقا مكتوبا على حجر منه إن طول هذا المسجد أربع وخمسون وسبعمائة ذراع وعرضه خمس وخمسون وأربعمائة ذراع ، وذلك « بذراع الملك » ، المسمى فى خراسان « كزشايكان » ، وهو أقل قليلا من ذراع ونصف[1] وأرض المسجد مغطاة

---

(١) يقول شيفر (ص ٧٢) إن قنصل فرنسا فى القدس أرسل إليه حوالى سنة ١٨٨١ النص المكتوب على الجامع وهو : بسم الله الرحمن الرحيم
طول المسجد سبع مائة وأربع وخمسين ذراع وعرضه أربع مائة وخمس وخمسين ذراع بذراع الملك =

بحجارة موثوقة إلى بعضها بالرصاص ، والمسجد شرقى المدينة والسوق ، فإذا دخله السائر من السوق فإنه يتجه شرقا ، فيرى رواقا عظيما جميلا ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون وللرواق جناحان وواجهتاهما و إيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء المثبتة بالجص على الصورة التى يريدونها وهى من الدقة بحيث تبهر النظر . ويرى على هذا الرواق كتابة منقوشة بالمينا ، وقد كتب هناك لقب سلطان مصر ، فحين تقع الشمس على هذه النقوش يكون لها من الشعاع ما يحير الألباب . وفوق الرواق قبة كبيرة من الحجر المصقول ، وله بابان مزخرفان وواجهتاهما من النحاس الدمشقى الذى يلمع حتى لتظن أنهما طليا بالذهب ، وقد طعما بالذهب وحليا بالنقوش الكثيرة وطول كل منهما خمس عشرة ذراعا وعرضه ثمان و يسميان باب داود عليه السلام . وحين يجتاز السائر هذا الباب ، يجد على اليمين رواقين كبيرين فى كل منهما تسعة وعشرون عمودا من الرخام ، تيجانها وقواعدها مزينة بالرخام الملون ووصلاتها مثبتة بالرصاص . وعلى تيجان الأعمدة طيقان حجرية وهى مقامة فوق بعضها بغير ملاط وجص ولايزيد عدد حجارة الطاق منها على أربع أوخمس قطع ، وهذان الرواقان ممتدان إلى المقصورة . ثم يجد على اليسار وهو ناحية الشمال ، رواقا طويلا به أربعة وستون طاقا كلها على تيجان أعمدة من رخام ، وعلى هذا الحائط نفسه باب آخر اسمه « باب السقر » ؟ . وطول المسجد من الشمال إلى الجنوب . وهو ساحة مربعة إذا اقتطعت المقصورة منه . والقبلة فى الجنوب . وعلى الجانب الشمالى بابان آخران متجاوران عرض كل منهما سبع أذرع وارتفاعه اثنتى عشرة ذراعا ، و يسميان « باب الأسباط » . فإذا اجتازه السائر ، وذهب مع عرض المسجد الذى هو جهة المشرق ، يجد رواقا عظيما كبيرا به ثلاثة أبواب متجاورة ، فى حجم « باب الأسباط » ، وكلها مزينة بزخارف من الحديد والنحاس ، قل ما هو أجمل منها تسمى « باب الأبواب » لأن المواضع الأخرى بابين وله ثلاثة . و بين هذين الرواقين الواقعين على الجانب الشمالى ، فى الرواق ذى الطيقان المحملة على أعمدة الرخام ،

= وهناك اختلاف بين ما جاء فى النص الفارسى وبين ما ذكره القنصل . على أن النص الفارسى المطبوع فى برلين والذى اتخذ نسخة شيفر الملحقة بترجمته أصلا قد سقط منه سهواً كلمة چهار (چهار صد) فى ذكر عرض المسجد . راجع النص الفارسى فى كتاب شيفر ص ٢٢ ، ولعل الفرق بين النصين ، فى طول المسجد ، نتج عن إسقاط النساخ لكلمة پنجاه ، فى پنجاه وچهار ، وهذا ما نرجحه ، وصححنا الترجمة على أساسه ، وبه يرتفع الخلاف .

قبة رفعت على دعائم عالية، وزينت بالقناديل والمسارج، تسمى قبة يعقوب عليه السلام، لأنه كان يصلى هناك. وفى عرض المسجد رواق فى حائطه باب خارجه صومعتان للصوفية. وهناك مصليات ومحاريب جميلة يقيم بها جماعة منهم ويصلون ولا يذهبون للجامع إلا يوم الجمعة لأنهم لا يسمعون التكبير حيث يقيمون[1].

وعند الركن الشمالى للمسجد رواق جميل، وقبة جميلة لطيفة مكتوب عليها: «هذا محراب زكريا النبى عليه السلام»، ويقال إنه كان يصلى هناك دائما. وعند الحائط الشرقى، وسط الجامع، رواق عظيم الزخرف من الحجر المصقول، حتى لتظن أنه نحت من قطعة واحدة، ارتفاعه خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون، عليه نقوش ونقر، وله بابان جميلان لا يفصلهما أكثر من قدم واحدة، وعليهما زخارف كثيرة من الحديد والنحاس الدمشقى وقد دق عليهما الحلق والمسامير. ويقال إن سليمان بن داود عليه السلام بنى هذا الرواق لأبيه.

وحين يدخل السائر هذا الرواق متجهاً ناحية الشرق، فالأيمن من هذين البابين هو «باب الرحمة» والأيسر «باب التوبة»، ويقال إن هذا الباب هو الذى قبل الله تعالى عنده توبة داود عليه السلام. وعلى هذا الرواق مسجد جميل كان فى وقت ما دهليزاً فصيروه جامعاً وزينوه بأنواع السجاد، وله خدم مخصوصون، ويذهب إليه كثير من الناس، ويصلون فيه ويدعون الله تبارك وتعالى، فإنه فى هذا المكان قبل توبة داود، وكل إنسان هناك يأمل فى التوبة والرجوع عن المعاصى. ويقال إن داود عليه السلام لم يكد يطأ عتبة هذا المسجد، حتى بشره الوحى بأن الله سبحانه وتعالى قد قبل توبته، فاتخذ هذا المكان مقاما وانصرف إلى العبادة. وقد صليت، أنا ناصر، فى هذا المقام، ودعوت الله تعالى أن يوفقنى لطاعته، وأن يغفر ذنبى. الله سبحانه وتعالى يهدى عباده جميعاً لما يرضاه، ويغفر لهم ذنوبهم، بحق محمد وآله الطاهرين.

وحين يمضى السائر بحذاء الجدار الشرقى إلى أن يبلغ الزاوية الجنوبية، عند القبلة التى تقع على الضلع الجنوبى، يجد، أمام الحائط الشمالى، مسجداً بهيئة السرداب ينزل

---

(١) نرجح أنها: «نرسد»، أى لا يصل. راجع تعليقات غنى زاده ص ٢٣، (١١) طبعة برلين.

إليه بدرجات كثيرة مساحته عشرون ذراعا فى خمس عشرة ، وسقفه من الحجر مرفوع على أعمدة الرخام . وبهذا السرداب مهد عيسى عليه السلام ، وهو من الحجر ، حجمه كبير بحيث يصلى عليه الناس ، وقد صليت هناك . وقد أحكم وضعه فى الأرض حتى لا يتحرك . وهو المهد الذى أمضى فيـه عيسى طفولته وكلم الناس منه ، وهو فى المسجد مكان المحراب . وفى الجانب الشرقى من هذا المسجد محراب مريم عليها السلام . وبه محراب آخر لزكريا عليه السلام . وعلى هذين المحرابين آيات القرآن التى نزلت فى حق زكريا ومريم . ويقال إن عيسى عليه السلام ولد بهذا المسجد . وعلى حجر من عمده نقش إصبعين كأن شخصا أمسكه . ويقال إن مريم أمسكته بإصبعيها وهى تلد . ويعرف هذا المسجد « بمهد عيسى » عليه السلام . وبه قناديل كثيرة من النحاس والفضة ، توقد كل مساء .

حين يخرج السائر من هذا المسـجد ، متبعاً الحائط الشرقى ، يجد عند ما يبلغ زاوية المسجد الـكبير مسجدا آخر عظيما جدا ، أكبر مرتين[1] من مسجد « مهد عيسى » ، يسمى « المسجد الأقصى » وهو الذى أسرى الله عز وجل بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، ليلة المعراج من مكة إليه ، ومنه صـعد إلى السماء ، كما جاء فى القرآن : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى »[2] . وقد بنوا به أبنية غاية فى الزخرف ، وفرش بالسجاد الفاخر ، ويقوم عليه خدم مخصوصون يعملون به دواما .

وحين يعود السائر إلى الحائط الجنوبى ، على مائتى ذراع من تلك الزاوية ، يجد سقفا ، وهناك ساحة المسجد ، وأما الجزء المسقوف من المسجد الكبير ، والذى به المقصورة ، فيقع عند الحائطين الجنوبىّ والغربىّ . وطول هذا الجزء عشرون وأربعمائة ذراع وعرضه خمسون ومائة ذراع ، وبه ثمانون ومائتا عمود من الرخام ، على تيجانها طيقان من الحجارة . وقد نقشت تيجان الأعمدة وهيا كلها ، وثبتت الوصلات فيها بالرصاص فى منتهى الإحكام . وبين كل عمودين ست أذرع مغطاة بالرخام الملون الملبس بشقاق الرصاص . والمقصورة فى وسط الحائط الجنوبى ، وهى كبيرة جداً تتسع لسـتة عشر عموداً ، وعليها قبة عظيمة جداً منقوشة بالميناء على نسق ما وصفت . وهى مفروشة بالحصير المغربى ، وبها

---

(١) يعتقد Schefer أنه ينبغى أن يكون النص ده بمعنى عشرة بدلا من دو بمعنى اثنين (ص ٧٩)

(٢) سورة الإسراء آية ١ .

قناديل ومسارج معلقة بالسلاسل ومتباعد بعضها عن بعض . وبها محراب كبير منقوش بالمينا ، وعلى جانبيه عمودان من الرخام لونهما كالعقيق الأحمر ، وإزار المقصورة كله من الرخام الملون . وعلى يمينه محراب معاوية ، وعلى يساره محراب عمر رضى الله عنه ، وسقف هذا المسجد مغطى بالخشب المنقوش المحلى بالزخارف . وعلى باب المقصورة وحائطها المطلان على الساحة خمسة عشر رواقا ، عليها أبواب مزخرفة ارتفاع كل منها عشرة أذرع وعرضه ست . عشرة من هذه الأبواب تفتح على الجدار الذى طوله عشرون وأربعمائة ذراع ، وخمسة منها على الجدار الذى طوله خمسون ومائة ذراع . وقد زين باب منها غاية الزينة ، وهو من الحسن بحيث تظن أنه من ذهب ، وقد نقش بالفضة وكتب عليه اسم الخليفة المأمون ، ويقال إنه هو الذى أرسله من بغداد[1] . وحين تفتح الأبواب كلها ينير المسجد حتى لتظن أنه ساحة مكشوفة ، أما حين تعصف الريح وتمطر السماء وتغلق الأبواب ، فإن النور ينبعث للمسجد من الكوات . وعلى الجوانب الأربعة من الحرم المسقوف صناديق من مدن الشام والعراق ، يجلس بجانبها المجاورون ، كما هو الحال فى المسجد الحرام بمكة شرفها الله تعالى .

وخارج هذا الحرم ، عند الحائط الكبير الذى مر ذكره ، رواق به اثنان وأربعون طاقا ، وكل أعمدته من الرخام الملون ، وهذا الرواق متصل بالرواق المغربى .

وتحت الأرض فى الحرم المسقوف حوض جعل بحيث يكون فى مستوى الأرض حين يغطى . وقد بنى لتجمع فيه مياه المطر . وعلى الحائط الجنوبى باب يؤدى إلى ميضأة ، يذهب إليها من يحتاج إلى الوضوء فيجدده ، وذلك لأنه لا يلحق الصلاة إذا هو خرج من المسجد ليتوضأ ، إذ أن كبر المسجد يفوت عليه الصلاة ، إذا اجتازه . وكل الأسقف ملبسة بالرصاص .

وقد حفرت فى أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة ، فإن المسجد مشيد كله

---

(١) يتفق هذا الوصف مع ما ذكره المقدسى (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٦٨ — ١٦٩) وهو يقول إن الذى بنى هذه الخمسة عشر رواقا هو أبو العباس عبد الله بن طاهر الذى كان يثق به المأمون وولاه مصر والشام ، وقد توفى فى مرو سنة ٢٣٠/٨٤٤ . ويحيل شيفر (ص ٨١) على ابن خلكان (وفيات ص ٣٦٩ — ٣٧١) وعلى مخطوط فى مكتبته فى تاريخ الخلفاء والأمراء والولاة الذين حكموا دمشق لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى (الورقة ٣٧) .

على صخرة ، يتجمع فيها ماء المطر ، فلا تضيع منه قطرة ، وينتفع به الناس . وهناك ميازيب من الرصاص ينزل منها الماء إلى أحواض حجرية تحتها ، وقد ثقبت هذه الأحواض ليخرج منها الماء ويصب فى الصهاريج ، بواسطة قنوات بينها ، غير ملوث أو عفن . وقد رأيت على ثلاثة فراسخ من المدينة صهريجا كبيرا تنحدر إليه المياه من الجبل وتتجمع فيه ، وقد أوصلوه بقناة إلى المسجد ، حيث يوجد أكبر مقدار من مياه المدينة . وفى المنازل كلها أحواض لجمع ماء المطر ، إذ لا يوجد غيره هناك ، ويجمع كل إنسان ما على سطح بيته من مياه ، فإن ماء المطر هو الذى يستعمل فى الحمامات وغيرها .

والأحواض التى بالمسجد لا تحتاج إلى عمارة أبداً ، لأنها من الحجر الصلب ، فإذا حدث بها شق أو ثقب أحكم إصلاحه حتى لا تتخرب . ويقال إن سليمان عليه السلام هو الذى عمل هذه الأحواض . وقد جعل القسم الأعلى منها على هيئة التنور ، وعلى رأس كل حوض غطاء من حجر حتى لا يسقط فيه شىء . وماء هذه المدينة أعذب وأنقى من أى ماء آخر . والميازيب تستمر فى قطر المياه يومين أو ثلاثة ولو كان المطر قليلا ، إلى أن يصفو الجو وتزول آثاره السيئة ، وحينئذ يبدأ المطر !

قلت إن مدينة بيت المقدس تقع على قمة جبل وإن أرضها غير مستوية . أما المسجد فأرضه مستوية ، فخارج المسجد ، حيثما تكون الأرض منخفضة يرتفع حائطه ، إذ يكون أساسه فى أرض واطئة ، وحيثما تكون الأرض مرتفعة يقصر الجدار . وفى الجهات الواطئة من أحياء المدينة فتحوا فى المسجد أبواباً كأنها نقب ، تؤدى لساحته . ومن هذه الأبواب باب يسمى « باب النبى » عليه الصلاة والسلام ، وهو بجانب القبلة ، أى فى الجنوب ، وقد عمل بحيث يكون عرضه عشرة أذرع وأما ارتفاعه فيتفاوت حسب المكان ، فهو فى مكان خمس أذرع ، أى علو سقف هذا الممر ، وفى مكان آخر عشرون . والجزء المسقوف من المسجد الأقصى مشيد فوق هذا الممر وهو محكم بحيث يتحمل أن يقام فوقه بناء بهذه العظمة من غير أن يؤثر فيه قط . وقد استخدمت فى بنائه حجارة لا يصدق العقل كيف استطاعت قوة البشر نقلها واستخدامها ، ويقال إن سليمان بن داود عليه السلام هو الذى بناه . وقد دخل منه نبينا عليه الصلوات والسلام إلى المسجد ليلة المعراج . وهذا الباب على جانب طريق مكة .

وعلى الحائط ، بقرب هذا الباب ، نقش لمجن كبير . يقال إن حمزة بن عبد المطلب عم النبي عليه السلام كان جالساً هناك وعلى كتفه المجن وظهره مسند إلى الحائط ، وأن هذا نقش مجنه

وعند بوابة المسجد حيث هذا الممر الذى عليه باب ذو مصراعين ، يبلغ ارتفاع الجدار من الخارج ما يقرب من خمسين ذراعاً . وقد قصد بهذا الباب أن يدخل منه سكان المحلة المجاورة لهذا الضلع من المسجد ، فلا يلجأون إلى الذهاب لمحلة أخرى حين يريدون دخوله . وعلى الحائط الذى يقع يمين الباب حجر ارتفاعه خمس عشرة ذراعا وعرضه أربع أذرع وليس فى المسجد حجر أكبر منه . وفى الحائط ، على ارتفاع ثلاثين أو أربعين ذراعا من الأرض كثير من الحجارة التى يبلغ حجمها أربع أذرع فى خمس .

وفى عرض المسجد باب شرقى ، يسمى « باب العين » إذا خرجوا منه نزلوا منحدرا فيه « عين سلوان » . وهناك أيضاً باب تحت الأرض ، يسمى « الحطة » يقال إنه هو الباب الذى أمر الله عز وجل بنى إسرائيل أن يدخلوا منه إلى المسجد ، قوله تعالى : « وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين »[1] .

وهناك باب آخر يسمونه « باب السكينة » ، فى دهليزه مسجد به محاريب كثيرة ، باب أولها مغلق حتى لا يلجه أحد . ويقال إن هناك تابوت « السكينة » الذى ذكره الله تبارك وتعالى فى القرآن والذى حمله الملائكة[2] . وأبواب بيت المقدس ، ما تحت الأرض وما فوقها تسعة أبواب ، كما ذكرت .

---

(١) سورة البقرة آية ٥٨ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى « وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » (البقرة ٢٤٨)

« قال لهم نبيهم » لما طلبوا منه حجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت » أى الصندوق الذى به التوراة ، وكان من خشب الشمشاد مموها بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع فى ذراعين « فيه سكينة من ربكم » أى مودع فيه ما تسكنون إليه ، وهو التوراة ، وكان موسى عليه الصلاة والسلام إذا قاتل قدمه فتسكن نفوس بنى إسرائيل ولا يفرون ، وقيل صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهرة وذنبها وجناحان فتئن فيزف التابوت نحو العدو وهم يتبعونه ، فاذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر . وقيل صورة الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم السلام ؛ فكان عند آدم عليه السلام إلى أن توفى فتوارثه أولاده واحداً بعد واحد . . يضع فيه التوراة ؛ ثم تداولته أيدى بنى إسرائيل ، وكانوا إذا اختلفوا فى شىء تحاكموا إليه فيكلمهم ويحكم بينهم =

وصف الدكة التى [1] بوسط ساحة المسجد والصخرة التى كانت قبلة قبل الاسلام :

أقيمت هذه الدكة فى وسط المساحة ، لأنه لم يتيسر نقل الصخرة إلى الجزء المسقوف من المسجد لعلوها . وهى تظل مساحة من الأرض مقدارها ثلاثون وثلاثمائة ذراع فى ثلاثمائة وارتفاعها اثنتى عشرة ذراعاً . وصحنها مستو ، ومزخرف بالرخام الملبس بوصلات الرصاص . وعلى جوانبها الأربعة ألواح الرخام ، كما يعمل فى المقابر وهى مبنية بحيث لا يستطيع أحد الصعود عليها من غير المراقى المخصصة لهذا الأمر ، ويرى من يصعد عليها سقف الجامع . وقد حفر فى أرضها ، فى الوسط ، حوض يصب فيه مياه المطر بواسطة قنوات أعدت لذلك . وماء هذا الحوض أنقى وأعذب من كل ماء فى الجامع . وعلى هذه الدكة أربع قباب ، أكبرها قبة الصخرة التى كانت القبلة .

وصف قبة الصخرة :

بنى المسجد بحيث تكون الدكة فى وسط الساحة ، وقبة الصخرة فى وسط الدكة والصخرة وسط القبة ، وقبة الصخرة بيت مثمن منظم ، كل ضلع من أضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعا وله أربعة أبواب ، على الجهات الأربع الأصلية ، باب شرقى وآخر غربى وثالث شمالى ورابع جنوبى ، وبين كل بابين ضلع . وجميع الحوائط من الحجر المنحوت ، وارتفاعها عشرون ذراعاً .

ومحيط الصخرة مائة ذراع ، وهى غير منتظمة الشكل ، لاهى مدورة ولا مربعة ، ولكنها حجر غير منتظم كحجارة الجبل . وقد بنوا على جوانب الصخرة الأربعة أربع دعائم مربعة ، بارتفاع حائط الدكة المذكورة . وبين كل دعامتين ، على الجوانب الأربعة ،

= وكانوا إذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوهم ، وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر . . فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقه فغلبوهم على التابوت وسلبوه . . فلما أراد الله تعالى أن يملك طالوت سلط عليهم البلاء ، وهلكت من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت ؛ فأخرجوه وجعلوه على ثورين ، فأقبلا يسيران وقد وكل الله بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما حتى أتوا منزل طالوت . فلما سألوا نبيهم البينة على ملك طالوت ، قال لهم النبى إن آية ملكه أنكم تجدون التابوت فى داره ، فلما وجدوه عنده أيقنوا بملكه . « وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون » رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وعمامة هرون وآلهما .

راجع تفاسير : الطبرى ج ٢ ص ٣٦٢ ، والكشاف ج ١ ص ١١٤ ، وأبى السعود ج ١ ص ٢٨٠ والبيضاوى ص ٨٧ ، والخازن ج ١ ص ٢١٦ .

= (١) فى النص الفارسى الدكان أو الدكة ويسميها المقدسى الدكة فآثرنا لفظ المقدسى .

عمودان إسطوانيان من الرخام ، بنفس الارتفاع . وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الأعمدة الاثنى عشر ، بنوا القبة التى تحتها الصخرة ، والتى يبلغ محيطها مائة وعشرين ذراعا .

و بين حائط هذا البناء والدعائم والأعمدة (أسمى المربعة المبنية « ستون » دعامة والمنحوتة المستديرة التى من حجر واحد « اسطوانة » عموداً) ثمان دعائم أخرى مبنية من الحجارة المنحوتة[1] ، و بين كل اثنتين منهما ثلاثة أعمدة من الرخام الملون على أبعاد متساوية ، بحيث يكون فى الصف الأول عمودان بين كل دعامتين ، ويكون هنا ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين . وعلى تاج كل دعامة أربعة عقود ، على كل عقد طاق ، وعلى كل عمود عقدان فوق كل منهما طاق . وهكذا يكون على العمود متكأ لطاقين ، وعلى الدعامة متكأ لأربعة ، فكانت هذه القبة العظيمة فى ذلك الوقت مرتكزة على هذه الدعامات الاثنتى عشرة المحيطة بالصخرة ، فتراها على بعد فرسخ كأنها قمة جبل . لأنها من أساسها إلى قمتها ثلاثون ذراعاً ، وهى تستند إلى أعمدة ودعامات ارتفاعها عشرون ذراعا ، وقبة الصخرة مشيدة على بيت ارتفاعه اثنتى عشرة ذراعا ، و إذاً فمن ساحة المسجد إلى رأس القبة اثنتان وستون ذراعاً .

وأسقف وقباب هذه الدكة مكسوة بالنجارة . وكذلك الدعائم والعمد والحوائط وذلك بدقة قل نظيرها . والصخرة أعلى من الأرض بمقدار قامة رجل ، وقد أحيطت بسياج من الرخام حتى لا تصل يد إليها .

والصخرة حجر أزرق لونه ، لم يطأها أحد برجله أبداً ، وفى ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض ، كأن إنساناً سار عليها فبدت آثار أصابع قدميه فيها ، كما تبدو على الطين الطرى ، وقد بقيت عليها آثار سبع أقدام . وسمعت أن إبراهيم عليه السلام كان هناك ، وكان إسماعيل طفلاً فمشى عليها وهذه هى آثار أقدامه . ويقيم فى بيت الصخرة جماعة من المجاورين والعابدين ، وقد زينت أرضه بالسجاد الجميل من الحرير وغيره . وفى وسطه قنديل من الفضة ، معلق بسلسلة فضية فوق الصخرة . وهناك قناديل كثيرة من فضة ،

---

(١) فى النص ست دعائم وقد صححها شيفر إلى ثمان فى صفحة ٩٠ الملحوظة الأولى ، مستنداً إلى ماجاء فى النص من اثنتى عشرة دعامة وإلى اللوحة ١٨ من De Vogüé : Le Temple de Jérusalem.

كتب عليها وزنها ، أمر بصنعها سلطان مصر . وقد قدرت ما هناك من الفضة بألف منّ .

ورأيت هناك أيضاً شمعة كبيرة جداً طولها سبع أذرع وقطرها ثلاثة أشبار ، لونها كالكافور الزَباجي وشمعها مخلوط بالعنبر . ويقال إن سلطان مصر يرسل هناك كل سنة كثيراً من الشمع ، منه هذه الشمعة الكبيرة ، ويكتب عليها اسمه بالذهب .

وهذا المسجد هو ثالث بيوت الله سبحانه وتعالى ، والمعروف عند العلماء أن كل صلاة فى بيت المقدس تساوى خمسة وعشرين ألف صلاة ، وكل صلاة فى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام تعد بخمسين ألف صلاة ، وإن صلاة مكة المعظمة شرفها الله تعالى تساوى مائة ألف صلاة . وفق الله عز وجل عباده جميعاً لهذا الثواب .

وقد قلت إن أسقف وظهور القباب ملبسة بالرصاص ، وعلى جوانب الدكة الأربعة أبواب كبيرة ذات مصراعين من خشب الساج وهى مقفلة دائما ، وبعد قبة الصخرة قبة تسمى «قبة السلسلة» ، وهى السلسلة التى علقها داود عليه السلام ، والتى لا تصل إليها إلا يد صاحب الحق ، أما يد الظالم والغاصب فلا تبلغها . وهذا المعنى مشهور عند العلماء . وهذه القبة محمولة على رأس ثمانية أعمدة من الرخام ، وست دعائم من الحجر . وهى مفتوحة من جميع الجوانب عدا جانب القبلة ، فهو مسدود حتى نهايته ، وقد نصب عليه محراب جميل .

وعلى الدكة نفسها قبة أخرى مقامة على أربعة أعمدة من الرخام ، وهى مغلقة من ناحية القبلة أيضاً حيث بنى محراب جميل . وتسمى هذه القبة « قبة جبريل » عليه السلام . وليس فيها فرش بل إن أرضها من حجر مستو . ويقال إن هناك أعد « البراق » ليركبه النبى عليه السلام ليلة المعراج .

وبعد « قبة جبريل » تأتى « قبة الرسول » عليه الصلاة والسلام وبينهما عشرون ذراعاً . وهى مقامة على أربعة أعمدة من الرخام أيضاً[١] . ويقال إن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى ، ليلة المعراج ، فى قبة الصخرة أولاً ثم وضع يده على الصخرة ، فلما خرج وقفت لجلالته ، فوضع الرسول عليه الصلاة والسلام يده عليها لتعود إلى مكانها وتستقر

---

(١) يستعمل هنا كلمة ستون مكان اسطوانة ، وهو يقصد بالأولى الدعامة ، وبالثانية العمود ، ص ٤٣ ملاحظات غنى زاده (٧) .

وهى بعدُ نصف معلقة . وقد ذهب الرسول عليه السلام من هناك إلى القبة التى تنتسب إليه وركب البراق ، وهذا سبب تعظيمها .

وتحت الصخرة غار كبير ، يضاء دائما بالشمع . ويقال إنه حين قامت الصخرة خلا ما تحتها ، فلما استقرت بقى هذا الجزء كما كان .

وصف المراقى المؤدية الى الدكة التى بساحة الجامع .

يسار إلى هذه الدكة من ستة مواضع : لكل منها اسم ، فبجانب القبلة طريقان ، يصعد فيهما على درجات ، فإذا وقفت فى وسط الدكة وجدت أحدهما على اليمين ، والثانى على اليسار . والذى على اليمين يسمى مقام النبى عليه السلام ، والذى على اليسار يسمى مقام الغورى . وسمى الأول مقام النبى لأن النبى عليه الصلاة والسلام صعد على درجاته إلى الدكة ليلة المعراج ، ودخل إلى قبة الصخرة . ويقع طريق الحجاز على هذا الجانب . وعرض درجاته عشرون ذراعا ، وهى من الحجر المنحوت المنتظم ، وكل درجة قطعة أو قطعتان من الحجر المربع ، وهى معدة بحيث يستطيع الزائر الصعود عليها راكباً . وعلى قمة هذه الدرجات أربعة أعمدة من الرخام الأخضر الذى يشبه الزمرد ، لولا أن به نقطا كثيرة من كل لون ، ويبلغ ارتفاع كل عمود منها عشرة أذرع ، وقطره بقدر ما يحتضن رجلان . وعلى رأس هذه الأعمدة الأربعة ثلاثة طيقان ، أحدها مقابل للباب والآخران على جانبيه ، وسطح الطيقان أفقى ، من فوقه شرفات بحيث يبدو مربعاً ، والعمد والطيقان منقوشة كلها بالذهب والمينا ، ليس أجمل منها . ودرابزين الدكة كله من الرخام الأخضر المنقط ، حتى لتقول إن عليه روضة ورد ناضر .

وقد أعد مقام الغورى بحيث تكون ثلاثة سلالم على موضع واحد ، أحدها محاذ للدكة والآخران على جانبيها ، حتى يستطاع الصعود من ثلاثة أماكن . ومن فوق هذه السلالم الثلاثة أعمدة عليها طيقان وشرفة . والدرجات بالوصف الذى ذكرت من الحجر المنحوت ، كل درجة قطعتان أو ثلاث من الحجر المستطيل . وكتب بخط جميل بالذهب على ظهر الطاق : أمر به الأمير ليث الدولة نوشتكين الغورى . ويقال إنه كان تابعاً

لسلطان مصر ، وهو الذى أنشأ هذه الطرق والمراقى[1] .

وعلى الجانب الغربى للدكة سلمان فى ناحيتين منها ، وهناك طريق عظيم مشابه لما ذكرت . وكذلك فى الجانب الشرقى طريق عظيم مماثل ، عليه أعمدة فوقها طيقان وشرفة يسمى المقام الشرقى .

وعلى الجانب الشمالى طريق أكثر علوا وأكبر منها كلها ، به أعمدة فوقها طيقان ، يسمى المقام الشامى . وأظن أنهم صرفوا على هذه الطرق الستة مائة الف دينار .

وفى الجانب الشمالى لساحة المسجد ، لا على الدكة ، بناء كأنه مسجد صغير ، يشبه الحظيرة . وهو من الحجر المنحوت ، يزيد ارتفاع حوائطه على قامة رجل ويسمى «محراب داود» ، وبالقرب منه حجر غير مستو يبلغ قامة رجل ، وقمته تتيح وضع حصيرة صلاة صغيرة عليها[2] . ويقال إنه كرسى سليمان عليه السلام الذى كان يجلس عليه أثناء بناء المسجد .

هذا مارأيت فى جامع بيت المقدس . قد صورته وضممته إلى مذكراتى[3] ، ومن النوادر التى رأيتها فى بيت المقدس شجرة الحور .

بعد الفراغ من زيارة بيت المقدس عزمت على زيارة مشهد إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام ، فى يوم الأربعاء غرة ذى القعدة سنة ٤٣٨ (٢٠ ابريل سنة ١٠٤٧) ، والمسافة بينهما ستة فراسخ ، عن طريق جنوبى به قرى كثيرة وزرع وحدائق وشجر برّى لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق . وعلى فرسخين

---

(١) هو الأمير أبو منصور أنو شتكين أمير الجيوش وحاكم سوريا من قبل الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ، وأصله من ختان . كان عبداً لضابط فى الديلم اسمه دزبر بن أوسيم . وقد خلف أبا قطاع الهمذانى على دمشق سنة ٤١٩ (١٠٢٨) . واضطر إلى الفرار منها على أثر ثورة فى سنة ٤٣٣ (١٠٤١) وهاجر إلى حلب حيث مات بعد ثلاثة أشهر .

انظر Schefer ص ٩٧ الذى نقل عن مخطوط فى مكتبه لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى فى تاريخ الخلفاء والأمراء والولاة الذين حكموا دمشق ، الورقة ١٣٧ .

(٢) هذه الجملة مضطربة : « سروى ... افتد » . تعليقات غنى زاده ص ٤٥ (٨) . ولو أننا اتبعنا نسخة نب : كه زيلوى كوچك برآن موضع افتد ، لاستقام المعنى .

(٣) هذه الإشارة تفيد أن النص الذى بأيدينا ليس كاملا ، تنقصه الصور على الأقل ، وعندى أنه يشير إلى مذكرات مؤقتة يكتبها أثناء رحلته . راجع تعليق غنى زاده ص ٤٥ .

من بيت المقدس أربع قرى بها عين وحدائق وبساتين كثيرة ، تسمى « الفراديس » لجمال موقعها . وعلى فرسخ واحد من بيت المقدس ، مكان للنصارى يعظمونه كثيراً ، يقيم بجانبه مجاورون ويحج إليه كثيرون ، اسمه « بيت اللحم » . وهناك يقدم النصارى القرابين ويقصده الحجاج من بلاد الروم . وقد بلغته مساء اليوم الذى قمت فيه من بيت المقدس .

وصف قبر الخليل صلوات الله عليه :

يسمى أهل الشام وبيت المقدس هذا المشهد «الخليل»[1] ، ولا يذكرون اسم القرية التى هو فيها ، قرية مطلون ، وهى موقوفة عليه مع قرى كثيرة . وفى هذه القرية عين ماء تخرج من الصخر ، يتفجر ماؤها رويداً رويدا ، وهو ينقل من مسافة بعيدة بواسطة قناة إلى خارج القرية ، حيث بنى حوض مغطى ، يصب فيه الماء فلا يذهب هباء ، حتى يفى بحاجة أهل القرية وغيرهم من الزائرين .

والمشهد على حافة القرية من ناحية الجنوب ، وهى فى الجنوب الشرقى . والمشهد يتكون من بناء ذى أربع حوائط من الحجر المصقول ، طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ، وارتفاعه عشرون ، وثخانة حوائطه ذراعان . وبه مقصورة ومحراب فى عرض البناء ، وبالمقصورة محاريب جميلة بها قبران رأسهما للقبلة ، وكلاهما من الحجر المصقول بارتفاع قامة الرجل ؛ الأيمن قبر إسحق بن إبراهيم ، والآخر قبر زوجته عليهما السلام ،

(١) الخليل اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس بينهما مسيرة يوم ، فيه قبة قبر الخليل ابراهيم عليه السلام فى مغارة تحت الأرض ، وهناك مشهد وزوار وقوام فى الموضع وضيافة للزوار ، وبالخليل سمى الموضع واسمه الأصلى حبرون أو حبرى (معجم البلدان ج ٣ ، ص ٤٢٦ طبعة الخانجى)

وروى عن كعب الأحبار أن أول من مات ودفن فى حبرى سارة زوجة ابراهيم عليه السلام . وقيل قدم على النبى صلى الله عليه وسلم تميم الدارى فى قومه وسأله أن يقطعه حبرون فأجابه وكتب له كتاباً شهد عليه أبو بكر بن أبى قحافة وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب ، قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم الدارى وأصحابه ، إنى أعطيتكم بيت عينون وحبرون والمرطوم (مرطون ، مطلون) وبيت ابراهيم بذمتهم وجميع ما فيهم وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم بعدهم أبد الآبدين فمن آذاهم فيه آذى الله » . (معجم ج ٣ ص ٢٠٩) .

وقد كتب هذا الخطاب على رقعة من الجلد على بن أبى طالب وظل يتوارثه آل تميم الدارى حتى القرن السادس عشر الميلادى ، إذ أرسل الخطاب إلى القسطنطينية ليحفظ فى متحف اسكى سراى . شيفر ص ٩٩ هامش حيث أشار إلى رحلة الشيخ عبد الغنى النابلسى فى فلسطين .

وبينهما عشرة أذرع . وأرض هـذا المشهد وجدرانه مزينة بالسجاجيد القيمة والحصر المغربية التى تفوق الديباج حُسناً . وقد رأيت هناك حصير صلاة ، قيل أرسلها أمير الجيوش ، وهو تابع لسلطان مصر . وقد اشـتريت من مصر بثلاثين دينارا من الذهب المغربى ، ولو كانت من الديباج الرومى لما بلغت هذا الثمن . ولم أر مثلها فى مكان قط .

حين يخرج السائر من المقصورة إلى وسط ساحة المشهد ، يجـد مشهدين أمام القبلة : الأيمن به قبر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وهو مشهد كبير ، ومن داخله مشهد آخر لا يستطاع الطواف حوله ، ولـكن له أربع نوافذ يرى منها ، فيراه الزائرون وهم يطوفون حول المشهد الـكبير ، وقد كسيت أرضه وجدرانه ببسط من الديباج ، والقبر من الحجر ، ارتفاعه ثلاث أذرع ، وعلق به كثير من القناديل والمصابيح الفضية .

والمشهد الثانى الذى على يسار القبلة به قبر سارة زوج إبراهيم عليه السلام ؛ وبين القبرين ممر عليه باباهما ، وهو كالدهليز وبه كثير من القناديل والمسارج[1] .

وبعد هذين المشهدين قبران متجاوران ، الأيمن قبر النبى يعقوب عليه السلام ، والأيسر قبر زوجه .

وبعدهما المنازل التى اتخذها إبراهيم لضيافة زائريه ، وبها ستة قبور .

وخارج المشهد منحدر به قبر يوسف بن يعقوب عليه السـلام ، وهو من الحجر وعليه قبة جميلة . وعلى جانب الصحراء بين قبر يوسف ، ومشهد الخليل عليهما السـلام ، قرافة

---

(١) ينقل ياقوت فى معجم البلدان (ج ٣ ص ٤٦٢ طبعة الخانكى) عن الهروى فى كتابه الزيارات يقول : قال الهروى دخلت القدس فى سنة ٥٦٧ (١١٧١) واجتمعت فيه وفى مدينة الخليل بمشايخ حدثونى أن فى سنة ٥١٣ (١١١٩) فى أيام الملك بردويل (Baudouin) انخسف موضع فى مغارة الخليل فدخل إليها جماعة من الفرنج بإذن الملك فوجدوا فيها إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام وقد بليت أكفانهم وهم مستندون إلى حائط وعلى رؤوسهم قناديل ورؤوسهم مكشوفة ، فجدد الملك أكفانهم ثم سد الموضع . قال : وقرأت على السلفى أن رجلا يقال له الأرمنى قصد زيارة الخليل وأهدى لقيم الموضع هدايا جمة وسأله أن يمكنه من النزول إلى جثة إبراهيم عليه السلام ، فقال له : أما الآن فلا يمكن لـكن إذا أقمت إلى أن ينقطع الجثل وينقطع الزوار فعلت . فلما انقطعوا قلع بلاطة هناك وأخذ معه مصباحا ونزلا فى نحو سبعين درجة إلى مغارة واسعة والهواء يجرى فيها وبها دكة عليها ابراهيم عليه السلام ملقى وعليه ثوب أخضر والهواء يلعب بشيبته ، وإلى جانبه إسحق ويعقوب ، ثم أتى به إلى حائط المغارة فقال له : إن سارة خلف هذا الحائط . فهم أن ينظر إلى ما وراء الحائط فاذ بصوت يقول : إياك والحرم . قال فعدوت من حيث نزلت .

كبيرة يدفن بها الموتى من جهات عديدة .

وعلى سطح المقصورة التى فى المشهد ، حجرات للضيوف الوافدين ، وقد وقف عليها أوقاف كثيرة من القرى ومستغلات بيت المقدس .

وأغلب الزراعة هناك الشعير ، والقمح قليل ، والزيتون كثير . ويعطون الضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون . وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق ، وبالمضيفة خادمات يخبزن طول اليوم . ويزن رغيفهم منًا واحداً . ويعطى من يصل هناك رغيفا مستديراً وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت وزبيباً كل يوم . وهذه عادة بقيت من أيام خليل الرحمن عليه السلام حتى الساعة . وفى بعض الأيام يبلغ عدد المسافرين خمسمائة ، فتهيأ الضيافة لهم جميعاً[1] .

ويقال إنه لم يكن لهذا المشهد باب ، وكان دخوله مستحيلا ، بل كان الناس يزورونه من الإيوان فى الخارج . فلما جلس المهدى[2] على عرش مصر أمر بفتح باب فيه ، وزينه وفرشه بالسجاجيد ، وأدخل على عمارته إصلاحا كثيراً ، وباب المشهد وسط الحائط الشمالى على ارتفاع أربع أذرع فوق الأرض ، وعلى جانبيه درجات من الحجر ، فيصعد إليه من جانب ، ويكون النزول من الجانب الثانى . ووضع هناك باب صغير من الحديد .

---

(١) يشير إلى « سماط ابراهيم » أو « الدشيشة » . ويقال إن إبراهيم عليه السلام كان يخرج كل يوم ليأتى بالضيوف ، وقد سمى « أبو الضيفان » لكرمه . يقول مجير الدين فى كتابه تاريخ بيت المقدس (ص ٥٩ طبعة مصر) إنهم كانوا يضربون الطبل كل يوم بعد صلاة العصر عند باب المطبخ حين يوزع الطعام ، وهو من أعجب ما فى الدنيا ويشترك السكان مع الزوار فى هذه الوجبات . ثم يذكر أن الخبز يوزع ثلاث مرات فى اليوم ، فنى الصباح للفقراء وغيرهم ، وفى الظهر للسكان ، وبعد العصر لهم ولمن يأتى من الزوار . وعند الباب ، حيث يدق الطبل ، توجد المطابخ التى تحتوى على ثلاثة أفران وست طواحين ، وعلى مسافة من هذا مخازن الغلال .

(٢) يرجح Schefer ص ١٠٥ أن ناصرا يقصد عبيد الله المهدى مؤسس الأسرة الفاطمية ، الذى استولى على مصر فترة قصيرة سنة ٣٠٦ (٩١٨) ولا يقصد المهدى الخليفة العباسى الذى ولى الخلافة سنة ١٥٨ (٧٧٤). ونحن نوافقه على هذا الرأى . ويزعم مجير الدين أن هذا الباب عمل فى الحكم البيزنطى وقد رسم الهيكل كله على بك العباسى فى رحلته فى إفريقيا وآسيا فى السنوات ١٨٠٣ — ١٨٠٧ . باريس ١٨١٤ الجزء ٣ص ١٦٠ — ١٦٢ ، رقم ٦٣ .

وقد جمع Quatremère فى نهاية الجزء الأول من كتابه Histoire des Sultans Mamlouks الذى ترجمه عن المقريزى كل ما قيل عن حبرون وقبر الخليل فى المراجع الشرقية التاريخية والجغرافية التى رآها ، وما كتبه عنها السواح الغربيون .

ثم رجعت إلى بيت المقدس ومن هناك سرت ماشياً مع جماعة تقصد الحجاز ، وكان دليلنا رجلا اسمه أبو بكر الهمدانى ، وهو رجل جلد يقدر على المشى ، وجهه جميل . غادرت بيت المقدس فى منتصف ذى القعدة سنة ٤٣٧ (أول مايو ١٠٤٧) ، وبعد ثلاثة أيام بلغت جهة تسمى « أعز القرى[١] » ، بها ماء جار وأشجار ، ثم غادرناها إلى منزل آخر يسمى « وادى القرى » ، ومن بعده نزلنا مكانا ثالثا . ثم بلغنا مكة بعد عشرة أيام . لم تحضر لمكة قافلة من أى بلد فى هذه السنة ، ولم يكن الطعام متوفراً . وقد نزلت فى سكة العطارين أمام باب النبى عليه السلام . وفى يوم الاثنين طلعت عرفات ، وكان الناس مملوئين رعباً من العرب ، ولما عدت من عرفات لبثت بمكة يومين ، ثم رجعت إلى بيت المقدس عن طريق الشام .

بلغنا المقدس فى الخامس من المحرم سنة ٤٣٩ (٧ يوليو ١٠٤٧) . ولا أذكر هنا وصف مكة والحج ، سأذكر ذلك عند الكلام على الحجة الأخيرة .

كنيسة بيعة القمامة :

وللنصارى فى بيت المقدس كنيسة يسمونها « بيعة القمامة[٢] » ، لها عندهم مكانة عظيمة . ويحج إليها كل سنة كثير من بلاد الروم ، ويزورها ملك الروم متخفيا ، حتى لا يعرفه الناس . وقد زارها أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله فبلغ ذلك الحاكم ، فأرسل إليه أحد حراسه — بعد أن عرفه أن رجلا بهذه الحلية والصورة يجلس فى كنيسة بيت المقدس — وقال له : « اذهب عنده وقل له : إن الحاكم أرسلنى إليك ويقول : لا تحسبنى أجهل أمرك ، ولكن كن آمنا فلن أقصدك بسوء » ، وقد أمر الحاكم هذا بالإغارة على الكنيسة فهدمها وخربها . وظلت خربة مدة من الزمان . وبعد ذلك بعث القيصر إليه رسلا ، وقدم كثيراً من الهدايا والخدمات وطلب الصلح والشفاعة ليؤذن له بإصلاح الكنيسة فقبل الحاكم وأعيد تعميرها[٣] .

(١) فى النص ارعز وذكرها شيفر باسم عزرا وقال إنه اسم غير واضح (ص ١٠٦) وصححها غنى زاده بالرسم الذى ذكرنا (ص ٤٩) .   (٢) وتسمى عند النصارى كنيسة القيامة .

(٣) هدمت الكنيسة فى سنة ٤٠٠ (١٠٠٩) بأمر الخليفة المصرى الحاكم بأمر الله . وظلت خربة حتى سنه ٤٢٩ (١٠٣٧) حين عقد الامبراطور ميشيل Michel V le Paphlagonien هدنة مع والى بيت المقدس من قبل المستنصر بالله . وقد تعهد بتحرير خمسة آلاف أسير مسلم ومنح الحق فى إعادة =

وهذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل ، وهى عظيمة الزخرف ، من الرخام الملون والنقوش والصور ، وهى مزدانة من الداخل بالديباج الرومى والصور ، وزينت بطلاء من الذهب . وفى أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام راكباً حماراً ، وصور الأنبياء الآخرين مثل : إبراهيم وإسحق ويعقوب وأبنائهم عليهم السلام . وهذه الصور مطلية بزيت السندروس[١] . وقد غطى سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف على قدها ، بحيث لا يحجب منها شىء وذلك حتى لا يصل الغبار إليها . وينظف الخدم هذا الزجاج كل يوم . وهناك عدا ذلك عدة مواضع أخرى كلها مزينة ، ولو وصفتها لطالت كتابتى . وفى هذه الكنيسة لوحة مقسمة إلى قسمين عملا لوصف الجنة والنار ، فنصف يصف الجنة وأهلها ، ونصف يصف النار وأهلها ومن يبقى فيها . وليس لهذه الكنيسة نظير فى أى جهة من العالم . ويقيم بها كثير من القسس والرهبان ، يقرءون الإنجيل ويصلون ويشتغلون بالعبادة ليل نهار .

وصف مصر

ثم عزمت على أن أغادر بيت المقدس إلى مصر ، بطريق البحر ، ثم أغادرها إلى مكة[٢] . ولكن كانت الريح معاكسة وتعذر السفر بالبحر ، فسرنا عن طريق البر ، ومررنا بالرملة ، ثم بلغنا مدينة تسمى عسقلان[٣] ، بها سوق وجامع جميل . رأيت بها طاقا قديماً ، قيل إنه كان مسجداً ، وهو طاق من الحجر الكبير ، لو أرادوا هدمه للزمهم إنفاق مال كثير . وخرجت من هناك فوجدت فى الطريق قرى كثيرة ، ومدنا يطول وصفها فحذفته اختصاراً . وبلغنا مكانا يسمى طينة ، وهو مرفأ للسفن ، يُذهب منه إلى تنيس ، وقد ركبت السفينة إليها .

= بناء الكنيسة ، فأرسل المهندسين والمعماريين فورا من القسطنطينية وبنيت الكنيسة من جديد . انظر Schefer ص ١٠٧ .

(١) نوع من الدهن يستخرج من صمغ بعض الأشجار . ويسميه اليونان سنتالوزى Santalozi . وقد ذكر طريقة تحضيره المخطوط البيزنطى Guide de la Peinture الذى ترجمه الدكتور Paul Durand بعنوان Manuel d'iconographie chrétienne, grecque et latine فى باريس ١٨٤٥ ص ٤١ . راجع Schefer ص ١٠٨ .

(٢) تفيد أنه لم يكن فى نيته إطالة إقامته فى مصر .

(٣) قال الهروى فى كتابه الزيارات (ورقات ٢٧ ، ٢٨) أن رأس الحسين بن على ظلت فى مشهد عسقلان إلى أن استولى الفرنج على المدينة فنقلت الرأس الشريفة إلى مصر سنة ٥٤٩ (١١٥٤) (Schefer ص ١٠٩) .

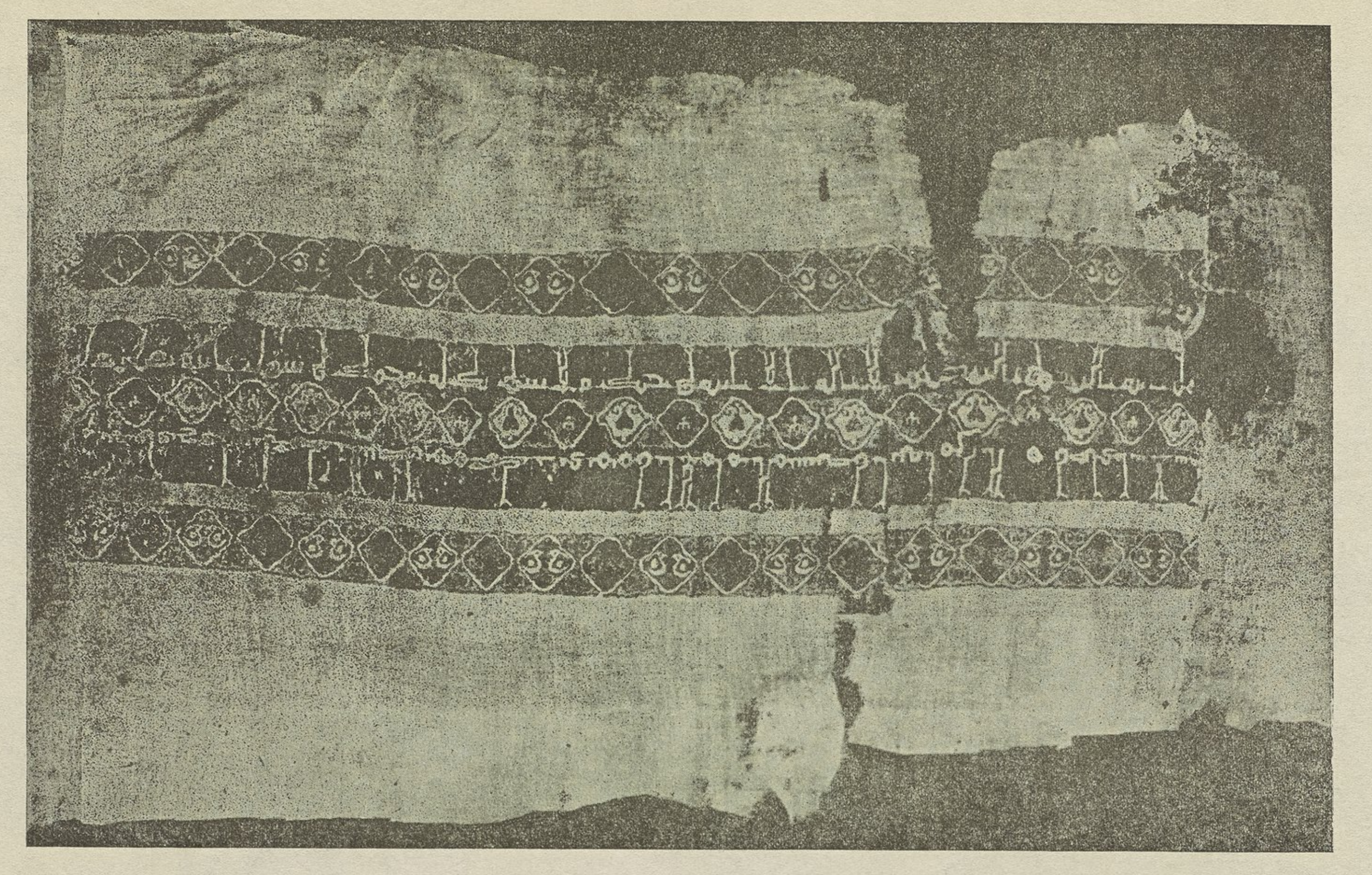
تنيس جزيرة ومدينة جميلة ، وهى بعيدة عن الساحل بحيث لا يُرى من أسطحها . والمدينة مزدحمة ، وبها أسواق فخمة وجامعان ، وقد يبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان ، منها مائة دكان عطار . وهناك فى فصل الصيف يبيعون الكِشكاب[1] ، فإن الجو حار وتكثر الأمراض فى المدينة . وينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ووقايات ومما يلبس النساء . ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة ما غير تنيس . والأبيض منه ينسج فى دمياط . وما ينسج منه فى مصانع السلطان لا يباع ولا يعطى لأحد . وقد سمعت أن ملك فارس أرسل رسله إلى تنيس بعشرين ألف دينار ليشترى له بها حلة من كسوة السلطان ، وقد بقى رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراءها . وبتنيس صناع مختصون بنسيج ملابس السلطان . وقد سمعت أن عاملا نسج عمامة السلطان ، فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى ، وقد رأيت هذه العمامة، ويقال إنها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى.

وينسجون فى مدينة تنيس هذه البوقلمون ، الذى لا ينسج فى مكان آخر من جميع العالم . وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار . وتحمل أثوابه من تنيس إلى المشرق والمغرب . وسمعت أن سلطان الروم كان قد أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس ، فلم يقبل السلطان ، وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون[2] .

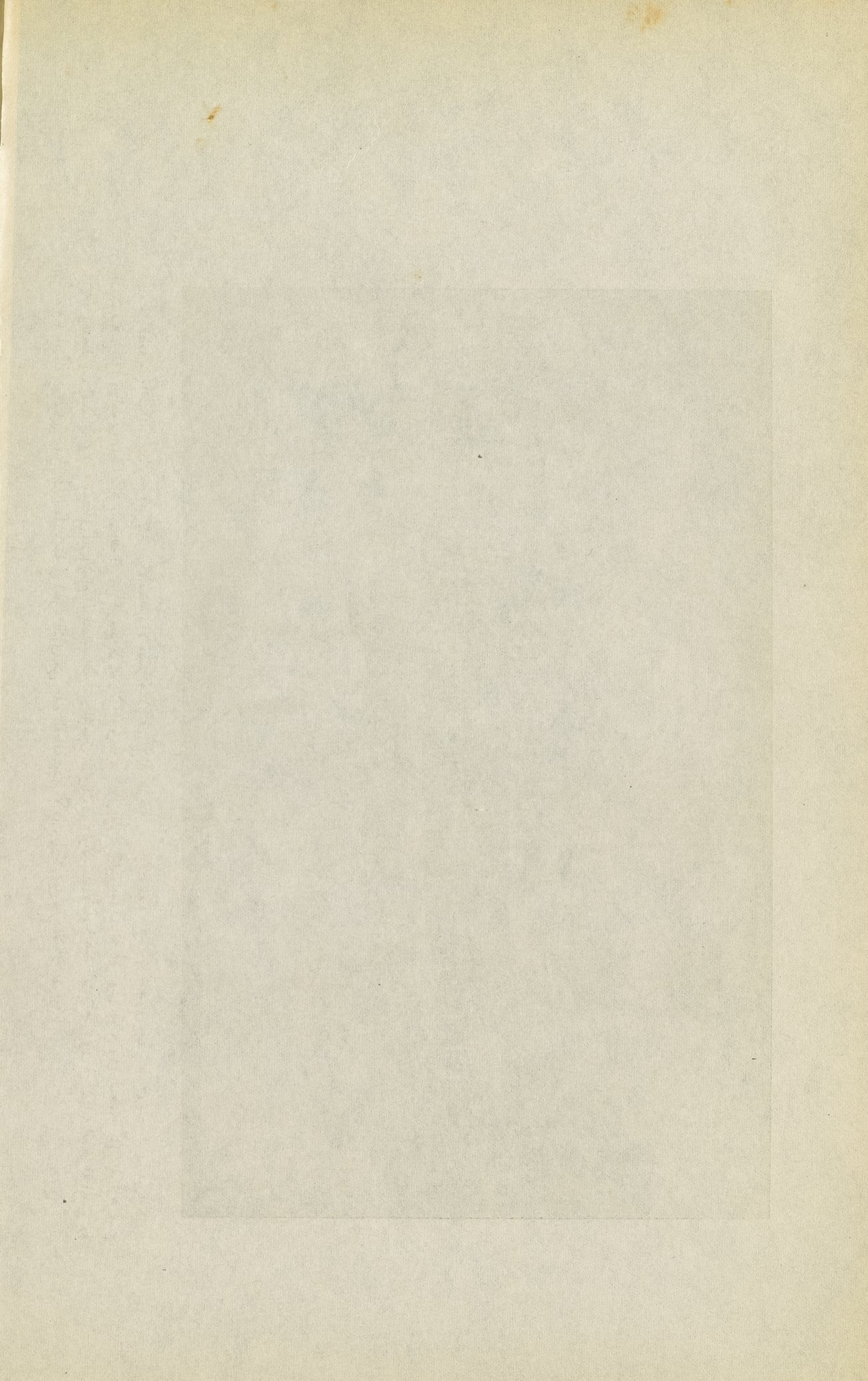
---

(١) الكشكاب صنفان . صنف منعش غير مسكر يشبه ما يسمى فى تركيا آيران وهو يشرب فى إيران أيضا . يتكون من اللبن الزبادى المضروب مع الماء . وصنف آخر مسكر يتكون من «السوبيا» المخمرة مضافا إليها بعض العناصر الأخرى ويسمى هذا الصنف الفقاع ، ويقصد ناصر الصنف الأول . رضا قولى خان فى فرهنك ناصرى ، Schefer ص ١١٠ .

(٢) كانت تنيس من أجل المدائن وكانت بالقرب من دمياط قال المسعودى كان طول مدينة تنيس من الجنوب إلى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتى ذراع وكان عرضها من المشرق إلى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا بالعمل ، وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد ، وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا وبكل مسجد منارة ، وكان بها ستة وثلاثون حماما ، وكان بها مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب ، وكان بها مائة وستون طاحونا وكان بها من الحوانيت ألفان وخمسمائة حانوت برسم البضائع وكان بها من المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون بها الثياب الشرب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمائة دينار وكانت تحمل منها إلى بغداد ، وكان يعمل بها طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب ... ولم تزل مدينة عامرة إلى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (١١٧٧) حتى جاء إليها نحو أربعين مركبا موسوقة جماعة من الفرنج فحاصروا أهلها فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها إلى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت =



جزء من قطعة من الكتان منسوج فيها بالحرير الأبيض والأخضر والأصفر ثلاثة أشرطة زخرفية ، الأوسط منها محصور بين سطرين متعاكسين من الكتابة الكوفية ، تقرأ في العلوى منهما : « بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله علىّ ولى الله » وفى السطر السفلى تقرأ « نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات . . » ولاحظ الأستاذ عبد العزيز مرزوق فى كتابه الزخرفة المنسوجة ص ١٩٥ أن ألقاب الوزير بدر الجمالى منسوجة فى الجزء الثانى من هذه القطعة بدار الآثار . (كليشيه دار الآثار العربية) .



حينما يزيد ماء النيل يُبعد الماء الملح من حول تنيس ، بحيث يصبح ماء البحر عذباً حتى عشرة فراسخ حولها . وقد بنوا بجزيرة تنيس ومدينتها صهاريج عظيمة تحت الأرض وهى قوية البنيان وتسمى المصانع . فحين يزيد ماء النيل ويطرد الماء الملح من هناك ، تُملأ هذه المصانع من ماء النيل الذى يجرى إليها . وماء هذه المدينة من تلك المصانع التى تمتلئ وقت زيادة النيل ، ويستعمل السكان هذا الماء حتى السنة التالية . وكل من لديه ماء فوق حاجته ، يبيع الفائض لغيره . وبتنيس مصانع كثيرة موقوفة ، يعطى ماؤها للغرباء . وسكانها خمسون ألفاً . ويرابط حولها ، دائماً ، ألف سفينة ، منها ما هو للتجار وكثير منها للسلطان . ويجلب لهذه الجزيرة كل ما تحتاج إليه ، إذ ليس بها من خيرات الأرض شىء ، وتجرى المعاملات فيها بالسفن ، لأنها جزيرة .

= كلها ثم أخذوا ماقدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها واستمرت على ذلك إلى سنة أربع وعشرين وستمائة (١٢٢٦) فى دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقى من سورها وبيوتها واستمرت خرابا عن يومئذ إلى الآن .

تاريخ مصر لابن إياس ج ١ طبعة بولاق ص ٤٩ — ٥٠ .

وقال أبو القاسم ابن حوقل النصيبى فى كتابه صورة الأرض طبع ليدن ١٩٣٨ ص ١٥٢ :

ومن جليل مدنها (مصر) وفاخر خواصها ما خصت به تنيس ودمياط وفيهما يتخذ ويعمل رفيع الكتان وثياب الشرب والدبيقى والمصبعات من الحلل التنيسية التى ليس فى جميع ما فى الأرض ما يدانيها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة والدقة وربما بلغت الحلة من ثيابها مائتى دنانير إذا كان فيها ذهب وقد يبلغ مالا ذهب فيه منها مائة دينار وزائدا وناقصا .. وإن كانت شطا ودبقوا ودميرة وتونة وما قاربهم بتلك الجزائر يعمل بها الرفيع من هذه الأجناس فليس ذلك بمقارب للتنيسى والدمياطى والشطوى مما جعل الحمل على عهدنا يبلغ من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين لجهاز العراق .

وراجع أيضا : ياقوت فى المعجم ج ٢ ص ٤١٩ وما بعدها . والمقريزى ج ١ ص ١٧٦ وما بعدها ، طبعة بولاق .

وأما القول بوجود مصانع تنسج ما يريده الخليفة من كسائه وما ينعم به على حاشيته من ملابس ، فهذا نظام معروف منذ أيام الساسانيين . فقد كان « الطراز » ينسج فى مصانع أعدت له فى قصر كسرى . فلما قامت الدولة الأموية نقلت هذا النظام عن الساسانيين ثم توسع فيه العباسيون من بعدهم فكثرت هذه المصانع الملكية ، وأصبح مكانها يقوم حيث تكون المادة الأولية الأساسية فى الصناعة .

وقد امتازت مصر بصنع الكتان فاشتهرت به تنيس ودمياط والاسكندرية . وكانت الدولة تشرف على هذه المصانع وكان كثير من العمال من القبط الذين احتفظوا بدينهم .

راجع : تاريخ القرون الوسطى Histoire du Moyen-Age, Charles Diehl ، G. Marçais (ج ٣ ص ٣٦٤) حيث رجع المؤلفان إلى دائرة المعارف الاسلامية مادة طراز (Grohmann) ، وإلى Mez فى حضارة الإسلام Die Renaissance des Islam ص ٤٣١ من النسخة الألمانية ، وإلى مساجد القاهرة Les mosquées du Caire ص ٩٣ وما بعدها لمؤلفه الأستاذ ڤيت Wheit مدير دار الآثار العربية بالقاهرة .

ويقيم بتنيس جيش كامل السلاح ، احتياطا ، حتى لا يستطيع أحد من الفرنج أو الروم أن يغير عليها . وسمعت من الثقات أنه يصل منها لخزانة سلطان مصر ، يومياً ، ألف دينار مغربى ويصل ذلك المقدار مرة واحدة ، يحصله شخص واحد ، يسلمه أهل المدينة اليه فى وقت معين[(١)] ، وهو يسلم للخزانة ، فلا يتأخر منه شىء . ولا يجبى شىء بالعنف من أى شخص .

وما ينسج للسلطان من القصب والبوقلمون يدفع ثمنه كاملا ، بحيث يعمل الصناع برضاهم للسلطان ، لا كما فى البلاد الأخرى حيث يفرض الديوان والسلطان السخرة على الصناع .

وتصنع أستار هوادج الجمال ولبود سروج الخيل ، الخاصة بالسلطان ، من البوقلمون .

ويؤتى بالفاكهة والأغذية لتنيس من قرى مصر . ويصنعون بها آلات الحديد كالمقراض والسكين وغيرهما . وقد رأيت مقراضاً فى مصر ، صنع فى تنيس ، ثمنه خمسة دنانير مغربية ، يفتح إذا رفع مسماره ويقص إذا أنزل .

وتصيب النساء هناك ، أحيانا ، علة كالصرع ، فيصحن مرتين أو ثلاثا ، ثم يعدن بعد ذلك إلى صوابهن . وكنت سمعت فى خراسان ، عن جزيرة تموء فيها النساء كالقطط ، وذلك على النحو الذى ذكرت .

وتذهب السفينة من تنيس إلى القسطنطينية فى عشرين يوما . وقد سرنا بجانب مصر ، وحين بلغنا شاطئ البحر ، سارت السفينة فى النيل . حين يقترب نهر النيل من

---

(١) لكى يجد القارىء صورة لما كانت تغله مصر للولاة أذكر ما جاء فى كتاب صورة الأرض لأبى القاسم بن حوقل النصيبى ص ١٣٥ حيث يقول :

وجدت بخط أبى النمر الوراق فى أخبار أبى الحسين الخصيبى ، قال حدثنى أبو حازم القاضى قال قال لى أبو الحسن ابن المدبر : لو عمرت مصر كلها لوفت بأعمال الدنيا . وقال : تحتاج مصر إلى ثمانية وعشرين ألف ألف فدان وإنما يعمر منها ألفا ألف فدان . قال وقال له إنه كان يتقلد الدواوين بالعراق يريد ديوان المشرق والمغرب ، قال ولم أبت قط ليلة من الليالى وعلى عمل أو بقية منه وتقلدت مصر فكنت ربما بت وقد بقى على شىء من العمل فأستتمه إذا أصبحت . قال وقال له أبو حازم القاضى :

جبا عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب رضى الله عنه اثنى عشر ألف ألف دينار ، فصرفه عنها عثمان لعبد الله بن أبى سرح فجباها أربعة عشر ألف ألف دينار . وقال أبو حازم ، إن هذا الذى جباه عمرو وعبد الله بن أبى سرح إنما كان من الجماجم خاصة دون الخراج وغيره .

وجاء فى Mémoires géographiques sur l'Egypte ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ أنه فى زمن البطريق Denys de Telmahar كان على كل نصرانى ، غنيا أو فقيرا ، أن يدفع خمس قطع ذهبية . فتوسط Denys لدى عبد الله بن طاهر ليخفف الضريبة فأمر بأن يحصل من الغنى ٤٨ درهما و ٢٤ من متوسط الحال و ١٢ من الفقير (Schefer ص ١١٣) .

البحر ، يصير فروعا تصب متفرقة فيه . ويسمى الفرع الذى مررنا فيه فرع الروم . سارت السفينة حتى بلغنا مدينة تسمى الصالحية . وهى مدينة كثيرة النعم والخيرات . وتصنع بها سفن كثيرة ، حمولة كل منهما مائتا خروار[١] ، وهى تنقل البضاعة إلى مدينة مصر حتى أبواب دكاكين البقالين ، ولو لم تكن وسائل النقل كذلك لتعذر نقل المؤن فيها على ظهور الدواب ، لكثرة الزحام الذى بها . وقد نزلت من السفينة إلى الصالحية . ثم بلغت قرب القاهرة فى تلك الليلة ، وفى يوم الأحد السابع من صفر سنة ٤٣٩ (٤ أغسطس ١٠٤٧) ، وهو يوم هرمزد من شهر يور القديم ، كنا فى القاهرة .

وصف مصر وولايتها :

يخرج ماء النيل من بين الجنوب والغرب ويمر بمصر ثم يصب فى بحر الروم . ويبلغ نهر النيل ، فى زيادته ضعف نهر جيحون عند ترمذ . ويمر النيل بولاية النوبة ثم يجىء إلى مصر . والنوبة ولاية جبلية . وحين يصل النيل إلى الوادى ، فهناك ولاية مصر . وأول مدينة يصل إليها ، على الحدود ، تسمى أسوان . والمسافة من مصر إليها ثلثمائة فرسخ ، وتقع المدن والولايات كلها على شاطىء النيل . وتسمى هذه الولاية ، أسوان ، بالصعيد الأعلى . ولا تستطيع السفن عبور النيل ، حين تصل لأسوان ، لأن الماء يخرج هناك من شلالات فيندفع سريعا[٢] .

وولاية النوبة جنوبى أسوان . ولها ملك خاص . وسكانها سود البشرة ودينهم النصرانية . ويذهب إليها التجار ويبيعون الخرز والأمشاط والمرجان ويجلبون منها الرقيق . والرقيق فى مصر إما نُوب (أو نوبيون) وإما روم . وقد رأيت قمحاً وذرة من النوبة ، كلاهما أسود .

ويقال إن حقيقة منابع النيل لم تعرف . وسمعت أن سلطان مصر أرسل بعثة لتتبع شاطىء النيل ، سنة كاملة ، ودرسه . ولكن أحداً لم يعرف حقيقة منبعه . ويقال إنه يأتى من جبل فى الجنوب ، يسمى جبل القمر .

---

(١) خروار : حمل حمار .

(٢) وبالنيل موضعان يعرفان بالجنادل ، أحدهما فوق أسوان بثلاثة أميال ، وهو جبل قطع أيضا لطريق الماء وترك ما قطع منه على غاية الوعورة فالماء يتسرب منه بين أحجار عظام . ولا تقدر المراكب أن تسير فيه لوعورته ، وإذا جاءته حملت إلى البر متاعها إلى أن تلحق بمسيل الماء المستقيم .. وكأنه ترك ردءا لمن قصد بلد العدو أو ردءا لمن أراد مصر من ناحية العدو . صورة الأرض ص ١٤٥ .

حين تبلغ الشمس مدار السرطان يزداد النيل ، فيرتفع عشرين ذراعا عما كان مستقراً عليه فى الشتاء . وهكذا يتزايد يوما بعد يوم . وقد أعدوا له ، فى مصر ، مقاييس وعلامات ورتبوا عاملا وظيفته ألف دينار للمحافظة عليها ولتسجيل الزيادة . ومنذ أول يوم للفيضان ، يطوف منادون فى المدينة ، منادين بأن الله تعالى قد زاد النيل كذا أصبعا ، ويذكرون مقدار زيادته كل يوم .

وحين تبلغ الزيادة ذراعا كاملا ، تضرب البشائر ويفرح الناس ، حتى تبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا ، وهى الزيادة المعهودة ، يعنى أنه كلما قلت الزيادة عن ذلك ، قيل إن النيل ناقص ، فتصدقوا ونذروا النذور وعلاهم الغم . فإذا زاد عن هذا القدر فرحوا وأظهروا الغبطة . وما لم يصل الارتفاع إلى ثمانية عشر ذراعا ، لا يأخذ السلطان الخراج [1] . ويتفرع من النيل فروع كثيرة تسير فى الأطراف ، كما يتفرع منها ترع صغيرة . وعليها تقع الولايات والقرى . وأقيمت بمصر سواق كثيرة يصعب حصرها أو قياسها . وشيدت قرى مصر كلها على المرتفعات والتلول ، وذلك حتى لا تغرق ، فإن الماء يغمر البلاد كلها وقت الفيضان ،

---

(١) ولمصر عادة وسنة لم تزل منذ عهد فراعنتها فى استخراج خراجها وجباية أموالها واجتلاب قوانينها ، وذلك إنه لا يستتم استيفاء الخراج من أهلها إلا عند تمام الماء وافتراشه على سائر أراضيها وتطبيقها ويقع إتمامه فى شهر توت .

وبطوبة يطالب الناس بافتتاح الخراج ومحاسبة المتقبلين على الثمن من السجلات من جميع ما بأيديهم من المحلول والمعقود ، وبأمشير يؤخذ الناس فيه بإتمام ربع الخراج من السجلات . وببرمهات يطالب الناس فيه بالربع الثانى والثمن من الخراج . وببرمودة تقع المساحة على أهل الأعمال ، ويطالب الناس بإغلاق نصف الخراج عن سجلاتهم ويحصد بدرى الزرع . وببشنس تقرر المساحة ويطالب الناس بما يضاف إلى المساحة من أبواب وجوه المال كالصرف والجهبذة وحق المراعى والقرط والكتان على رسوم كل ناحية ويستخرج فيه إتمام الربع . وبأبيب يستتم فيه ثلثة أرباع الخراج وهو أصل زيادة ماء النيل . وفى مسرى يغلق الخراج وفيه جمهور زيادة النيل . صورة الأرض لابن حوقل ١٣٦ — ١٣٧ .

وقال المقريزى (ج ١ ص ٩٧ — ٩٨) ومن أحسن السياسات فى أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق فى سيرة المعز لدين الله قال وفى هـذا الشهر يعنى شوال سنة ٣٦٢ (٩٧٢) منع المعز لدين الله النداء بزيادة النيل وإن لا يكتب بذلك إلا إليـه وإلى القائد جوهر فلما تم أباح النداء يعنى لما تم ست عشرة ذرعا وكسر الخليج . فتأمل ما أبدع هذه السياسة فإن الناس دائما إذا توقف النيل فى أيام زيادته أو زاد قليلا يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ويجتهد من عنده مال فى خزن الغلة إما لطلب السعر أو لطلب ادخار قوت عياله فيحدث بهذا الغلاء فإن زاد الماء انحل السعر وإلا كان الجدب والقحط ، ففى كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة .

وحينئذ يسيرون من قرية لأخرى بالزوارق[١] . وقد أنشأوا على الشاطئ ، من أول الولاية لآخرها ، جسراً من الطين ، ليسير عليه الناس . وتصرف خزينة السلطان ، كل سنة ، للعامل المعتمد ، عشرة آلاف دينار مغربى ، لتجديد عمارته . ويجهز أهل هذه الولاية حاجاتهم الضرورية كلها لهذه الأشهر الأربعة التى تكون بلادهم أثناءها مغمورة بالماء ، ويخبز كل شخص فى الريف ما يكفيه من الخبز هذه المدة ويقدده حتى لا يتعفن .

ونظام الفيضان هو الآتى :

يتزايد الماء أربعين يوما من بدء الفيضان ، إلى أن يبلغ ثمانية عشر ذراعا ، ويبقى على هذا أربعين يوما ، لايزيد ولا ينقص . ثم يتدرج نحو النقصان مدة أربعين يوما أخرى حتى يصل إلى الحد الذى كان عليه فى الشتاء . وحينما يبدأ الماء فى التناقص يتبعه الزراع ، فكلما جفت بقعة زرعوها الزرع الذى يريدون ، وعلى هذا النحو زرعهم الصيفى والشتوى[٢] . فلا يتطلب ماء آخر قط .

تقع مصر بين النيل والبحر ، والنيل يأتى من الجنوب ، ويتجه شمالا ، ويصب فى البحر . والمسافة من مصر إلى الإسكندرية ثلاثون فرسخا .

وتقع الإسكندرية على شاطئ بحر الروم وشاطئ النيل . وتصدر منها بالسفن فاكهة كثيرة لمصر . وفى الإسكندرية منارة ، كانت قائمة وأنا هناك . وقد كان فوقها مرآة محرقة ، فكلما جاءت سفينة رومية من القسطنطينية ، أصابتها نار من هذه الحراقة فأحرقتها . وقد بذل الروم كثيراً من الجد والجهد والحيلة فبعثوا شخصاً فكسر المرآة[٣] . وفى عهد الحاكم ،

---

(١) وأكثر ما يصل أهل مصر بعضهم إلى بعض عند زيادة النيل فى المراكب لأن الماء يحجب بإحاطته أكثر مدنها وضياعها ويستولى عليها فى جميع أراضيها ، فطرقات بعضهم إلى بعض فى الماء بالمراكب أو من فوق الجسور الممتدة التى يصرف عليها إذا عملت كما ينبغى ربع الخراج .

صورة الأرض ص ١٣٧ وانظر المقريزى ج ١ ص ٩٨ .

(٢) يقول المقريزى (ج ١ ص ٩٨) « فإذا تكامل رى ناحية من النواحى قطع أهلها الجسور المحيطة بها من أمكنة معروفة عند خولة البلاد ومشايخها فى أوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر عن أوقاتها المعتادة على على حسب ما تشهد به قوانين كل ناحية من النواحى فتروى كل جهة مما يليها مع ما يجتمع فيها من الماء المختص ولولا إتقان ما هناك من الجسور وحفر الترع والخلجان لقل الانتفاع بماء النيل . وقد حكى أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر فى كل سنة ثلث الخراج » .

(٣) كثرت الأقوال فى منارة الإسكندرية ، وقد عدد المقريزى (ج ١ ص ٢٥١ وما بعدها) كثيرا من الروايات الخاصة بها ، ويقال إنها قديمة جدا ، كانت مشيدة قبل الإسكندر ، وكان عليها =

سلطان مصر ، جاءه شخص وعرض عليه أن يعيدها كما كانت ، فقال الحاكم لا حاجة إلى ذلك ، فإن الروم يرسلون إلينا الآن الذهب والمال كل سنة ، وهم راضون بأن يذهب جيشنا إليهم . ونحن معهم فى سلام تام . وماء الشرب فى الإسكندرية من المطر . وصحراؤها مملوءة بهذه الأعمدة المبعثرة التى قدمت وصفها[1] .

ويمتد بحر الإسكندرية حتى القيروان ، التى يفصلها عن مصر مسافة مائة وخمسين فرسخاً . والقيروان ولاية ، مدينتها الكبرى سجلماسة ، التى تقع على بعد أربعة فراسخ من البحر وهى مدينة كبيرة فى الصحراء وبها حصن محكم . وبجانبها المهدية التى بناها المهدى ، أحد أبناء أمير المؤمنين الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما ، بعد استيلائه على المغرب والأندلس ، وهى فى هذه الأيام تابعة لسلطان مصر . ويسقط البَرَدُ فى القيروان ، ولكنه لا يمكث على أرضها . ويتجه البحر شمالا ويسير ناحية اليمين إلى الأندلس .

= مرآة من أخلاط شتى قطرها خمسة أشبار . فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها على سفن العدو فأحرقتها . ولما جاء الإسكندر ، وكانت المنارة قد خربت ، أعادها ووضع فوقها مرآة ليرى منها من يقصده من أعدائه ، وكانت من زجاج مدبر . وكانت مشفة بحيث تشاهد منها مراكب البحر على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها . ويروى المقريزى ، مؤيدا رواية ناصر ، فيقول إن ملك الروم أيام الوليد بن عبد الملك (٨٦/٧٠٥ — ٩٦/٧١٥) أنفذ خادما من خواص خدمه ذا رأى ودهاء ، فجاء مستأمنا إلى بعض الثغور . . فجاء إلى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك وأنه أراد قتله لموجدة ، وأنه رغب فى الإسلام فأسلم على يد الوليد وتقرب من قلبه وتنصح إليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها . بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن ، فلما صارت إلى الوليد تلك الأموال والجواهر شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم يا أمير المؤمنين إن ها هنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك ، فسأله الوليد عن الخبر فقال : تحت منارة الإسكندرية أموال ملوك الأرض ، وذلك أن الإسكندر احتوى على الأموال التى كانت لشداد بن عاد وملوك مصر فبنى لها ازجا تحت الأرض ، وقنطر لها الأقباء والقناطر والسراديب وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجوهر ، وبنى فوق ذلك هذه المنارة — وكان طولها فى الهواء ألف ذراع والمرآة فى علوه والدبادبة جلوس حولها فإذا نظروا إلى العدو فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا لمن قرب منهم ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فيحترز الناس وتنذر البلد ، فلا يكون للعدو عليهم سبيل — فبعث الوليد مع الخادم بجيش من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة ، فضج الناس من هذا وعلموا أنها مكيدة . . فلما علم الخادم استفاضة ذلك وأنه سينم إلى الوليد وأنه قد بلغ ما يحتاج إليه هرب .

(١) يقول عبداللطيف البغدادى فى رحلته بمصر (ص ٤١ طبع المجلة الجديدة) : ورأيت بالإسكندرية عمود السوارى . ثم أنى رأيت بشاطئ البحر ، مما يلى سور المدينة ، أكثر من أربعمائة عمود مكسرة أنصافا وأثلاثا ، حجرها من جنس حجر عمود السوارى ، ويظن البغدادى أن هذه الأعمدة كانت تسند سقفا كان من تحته الرواق الذى كانت تلقى فيه دروس الفلسفة كما كانت فيه خزانة الكتب التى يقال إن عمرو بن العاص أحرقها (ص ٤٢) .

وبين الأندلس ومصر ألف فرسخ . وسكانها جميعاً مسلمون . وهى ولاية كبيرة جبلية ينزل فيها البرد ويتجمد ، سكانها بيض وشعرهم أحمر وأكثرهم كالصقالبة عيونهم كعيون القطط . وتقع الأندلس فى نهاية بحر الروم ، فالبحر شرقى بالنسبة لأهلها . وإذا ذهب (السائر) من الأندلس ، شمالاً جهة اليمين ، متتبعاً الشاطئ ، فإنه يبلغ بلاد الروم . وكثيراً ما يغزون الروم من الأندلس .

ومن الممكن أن يركب المسافر البحر إلى القسطنطينية إذا أراد ، ولكن لابد من اجتياز خلجان كثيرة ، عرض كل منها مائتا فرسخ أو ثلثمائة فرسخ ، لا تجتازها إلا سفن خاصة .

وقد سمعت من ثقة أن محيط هـذا البحر أربعة آلاف فرسخ ، وأن فرعا منه يدخل بلاد الظلمات ، كما يقال ، وأن نهاية هذا الفرع متجمدة دائماً لأن الشمس لا تبلغه .

ومن جزائر هذا البحر صقلية ، وتبلغها السفينة من مصر فى عشرين يوماً . وهناك جزر كثيرة غيرها . ويقال إن صقلية ثمانون فرسخاً فى ثمانين . وهى ملك سلطان مصر . وتغادرها ، كل سـنة ، سفينة تحمل المال إلى مصر . ويجلبون منها كتانا رقيقاً وثيابا منقوشة ، يساوى الثوب منها ، فى مصر ، عشرة دنانير مغربية .

وإذا سار السائر من مصر شرقا يبلغ بحر القلزم . والقلزم مدينة على شاطئ البحر بينها وبين مصر ثلاثون فرسخاً . وهذا البحر فرع من المحيط ، يتفرع عند عدن ويتجه نحو الشمال ، فإذا بلغ القلزم انقطع ، ويقال إن عرضه مائتا فرسخ . ويفصله عن مصر جبال وصحراء لا ماء فيها ولا نبات .

ومن يريد الذهاب إلى مكة ، من مصر ، يلزمه الاتجاه نحو الشرق ، فإذا بلغ القلزم وجد طريقين ، أحدهما برى والآخر بحرى . وهو يبلغ مكة عن الطريق الأول فى خمسة عشر يوما ، فى صحراء طولها ثلاثمائة فرسخ ، وتذهب عن هذا الطريق معظم القوافل الآتية من مصر . فإذا سار عن طريق البحر يبلغ الجار فى عشرين يوما ، وهى مدينة صغيرة من الحجاز تقع على شاطئ البحر . ومنها إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام . ومن المدينة إلى مكة مائة فرسخ .

فإذا جاوز الجار، وواصل السير فى البحر، بلغ ساحل اليمن، ومن هناك إلى ساحل عدن. فإذا جاوزه ينتهى إلى الهند وهكذا حتى الصين. وإذا سار من عدن إلى الجنوب، مائلا نحو الغرب فإنه يذهب إلى زنجبار والحبشة وسأشرح ذلك فى مكانه[١].

وإذا سار من مصر إلى الجنوب، وجاوز ولاية النوبة، بلغ ولاية المصامدة، وهى أرض ذات مراع واسعة وفيها دواب كثيرة، وسكانها سود، كبار العظام، غلاظ، أقوياء البنية. ويكثر الجند منهم فى مصر. وهم قباح الصورة، ضخام الجثة، يسمون المصامدة، يحاربون راجلين بالسيف والحربة؛ ولا يستطيعون استعمال غيرهما من الآلات.

وصف مدينة القاهرة:

أول مدينة يصل إليها المسافر من الشام إلى مصر هى القاهرة. وتقع مدينة مصر جنوبها. وتسمى القاهرة «المعزية»، ويقال للمعسكر «الفسطاط». يروى أن أحد أبناء أمير المؤمنين الحسين بن على صلوات الله عليهم أجمعين، وهو المعز لدين الله استولى على بلاد المغرب حتى الأندلس، ثم سير جيشاً نحو مصر. وكان لا بدّ لهذا الجيش أن يعبر النيل، وهذا أمر غير مستطاع، أولا لأن النيل عظيم الاتساع، وثانيا لأنه مملوء بالتماسيح التى تجذب إلى قاعه فى الحال كل من يعبر. ويقال إنه فى الطريق قرب مدينة مصر طلسم يحمى الإنسان والدواب من هذا الشر. ولكن أثره يبطل على مسافة رمية سهم من المدينة فلا يجرؤ أحد أن يقترب من النيل[٢]. قيل إن المعز أرسل جيشه، فنزل حيث القاهرة اليوم. وقد أمر جنوده قائلا «حين تصلون إلى النيل ينزل الماء أمامكم كلب أسود فيعبر النهر، فاتبعوه واعبروا آمنين[٣]». قيل وقد بلغ هذا المكان ثلاثون ألف

---

(١) هذه الجملة معناها أن الكتاب الذى بأيدينا مختصر عن نص أطول، لأنه لم يرد فيه وصف لزنجبار أو الحبشة. أو أن المؤلف أراد أن يكتب عنها ثم لم يكتب.

(٢) وفى نيل مصر مواضع لا يضر فيها التمساح كعدوة بوصير والفسطاط. صورة الأرض لأبى القاسم ابن حوقل النصيبى. ليدن ١٩٣٨. ص ١٦٠.

(٣) يذكر التغربردى فى كتابة «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» (ج ٤ ص ٣٠. طبع دار الكتب المصرية) أن جوهرا أخذ مخاضة منية شلقان (شرقى القناطر الخيرية مركز قليوب)، فوصل إليه طائفة من العسكر فى مراكب فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح (من قواد المعز المشهورين، ظل واليا على دمشق إلى سنة ٣٦٠ إذ قتله الحسن بن أحمد القرمطى، المعروف بالأعصم — راجع فى =

فارس ، كلهم خدم المعز . وقد انطلق الكلاب سابحا أمامهم ، وساروا على أثره ، وعبروا من غير حادث . ولم يقل أحد قط أن فارسا عبر نهر النيل راكبا . وكانت هذه الحادثة سنة ثلاث وستين وثلثمائة (٩٧٣) . وقد حضر السلطان إلى مصر عن طريق البحر . فأفرغت السفن التى حضر بها ، قرب القاهرة ، وأخرجت من الماء ، وتركت كأنها أشياء لا غَناء فيها . وقد رأى راوى هذه القصة (ناصر خسرو) تلك السفن وهى سبع ، طول الواحدة مائة وخمسون ذراعا وعرضها سبعون . وقد مضى عليها هناك ثمانون سنة . وكان ذلك سنة إحدى وأربعين وأربعمائة (١٠٤٦) . حين بلغ الراوى هذا المكان .

وحين دخل المعز لدين الله مصر ، تقدم له بالطاعة قائد الجيش ، الذى ولاه خليفة بغداد . ونزل المعز بالجيش فى هذا الموضع الذى هو القاهرة اليوم . وقد سمى المعسكر بالقاهرة ، لأن ذلك الجيش كان قاهراً[١] . وقد أمر المعز بأن لا يتجول أحد من جيشه فى المدينة أو يدخل بيت أحد . ثم أمر أن تبنى مصر فى هذه الصحراء وأن يشيد كل من أفراد حاشيته بيتا ، وهكذا بنيت المدينة التى قل نظيرها[٢] .

= ترجمته تاريخ ابن خلكان ج ١ ص ١٥٨ طبع بولاق —) : « لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله » ، فعبر عريانا فى سراويل وهو فى موكب ومعه الرجال خوضاً ، والتقى مع المصريين ، ووقع القتال بينهم ، وثبت كل من الفريقين ، فقتل كثير من الإخشيدية وانهزم الباقون بعد قتال شديد .

(١) اختلفت الروايات فى سبب هذه التسمية ، وقد ذكر التغربردى فى النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٤١) بعض هذه الروايات . والرواية التى يرجحها هى ماقيل من أن جوهرا حين دخل مصر بعسكر عظيم ، وملكها ، وجدها لا تتسع للجند والناس ، فاختط سور القاهرة وبنى بها القصور ، وسماها المنصورية ، وذلك فى سنة ٩٦٨/٣٥٨ . فلما قدم المعز العبيدى من القيروان (٩٧٢/٣٦٢) غير اسمها وسماها القاهرة . قال والسبب فى ذلك أن جوهراً لما قصد إقامة السور وبناء القاهرة جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس ، وطالعاً لرمى حجارته ، فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ، وبين القائمة والقائمة حبل فيه أجراس ، وأفهموا البنائين ساعة تحريك الأجراس أن يرموا ما فى أيديهم من المون والحجارة ، ووقف المنجمون لتحرير هذه الساعة وأخذ الطالع ، فاتفق وقوف غراب على خشبة من تلك الخشب ، فتحركت الأجراس ، وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة فى الأساس ، فصاح المنجمون : لا ، لا . القاهر فى الطالع ! ... وكان غرض جوهر أن يختاروا للبناء طالعا لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً ، فوقع أن المريخ كان فى الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر ... فلما قدم المعز إليها وأخبر بهذه القصة ، وكان له خبرة بالنجامة ، وافقهم على ذلك ؛ فغير اسمها وسماها القاهرة .

وقيل أيضاً إن سبب هذه التسمية وجود قبة فى قصر بالمدينة تسمى القاهرة ، فسميت بها .

وقد رجع التغربردى إلى كتابى المقريزى : اتعاظ الحنفا والخطط .

(٢) ولما نزل جوهر القائد اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها ، فزويلة بنت البابين المعروفين ببابى =

وقدرت أن فى القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان ، كلها ملك للسلطان ، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية فى الشهر ، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين . والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ، وكلها ملك السلطان ، إذ ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتا غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه ، وسمعت أن للسلطان ثمانية ألف بيت فى القاهرة ومصر ، وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر . يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجبر شخص على شىء .

ويقع قصر السلطان فى وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ، ولا يتصل به أى بناء . وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساويا لمدينة ميافارقين[1] ، وكل ماحوله فضاء ، ويحرسه كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس . وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل والكوس من وقت صلاة المغرب ويدورن حول القصر حتى الصباح . ويبدو هذا القصر ، من خارج المدينة ، كأنه جبل ، لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة . وهو لا يرى من داخل المدينة ، لارتفاع أسواره . وقيل إن به إثنى عشر ألف خادم مأجور ، ومن يعرف عدد من فيه من النساء والجوارى ؟ إلا أنه يقال إن به ثلاثين ألف آدمى[2] . وهذا القصر يتكون من إثنى عشر بناء . وله عشرة أبواب فوق الأرض . فضلا عن أبواب أخرى تحتها ، وأسماء أبوابه الظاهرة هى : باب الذهب ، باب البحر ، باب السريج ، باب الزهومة ، باب السلام ، باب الزبرجد ، باب العيد ، باب الفتوح ،

= زويلة ، وهما البابان اللذان عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين ، وهما بابا القاهرة ، وهكذا . . النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٧

(١) قصر السلطان يطلق على مجموعة من القصور منها القصر الصغير الغربى ، والقصر اليافعى ، وقصر الذهب ، وقصر الأفيال ، وقصر الظفر ، وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الزمرد ، وقصر الحريم ، وقصر البحر (المحول) ، وهى كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير الشرقى ، ويقال لها القصور الزاهرة . كان هذا القصر فى الجهه الشرقية من القاهرة ، وقد أمر ببنائه المعز لدين الله (٣٤١ — ٩٥٢/٣٦٥ — ٩٧٥) ونفذ الأمر قائده جوهر الصقلى ، ولذا فإنه يسمى القصر المعزى ، وكان ابتداء بنائه مع وضع أساس سور القاهرة سنة ٩٦٨/٣٥٨ وفى سنة ٩٦٩/٣٥٩ ركب عليه بابين وفى سنة ٣٦٠ / ٩٧٠ أدار عليه سورا محيطا به . وهذا القصر كان دار الخلافة وبه سكن الخلفاء الفاطميون إلى آخر أيامهم (المقريزى ج ٢ ص ٢١٤) .

(٢) عند ما استولى صلاح الدين الأيوبى على هذ القصر ، أخرج من كانوا فيه ، فبلغ عددهم اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وأولاده ، (المقريزى ج ٢ ص ٢١٥) .

باب الزلاقة ، باب السرية[١] ، وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكباً ، وهذا الباب على سرداب يؤدى إلى قصر آخر خارج المدينة . ولهذا السرداب الذى يصل بين القصرين سقف محكم ، وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول إنها قدت من صخر واحد . ويتألف القصر من المناظر والإيوانات العالية . وفى داخله دهليز به دكك .

وأركان الدولة ، والخدم ، من العبيد السود أو الروم . والوزير رجل يمتاز عن الجميع بالزهد والورع والأمانة والصدق والعقل .

ولم يكن شرب الخمر مباحا ، أعنى أيام الحاكم الذى حرم على النساء الخروج من بيوتهن . وما كان أحد يجفف العنب فى بيته لجواز عمل السيكى (نوع من الشراب) منه . ولم يكن أحدهم يجرؤ على شرب الخمر ، ولا كانوا يشربون الفقاع ، فقد قيل إنه مسكر ، فهو محرم .

وللقاهرة خمسة أبواب : باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة ، وباب الزويلة ، وباب الخليج ، وليس المدينة قلعة ، ولكن أبنيتها أقوى وأكثر ارتفاعا من القلعة ، وكل قصر حصن . ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات .

ويجلب ماء الشرب من النيل ، ينقله السقاءون على الجمال . والآبار القريبة من النيل عذب ماؤها ، وأما البعيدة عنه فماؤها ملح . ويقال إن فى القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاءون الروايا ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره فى الجرار النحاسية أو القرب ، وذلك فى الحارات الضيقة التى لا تسير فيها الجمال .

---

(١) ذكر المقريزى والتغربردى بعض هذه الأسماء ، مع اختلاف ، وقد صحح ناشر التغربردى (ج ٤ ص ٣٦ ملحوظة ٤) باب السرية بباب التربة ، وقال إنه يعرف بباب تربة الزعفران كما جاء فى خطط المقريزى ، وعندى أن تسمية ناصر ، لكونه أقدم ، أقرب إلى الصحة . وأما باب السريج فليس مذكورا فى الكتابين المذكورين ، وذكر ناشر النجوم الزاهرة فى ملحوظاته (ص ٤٦ ج ٤) أن الباب التاسع للقصر يسمى باب الريح الذى كان يقع مكان البناء رقم ٢٥ من شارع التمبكشية بجوار جامع جمال الدين (الجامع المعلق) قرب الصاغة ، وأرجح أن تكون كلمة السريج تحريفا لكلمة الريح . فهو باب الريح لا السريج .

وقد ذكر التغربردى (ج ٤ ص ٣٥ — ٤٦) أن من أبواب القصر : باب العيد ، باب الزمرد ، باب الذهب ، باب الزهومة ، باب قصر الشوك .

وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار . وفى قصر السلطان بساتين لا نظير لها ، وقد نصبت السواقى لريها . وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات .

وحين كنت هناك أجر منزل مساحته عشرون ذراعا فى إثنى عشر ذراعا بخمسة عشر ديناراً مغربيا فى الشهر . والمنزل الذى أقمت فيه ، كان أربعة أدوار ، ثلاثة منها مسكونة ، والرابع خال ، وقد عرض على صاحبه خمسة دنانير مغربية كأجرة شهرية ، فرفض معتذراً بأنه يلزمه أن يقيم به أحيانا ، ولو انه لم يحضر مرتين فى السنة التى أقمتها هناك .

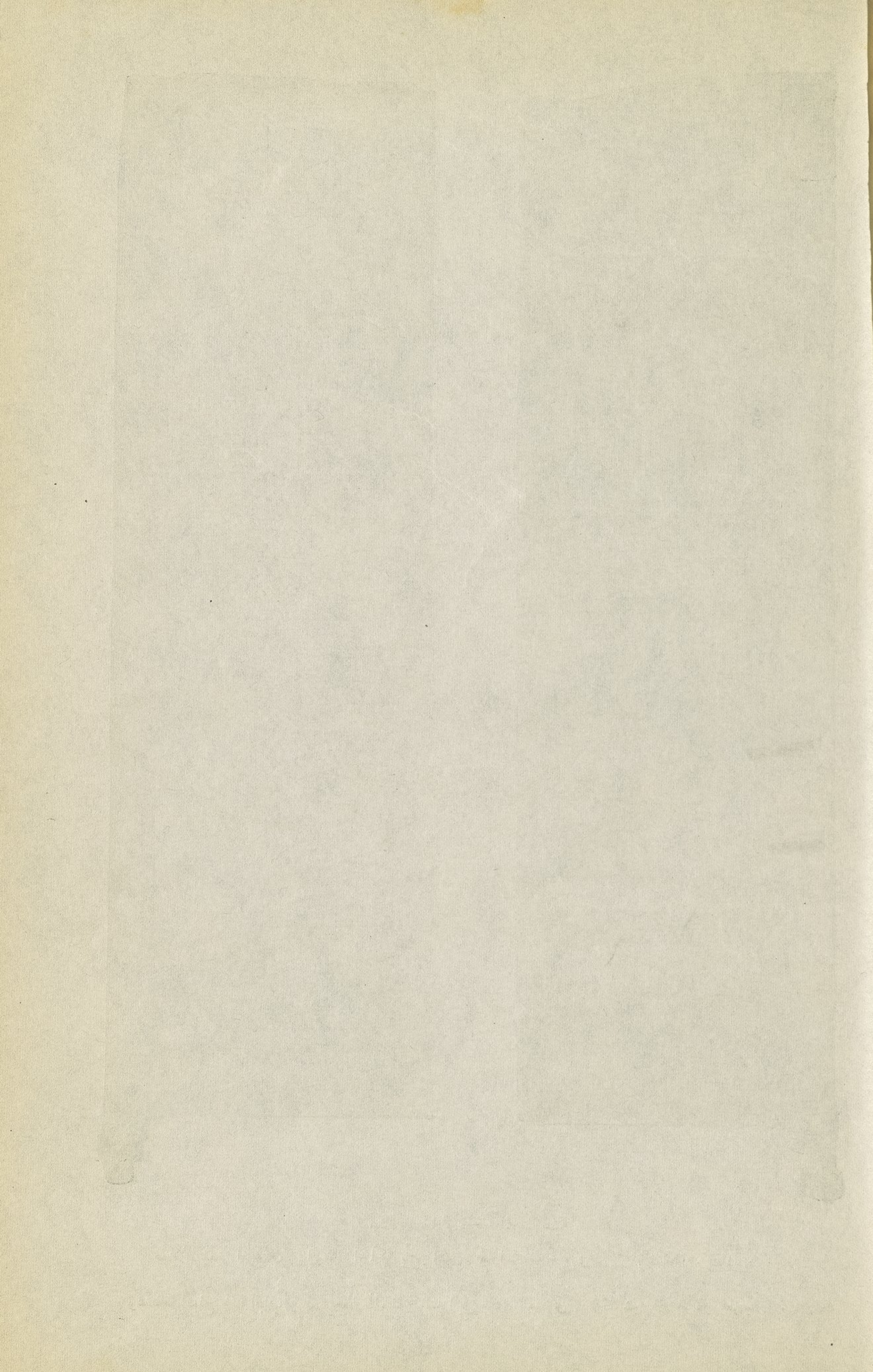
وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول إنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة . وهى بعيدة عن بعضها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت ، من هدم أو إصلاح ، دون أن يضايق جاره[1]

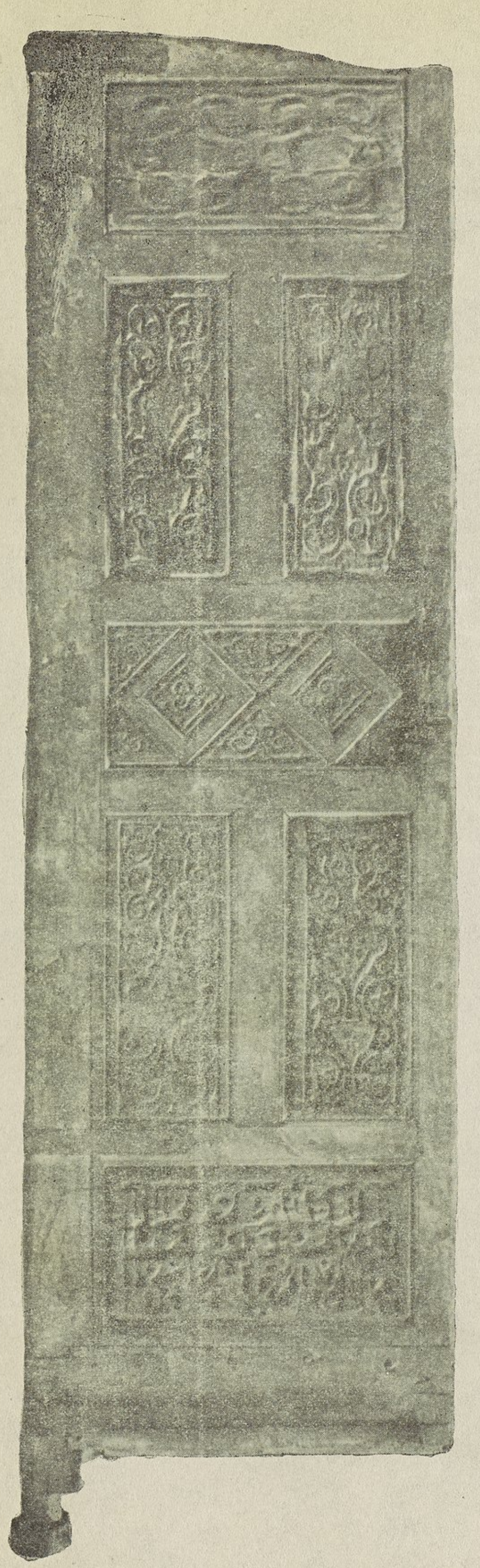
ويرى السائر ، خارج المدينة ، ناحية الغرب ، ترعة كبيرة تسمى «الخليج» . حفرها والد السلطان . وله على شاطئيها ثلاثمائة قرية . ويبتدئ « فم الخليج » من مدينة مصر ويمر بالقاهرة ويدور بها مارا أمام قصر السلطان . وقد شيد على رأسه قصران ، أولهما « قصر اللؤلؤة » ، وثانيهما « قصر الجوهرة[2] » .

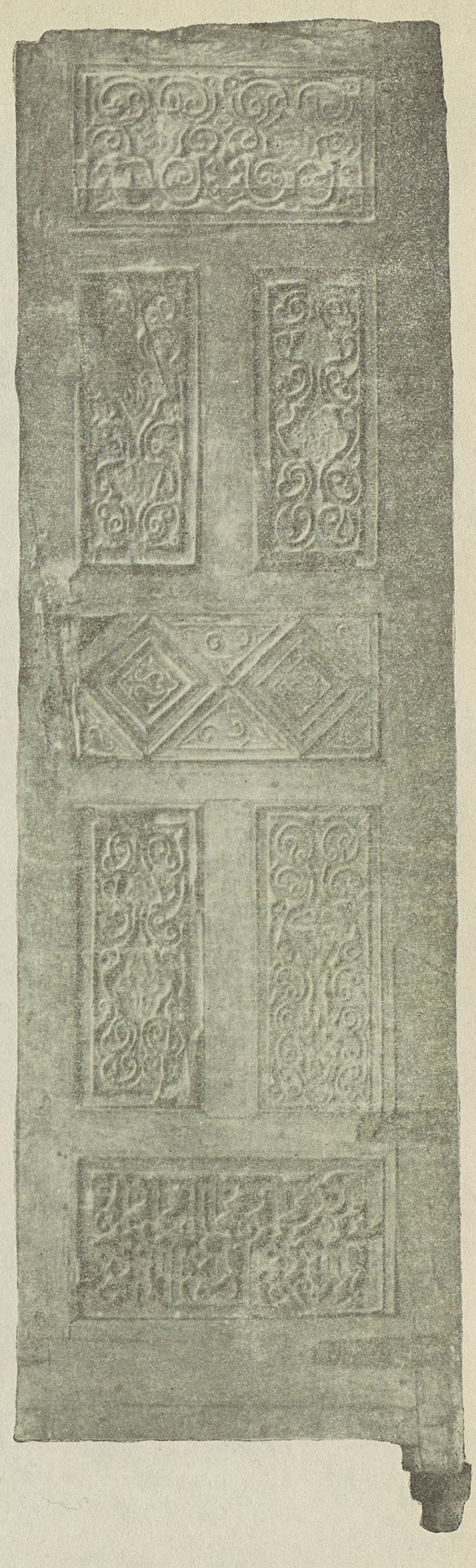
---

(١) والقاهرة استحدثها جوهر لجيشه وشمله وحاشيته وقد ضمت من المحال والأسواق وحوت من أسباب القنية والارتفاق بالحمامات والفنادق إلى قصور مشيدة ونعم عتيدة وقد أحدق بها سور رفيع يزيد على ثلثة أضعاف مابنى بها . صورة الأرض لأبى القاسم بن حوقل النصيبي . ليدن ١٩٣٨ ص ١٤٧

(٢) منظرة اللؤلؤة وتعرف أيضا بقصر اللؤلؤة ، تقع قرب باب القنطرة وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد متنزهات الدنيا المذكورة ، فإنه كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ويطل من غربيه على الخليج ، وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيه من المبانى شىء ، وإنما كان فيه بساتين عظيمة وبركة تعرف ببطن البقرة ، فيرى الجالس فى قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبليها ، ويرى بحر النيل من وراء البساتين . قال ابن ميسر :
هذه المنظرة بناها العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٥/ ٩٧٥ — ٩٩٦) ، ولما ولى برجوان (الأستاذ أبو الفتوح برجوان الصقلبي ، كان عبدا أسود من عبيد العزيز بالله وولى الوزارة أيام الحاكم وظل بها إلى أن قتل سنة ٩٩٩/٣٩٠) وزارة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١/ ٩٩٦ — ١٠٢٠) سكن =







باب جامع الحاكم — مكتوب عليه :

مولانا أمير المؤمنين الامام الحاكم بأمر الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه

وعندما أصلح هذا الباب رُكِّب خطأً فجاءت ضلفته اليمنى مكان اليسرى . (كليشيه دار الآثار العربية) .

وفى القاهرة أربعة جوامع (مساجد جمعة) ، الأزهر وجامع النور وجامع الحاكم وجامع المعز . والأخير خارج القاهرة على شاطىء النيل .

ويتوجه المصريون نحو مطلع الحمل حين يولون وجوههم شطر القبلة .

وبين مدينتى مصر والقاهرة أقل من ميل ، والأولى فى الجنوب والثانية فى الشمال . ويمر النيل بهما ، وبساتينهما وبيوتهما متصلة وتغمر المياه الوادى بأجمعه فى الصيف كأنه بحر ، عدا حديقة السلطان لأنها على مرتفع .

وصف فتح الخليج :

حين يبلغ النيل الوفاء ، أى من العاشر شهريور (أغسطس وسبتمبر) إلى العشرين من آبان (اكتوبر ونوفمبر) ، ويبلغ ارتفاع الماء عشرين ذراعا عن مستواه فى الشتاء ، وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة فى البلاد كلها ، يحضر السلطان راكبا ليفتح هذا النهر الذى يسمى «الخليج» ، والذى يبدأ قبل مدينة مصر ثم يمر بالقاهرة .

= بمنظرة اللؤلؤة إلى أن قتل ، وفى سنة ١٠١١/٤٠٢ أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها وبيع مافيها . وفى أيام الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ — ١٠٢٠/٤٢٧ — ١٠٣٦) أعيد بناء اللؤلؤة ، وكانت عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل . وقد أقام بهذا القصر نجم الدين والد صلاح الدين بعد وفاة العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين (٥٥٥ — ١١٦٠/٥٦٧ — ١١٧١) ، وقد اجتمع بهذا القصر فى ذلك الوقت ، الشاعران الفقيه نجم الدين عمارة اليمنى وأبو سالم يحيى بن حصيبة فأنشد الأخير نجم الدين قائلا :

يا مالك الأرض لا أرضى له طرفا	منها وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجل الله هذى الدار تسكنها	وقد أعد لك الجنات والغرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنها	فالبس بها العز ولتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدفا والدار لؤلؤة	وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

فغضب الفقيه نجم الدين مما فى هذا الشعر من عدم الوفاء وقال :

أثمت يا من هجا السادات والخلفا	وقلت ما قلته فى ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤة	والعرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وإنما هى دار حل جوهرهم	فيها وشف فأسناها الذى وصفا
فقال لؤلؤة عجبا ببهجتها	وكونها حوت الأشراف والشرفا
فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوا	فيها ومن قبلهم قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه	من البرية إلا كل من عرفا

وقد قتل هذا الشاعر الوفى بعد ذلك ، لأنه أبى أن يغير عقيدته عندما تغيرت الدول . (المقريزى طبع المليجى ج ٢ ، ص ٣٤٨ والنجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤٦) .

وهو ملك خاص للسلطان . وفى ذلك اليوم (يوم ركوب السلطان لفتح الخليج) تفتح الخلجان والترع الأخرى فى الولايات كلها .

وهذا اليوم من أعظم الأعياد فى مصر ، ويسمى « عيد ركوب فتح الخليج » .

حينما يقترب هذا الموسم ، يُنصب للسلطان على رأس الخليج سرادق عظيم التكاليف من الديباج الرومى ، وموشى كله بالذهب ، ومكلل بالجواهر ، ومعد أعظم إعداد ؛ وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس . وأمام هذا السرادق خيمة من البوقلمون وسرادق آخر كبير .

وقبل الاحتفال بثلاثة أيام يدقون الطبل وينفخون البوق ويضربون الكوس فى الاصطبل ، لتألف الخيل هذه الأصوات .

ويسير فى ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبة ، وأطواق وألجمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلمون ، نسجت لهذا الغرض خاصة ، فلم تفصل ولم تُخط ، وطرزت حواشيها باسم سلطان مصر ، وعلى كل حصان درع أو جوشن . وعلى قمة السرج خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى . وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هوادج مزينة ، وبغال عماريات‍ها (هوادجها) كلها مرصعة بالذهب والجواهر ، وموشاة باللؤلؤ ، وإن الكلام ليطول إذا ذكرت كل ما يكون فى يوم فتح الخليج .

فى ذلك اليوم ، يخرج جيش السلطان كله ، فرقة فرقة ، وفوجا فوجا ، ولكل جماعة اسم وكنية .

فرقة تسمى « الكتاميين » . وهم من القيروان ، أتوا فى خدمة المعز لدين الله . وقيل إنهم عشرون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الباطليين » . وهم رجال من المغرب ، دخلوا مصر قبل مجىء السلطان إليها . وقيل إنهم خمسة عشر ألف فارس .

وفرقة تسمى « المصامدة » . وهم سود من بلاد المصامدة ، قيل إنهم عشرون ألف رجل .

وفرقة تسمى « المشارقة » . وهم ترك وعجم . وسبب هذه التسمية أن أصلهم ليس عربياً ،

ولو أن معظمهم ولد فى مصر ، وقد اشتق اسمهم من الأصل ، قيل إنهم عشرة آلاف رجل ، وهم ضخام الجثة .

وفرقة تسمى « عبيد الشراء » . وهم عبيد مشترون ، قيل إنهم ثلاثون ألف رجل .

وفرقة تسمى « البدو » . وهم من أهل الحجاز ، وكلهم يجيدون حرب الرماح ، قيل إنهم خمسون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الأستاذين » . كلهم خدم بيض وسود ، اشتروا للخدمة ، وهم ثلاثون ألف فارس .

وفرقة تسمى « السرائيين » . وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ، ولهم قائد خاص ، يتولى رعايتهم ، وكل منهم يستعمل سلاح ولايته ، وعددهم عشرة آلاف رجل .

وفرقة تسمى « الزنوج » يحاربون بالسيف وحده . قيل إنهم ثلاثون الف رجل .

ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال . ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ، وتصرف أرزاق الجند من الخزانة فى وقت معين ، بحيث لا يرهق وال أو واحد من الرعية بمطالبة الجند[1] .

وهناك فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاءوا لمصر من أطراف العالم ، ولا يعدون من الجيش . ومن بين هؤلاء أولاد خسرو دهلى ، وقد أتت أمهم معهم ، وأولاد ملوك الكرج (جورجيا) ، وأبناء ملوك الديلم ، وأبناء خاقان تركستان[2] .

وكذلك وجد فى يوم فتح الخليج طبقات أخرى من الرجال من ذوى الفضل والأدباء والشعراء والفقهاء ولكل منهم أرزاق معينة . ولا يقل رزق الواحد من أبناء الأمراء عن

---

(١) يقول القلقشندى فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤٧٨) فى كلامه عن طوائف الأجناد : «وكانوا عدة كثيرة ، تنسب كل طائفة منهم إلى من بقى من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم ، كالحافظية والآمرية من بقايا الحافظ والآمر ، أو إلى من بقى من بقايا وزير من الوزراء الماضين كالجيوشية والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالى وولده الأفضل ، أو إلى من هى منتسبة إليه فى الوقت الحاضر كالوزيرية ، أو غير ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والأكراد والغز والديلم والمصامدة ، أو من المستصنعين كالروم والفرنج والصقالبة ، أو من السودان من عبيد الشراء ، أو العتقاء وغيرهم من الطوائف ، ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم » .

(٢) من هذا نتبين البعثات التى كانت تفد على مصر للتوسع فى معرفة المذهب الفاطمى .

خمسمائة دينار وقد يبلغ الألفين ، وليس لهم عمل إلا أن يذهبوا ليسلموا على الوزير حين يركب ثم يعودون .

والآن نعود إلى حديث فتح الخليج .

فى اليوم الذى ذهب السلطان فى صباحه لفتح الخليج ، استأجروا عشرة آلاف رجل أمسك كل واحد منهم إحدى الجنائب التى ذكرتها ، وساروا مائة مائة ، وأمامهم الموسيقيون ينفخون البوق ويضربون الطبل والمزمار . وسار خلفهم فوج من الجيش . مشى هؤلاء من قصر السلطان حتى رأس الخليج ، ثم رجعوا . وقد أعطى كل أجير قاد جنيبة ثلاثة دراهم . وبعد الخيول ، أتت الجمال وعليها المهود والمراقد ، ومن بعدها البغال وعليها العماريات .

وقد ابتعد السلطان عن الجيش والجنائب ، وهو شاب كامل الجسم ، طاهر الصورة من أبناء أمير المؤمنين حسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهما . كان حليق شعر الرأس ، يركب على بغل ليس فى سرجه أو لجامه حلية ، فليس عليه ذهب أو فضة . وقد ارتدى قميصا أبيض ، عليه « فوطة » فضفاضة ، كالتى تلبس فى بلاد المغرب[1] ، والتى تسمى فى بلاد العجم « دراعة » ، وقيل إن اسم هذا القميص « الدبيقى[2] » ، وإنه يساوى عشرة آلاف دينار . وكان على رأسه عمامة من لونه ، ويمسك بيده سوطا ثمينا . وأمامه ثلثمائة راجل ديلمى ، عليهم ثياب رومية مذهبة . وقد حزموا خصورهم ، وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر . ومعهم النشاشيب والسهام ، وقد عصبوا سيقانهم .

ويسير مع السلطان حامل المظلة ، راكبا حصانا ، وعلى رأسه عمامة مذهبة مرصعة ، وعليه حلة قيمتها عشرة آلاف دينار ذهبى مغربى . والمظلة التى بيده ثمينة جدا ، وهى مرصعة ومكللة . وليس مع السلطان فارس غير حامل المظلة[3] . وقد سار أمامه الديالمة ،

---

(١) يقصد ما يلبس فى بلاد المغرب ويسمى الحرام ، والنص الفارسى يقول « العرب » وهو خطأ مطبعى ظاهر .

(٢) لعله يقصد « الدبيقى » وهو نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التى كانت تصنع فى دبيق ، وهى بلدة بمصر قديمة وكانت واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس وموضعها اليوم تل دبيق فى الشمال الشرقى لقرية صان الحجر . تعليقات النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٨١ .

(٣) والمظلة التى تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه هى قبة على هيئة خيمة على رأس عمود كالمظلة =

وعلى يمينه ويساره جماعة من الخدم ، يحملون المجامر ويحرقون العنبر والعود .

والعادة فى مصر أن يسجد الرجال للسلطان وأن يدعوا له كلما قرب منهم .

وجاء بعد السلطان الوزير مع قاضى القضاة وفوج كبير من أهل العلم وأركان الدولة . وقد ذهب السلطان إلى حيث ضرب الشراع على رأس سد الخليج أى فم النهر . وظل ممتطيا البغل تحت السرادق مدة ساعة ، و بعد ذلك سلموه مزراقا ليضرب به السد . ثم عجل الرجال بهدمه بالمعاول والفؤوس والمخارف ، فانساب الماء ، وقد كان مرتفعاً ، وجرى دفعة واحدة فى الخليج .

وفى هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج ، وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة .

وكان فى أول سفينة نزلت الخليج جماعة من الخرس يسمون بالفارسية « كنك ولال » ، لعلهم يتفاءلون بنزولهم . ويجرى السلطان عليهم صدقاته فى هذا اليوم

وكان للسلطان إحدى وعشرون سفينة ، وقد عمل لها حوض خاص قرب القصر ، فى اتساع ميدانين أوثلاثة ، وطول كل سفينة منها خمسون ذراعا وعرضها عشرون ذراعا ، وكلها مزينة بالذهب والفضة والجواهر والديباج ، ولو وصفتها لسطرت أوراقا كثيرة . وهذه السفن كلها مربوطة فى الحوض ، معظم الوقت ، كالبغال فى الاصطبل .

* * *

وللسلطان حديقة تسمى « حديقة عين شمس » ، على فرسخين من القاهرة . وهناك عين ماء عذبة سمى البستان بها . ويقال إن هذه الحديقة كانت لفرعون . وقد رأيت قربها بناية قديمة بها أربع قطع من الحجارة الكبيرة ، كل قطعة مثل المنارة ، وطول

= التى يركب بها السلطان الآن ، وكانت إثنى عشر شوزكا عرض سفل كل شوزك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلث ، وآخره من أعلاه دقيق للغاية ، بحيث يجتمع الإثنا عشر شوزكا فى رأس عمود بدائرة وعمودها قنطارية من الزان ملبسة بأنابيب الذهب ، وفى آخر أنبوبة ثانى رأس العمود فلكة بارزة مقدار عرض إبهام تشد آخر الشوازك فى حلقة من ذهب ، وتنزل رأس الرمح . ولها عندهم مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفه ، وحاملها من أكبر الأمراء ، وله عندهم التقدم والرفعة ، لحمل ما يعلو رأس الخليفة .

صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٩ ، ٤٧٩ (طبعة دار الكتب الملكية)

كل منها ثلاثون ذراعا ، وكان الماء يقطر من رؤوسها ، ولا يدرى أحد ما هى[1] ؟ وفى الحديقة شجرة البلسان[2] ، يقال إن آباء هذا السلطان أتوا ببذرتها من بلاد المغرب وزرعوها فى الحديقة ولا يوجد غيرها فى جميع الآفاق . وهى غير معروفة فى بلاد المغرب . ومع أن لهذه الشجرة حبا إلا أنه لا ينبت حيثما زرع ، وإذا نبت فلا يخرج الزيت منه ، وهذه الشجرة مثل شجرة الآس ، يشذبون غصونها بالنصل حينما تكبر ، ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع فيخرج منه الدهن كالصمغ ، وحين ينفذ ما فيها من دهن تجف . ويحمل البستانيون غصونها إلى المدينة ويبيعونها ، ولحاؤها ثخين ، وطعمه كاللوز حين يقشر . وينبت فى جزعها أغصان فى السنة التالية فيعملون بها كما فعلوا فى السنة الغابرة .

***

---

(١) يقول عبد اللطيف البغدادى فى رحلته بمصر (٤١ طبع المجلة الجديدة) : وفى عين شمس المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتى فرعون . . ورأيت إحدى المسلتين وقد خرت وانصدعت من نصفها لعظم الثقل وأخذ النحاس من رأسها (فقد كان على رأس كل مسلة قلنسوة نحاس إلى ثلاثة أذرع منها كالقمع) ثم إن حولها من المسال شيئاً كثيرا .

(٢) « وبعين شمس إلى ناحية الفسطاط نبت يزرع كالقضبان يسمى البلسم يتخذ منه دهن البلسان لا يعرف بمكان من الأرض إلا هناك ويؤكل لحاء هذه القضبان فيكون له طعم صالح وفيه حرارة وحروفة لذيذة » . كتاب صورة الأرض لأبى القاسم بن حوقل النصيبى طبع ليدن سنة ١٩٣٨ ص ١٦٠ — ١٦١

وذكر عبد اللطيف البغدادى فى كتابه ص ٢٢ إن البلسان من مصر « وإنه لا يوجد اليوم إلا بها ، بعين شمس ، فى موضع محاط عليه ، محتفظ به ، مساحته نحو سبعة أفدنة وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك ، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين وإذا مضغ ظهر فى الفم منه دهنية ورائحة عطرة وورقه شبيه بورق السنداب ، ويجتنى دهنه عند طلوع الشعرى بأن تشدخ السوق بعد ما يحت عنها جميع ورقها . وشدخها يكون بحجر يتخذ محددا ، ويفتقر شدخها إلى صناعة ، بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل ، شقا لا ينفذ إلى الخشب ، فإن نفذ إلى الخشب لم يخرج منه شىء ، فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود فيجمعه بأصبعه مسحا إلى قرن فإذا امتلأ صبه فى قنانى زجاج ، ولا يزال كذلك حتى ينتهى جناه وينقطع لثاه ، وكلما كثر الندى فى الجو كان لثاه أكثر وأغزر ، وفى الجدب وقلة الندى يكون اللثا أنزر . ومقدار ما أخرج منه فى سنة ٥٩٦/١١٧٣ وهى عام جدب نيف وعشرون رطلا . ثم تؤخذ القنانى فتدفن إلى القيظ ، وحمارة الحر ، وتخرج من الدفن ، وتجعل فى الشمس ، ثم تتفقد كل يوم ، فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية ، فيقطف الدهن ، ثم يعاد إلى الشمس ، ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن ، فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه فى الخفية لا يطلع على طبخه أحدا ثم يرفعه إلى خزانة الملك . . . ورأيت جالينوس يقول إن أجود دهن البلسان ما كان بأرض فلسطين وأضعفه ما كان بمصر . ولا نجد اليوم منه بفلسطين شيئا البتة » .

ولمدينة القاهرة عشر محلات وهم يسمون المحلة حارة وهى حارات : برجوان[١] وزويله[٢] والجودرية[٣] والأمراء[٤] والديالمة[٥] والروم[٦] والباطلية[٧] وقصر الشوق[٨] وعبيد الشرا[٩] والمصامدة[١٠] .

---

(١) تنسب إلى الخادم بَرْجوان ، من خدم القصر أيام العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦/٩٧٥ = ٩٩٦) وكان لبرجوان هذا شأن فى أيام الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١/٩٦٦ — ١٠٢٠) ولقب بالواسطة ومدبر الدولة . وكان يتولى أمور مصر والشام والحجاز والمغرب . وأمر الحاكم أبا الفضل ريدان بأن يقتله فقتله سنة ٣٩٠/ ١٠٠٠ . وتقع هذه الحارة اليوم فى قسم الجمالية .

راجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٨ وشيفر ص ١٤٤ .

(٢) زويلة اسم ضاحية فى القيروان كما أنه اسم بلدة صغيرة بجوار المهدية التى بناها عبد الله المهدى (٢٩٧ — ٣٢٢/٩٠٩ — ٩٣٣) وقد سمى المكان باسم القبيلة التى سكنته . وقد سكن أفراد هذه القبيلة حارة سميت باسمهم — زويلة — فى مصر ، كانت أكبر حاراتها . وتعرف اليوم باسم حارة اليهود (شارع الموسكى) . النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥٢

(٣) تنسب إلى جماعة ينسبون إلى جودر خادم المهدى ، كان عددهم ٤٠٠ ، وتقع فى دائرة قسم الدرب الأحمر . النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥١ .

(٤) غير اسمها أيام صلاح الدين ، حين سكنها الملك المعظم توران شاه ، بعد مجيئه من الشام ، وسميت درب شمس الدولة ، نسبة إليه . وتقع بين شارع السكة الجديدة و شارع الحمزاوى الصغير . النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥٢ ، وشيفر ص ١٤٤ .

(٥) تنسب إلى ساكنيها من الديلم الذين صحبوا افتكين المعزى غلام معز الدولة البويهى (٣٤٤ — ٣٦٥/٩٥٥ — ٩٧٥) حين قدم أولاده إلى القاهرة . وكانت كبيرة ، تشمل ثلاث حارات ، حارة الكحكيين ، ودرب الأتراك ، وخوش قدم ، حيث يوجد للآن زقاق مشهور بحبس الديلم . وكذلك سكن حارة الديلم جماعة من الأمراء والأعيان فأطلق عليها اسم حارة الأمراء . النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤٣ ورجع الناشر إلى الخطط التوفيقية ج ٢ ص ٢٧ — ٢٨ .

(٦) وهى حارتان ، حارة الروم المشهورة اليوم والتى تقع فى قسم الدرب الأحمر ، وحارة الروم الجوانية تنسب للأشراف الجوانيين ، وهى تقع فى قسم الجمالية والوراقون يكتبون حارة الروم السفلى ، وحارة الروم العليا . وعند ما غضب الحاكم بأمر الله على الروم أمر بنهب الحارتين وهدمهما (١٧ ذى الحجة ٣٩٩/ ١٠ اغسطس ١٠٠٩) ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤٢ وشيفر ص ١٤٥ .

(٧) تقع فى الجنوب الشرقى للجامع الأزهر ، ويدل على موضعها شارع الباطنية . قال التغربردى (النجوم ج ٤ ص ٤٦) إن المعز لدين الله العبيدى لما قسم العطاء فى الناس ، جاءت إليه طائفة فسألت العطاء فقيل : فرغ المال . فقالوا : رحنا نحن بالباطل ، فسموا الباطلية وعرفت الحارة بهم .

(٨) يعرف بهذا الاسم شارع قرب أم الغلام بسيدنا الحسين . وهو فى الأصل قصر بناه الفاطميون فى تلك الجهة .

(٩) يظهر أن هذه كانت إحدى حارات حى الحسينية ، نسبة إلى الأشراف الحسينيين ، وهى حارة حامد والمنشية الكبرى والمنشية الصغرى والحارة الكبيرة والحارة الوسطى التى كانت هى لعبيد الشراء والوزيرية والسوق الكبير وبين الحارتين . وعبيد الشراء فرقة فى الجيش . النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٥ — ٤٦

(١٠) المصامدة فرقة مهمة فى الجيش المصرى أيام الفاطميين ، قال ناصر إن عددهم كان عشرين ألف رجل . وقد سكنوا حارة سميت باسمهم قرب بركة الفيل . شيفر ص ١٤٥ .

وصف مدينة مصر :

شيدت مصر على ربوة . وجانبها الشرقى جبلى يتكون من جبال حجرية غير عالية كالتلال . وفى طرف المدينة جامع ابن طولون . وهو مشيد على ربوة وله جداران محكمان ، ولم أر أعظم منهما غير جدار آمد وميافارقين . وقد بناه أمير من أمراء العباسيين كان حاكما على مصر . وفى أيام الحاكم بأمر الله ، جد هـذا السلطان (المستنصر) باعه أحفاد ابن طولون بثلاثين ألف دينار مغربى . وبعـد مدة شرعوا فى هدم المئذنة بحجة أنها لم تبع . فأرسل لهم الحاكم قائلا : « لقد بعتمونى هذا المسجد فـكيف تهدمونه ؟ » فأجابوا : « نحن لم نبع المئذنة » . فأعطاهم خمسة آلاف دينار ثمناً لهـا . وكان السلطان يصلى فى هذا المسجد طوال شهر رمضان ، وأيام الجمع من بقية الشهور .

ومدينة مصر مشيدة على ربوة ، خشية فيضان الماء عليها ، وهذه الربوة كانت مغطاة ، فى وقت ما ، بأحجار كبيرة جداً ، فـكسرت وسويت . ويقال الآن للأماكن التى لم تسوّ « عقبة » . وتبدو مصر كأنها جبل ، حين ينظر إليها من بعيد .

وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات[1] . وسمعت من ثقات أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار ، وحمل إليها عجلا رباه فيها حتى كبر ، ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر . وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرهما . وقد أثمرت كلها ، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى .

وسمعت من تاجر ثقة أن بمصر دوراً كثيرة فيها حجرات للاستغلال أى للإيجار ، ومساحتها ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ، وتسع ثلاثمائة وخمسين شخصاً . وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائماً ، لأن الضوء لا يصل إلى أرضها ، ، ويسير فيها الناس .

---

(١) والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ، ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ، ومتاجر فخام وممالك جسام ، إلى ظاهر أنيق وهواء دقيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام خضرة .

والدار يكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات وربما سكن فى الدار المائتان من الناس . صورة الأرض ص ١٤٦ .

وفى مصر سبعة جوامع ، غير جوامع القاهرة . والمدينتان متصلتان . وفيهما معاً خمسة عشر جامعا (مسجد جمعة) . وذلك لتلقى خطبة الجمعة والصلاة فى كل حى منهما .

وفى وسط سوق مصر جامع يسمى « باب الجوامع » . شيده عمرو بن العاص ، أيام إمارته على مصر من قِبَل عمر بن الخطاب[1] . وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام . والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل . ويحيط بالمسجد ، من جهاته الأربع ، الأسواق ، وعليها تفتح أبوابه . ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون . وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ، ولا يقل من فيه ، فى أى وقت ، عن خمسة آلاف ، من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها . وقد اشترى الحاكم بأمر الله هذا المسجد من أبناء عمرو بن العاص ، وكانوا قد ذهبوا إليه وقالوا : « نحن فقراء معوزون وقد بنى جدنا هذا المسجد فإذا أذن السلطان نهدمه ونبيع أحجاره ولبناته » فاشتراه الحاكم بمائة ألف دينار وأشهد على ذلك كل أهل مصر ، ثم أدخل عليه عمارات كثيرة وعجيبة منها ثريا فضية لها ستة عشر جانباً ، كل جانب منها ذراع ، ونصف دائرتها أربع وعشرون ذراعا . ويوقدون فى ليالى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل . ويقال إن وزن هذه الثريا خمسة وعشرون قنطاراً فضة ، كل قنطار مائة رطل وكل رطل أربعة وأربعون ومائة درهم . ويقال إنه حين تم صنعها لم يتسع لها باب من أبواب المسجد لكبرها ، فخلعوا باباً وأدخلوها منه ثم ردوا الباب مكانه . ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصير الجميل الملون بعضها فوق بعض ، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل .

وفى هذا المسجد مجلس قاضى القضاة .

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى « سوق القناديل » لا يعرف سوق مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف . ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها . ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون

---

(١) قال فى النص معاوية وهو خطأ ظاهر من الناسخ . وقد صحح شيفر (١٤٧) كلمة باب الجوامع بتاج الجوامع وهو الجامع العتيق الذى أنشأه عمرو بن العاص سنة ٦٤٢/٢١ . وقد ذكر المقريزى ما أجراه الحاكم من إصلاحات فيه (ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٥٦) .

بلوراً غاية فى الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب . وقيل إنه ظهر حديثاً ، عند بحر القلزم ، بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب . ورأيت أنياب الفيل ، أحضرت من زنجبار ، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتى منّ . كما أحضر جلد بقر من الحبشة ، يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال . وقد جلبوا من الحبشة طائراً أليفاً كبيراً ، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس .

وتنتج مصر عسلا وسكراً كثيراً .

وفى اليوم الثالث من شهر دَى القديم (ديسمبر — يناير) من السنة الفارسة ست عشرة وأربعمائة رأيت فى يوم واحد هذه الفواكه والرياحين : الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والترنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكى والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليلج (الإهليلج) والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر والبنجر .

وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى ، وبعضها صيفى وبعضها شتوى ، لا يصدق هذا . ولكن ليس لى قصد فيما ذكرت ، ولم أكتب إلا ما رأيت ، وأما ما سمعته ثم كتبته ، فليست عهدته علىّ . وولاية مصر عظيمة الاتساع ، بها كل أنواع الجو من البارد والحار . وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر من جميع البلاد ويباع بعضها فى الأسواق .

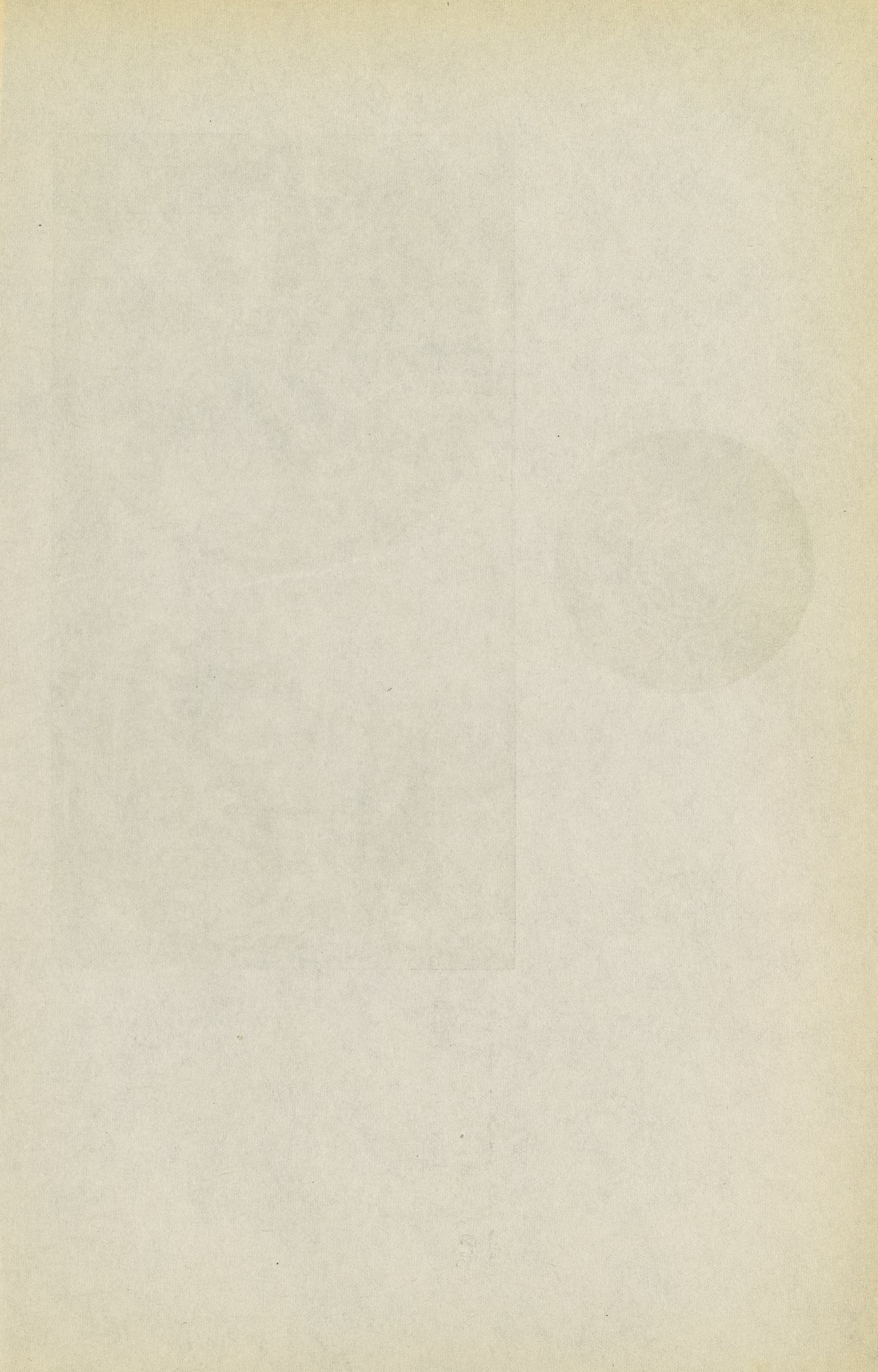
ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع ، وهو لطيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف فى كل جهة تكون بها ، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن .

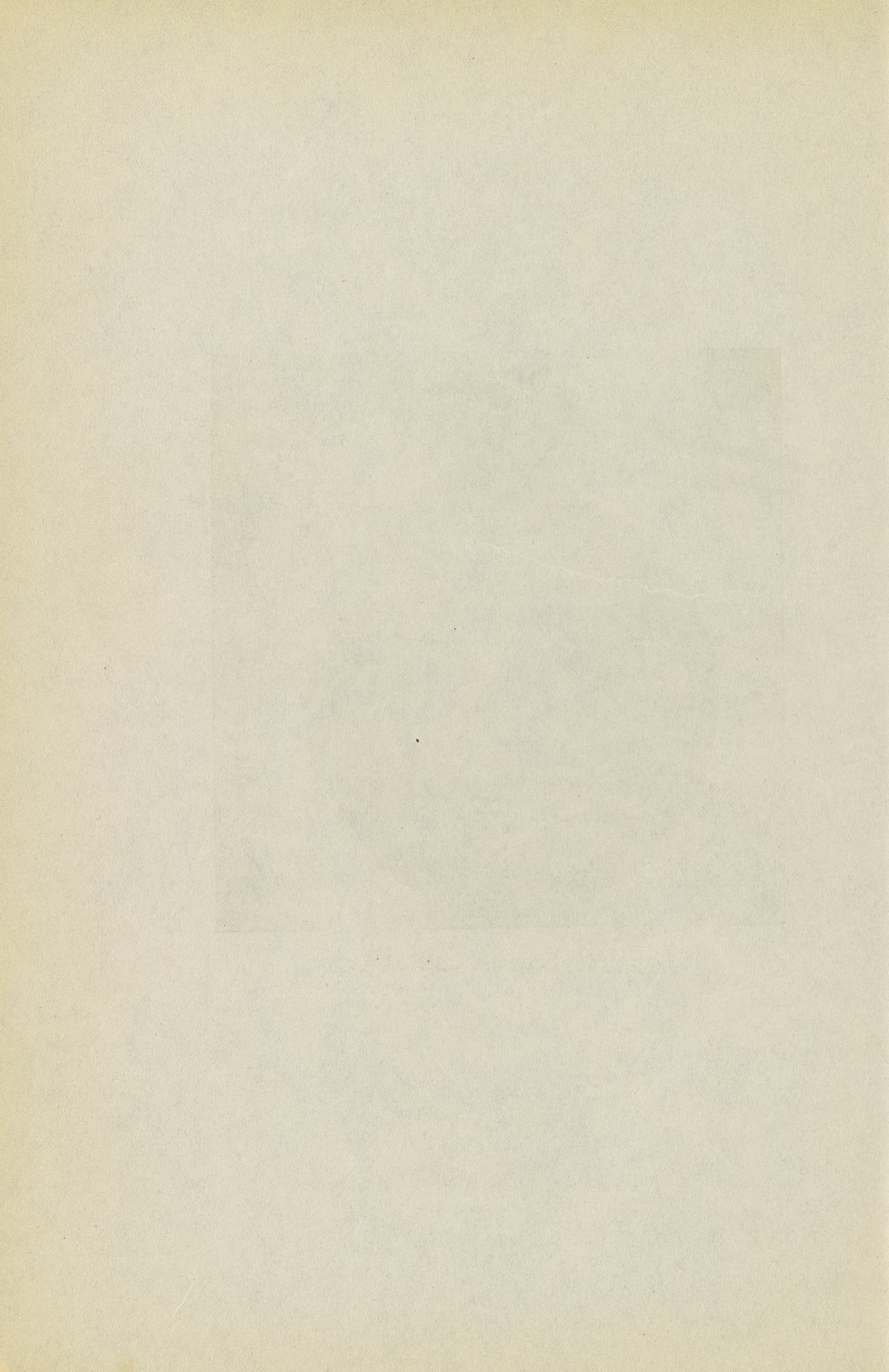
وسمعت من بزاز ثقة أن وزن الدرهم الواحد من الخيط يشترى بثلاثة دنانير مغربية وهى تساوى ثلاثة دنانير ونصف نيشاپوريه . وقد سألت فى نيشاپور ، بكم يشترون أجود الخيط ، فقالوا إن الخيط الذى لا نظير له يشترى الدرهم منه بخمسة دراهم .

ومدينة مصر ممتدة على شاطىء النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة ، بحيث



طبقان وقدر ، تبين مدى تقـدم صناعة الخزف ايام الفاطميين . (كليشيه دار الآثار العربية) .







قنينة من أيام الفاطميين . (كليشيه دار الآثار العربية)

إذا احتاجوا إلى الماء رفعوه بالحبال من النيل . أما ماء المدينة فيحضره السقاءون من النيل أيضا . يحمله بعضهم على الإبل و بعضهم على كتفه . ورأيت قدوراً من النحاس الدمشقى ، كل واحد منها يسع ثلاثين منّا ، وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من ذهب . وقد حكوا لى أن امرأة تملك خمسة آلاف قدر ، وأنها تؤجر الواحد منها بدرهم فى الشهر ، وينبغى أن يردها المستأجر سليمة .

وأمام مصر جزيرة ، وسط النيل ، كان عليها مدينة فى وقت ما ، والجزيرة غربى المدينة ، وبها مسجد جمعة وحدائق . وهى صخرة وسط النهر ، تقسمه قسمين ، كل منهما فى اتساع جيحون ، ولكن أكثر هدوءا و بطأ فى جريانه . وثُبِّت بين الجزيرة والمدينة جسر من ست وثلاثين سفينة(١) .

ويقع جزء من مدينة مصر على جانب النيل الآخر ، ويسمونه الجيزة ، وبها مسجد لصلاة الجمعة . ولكن ليس بها جسر ، ولذا يعبر الناس بالزوارق أو بالمعابر ، وهى كثيرة فى مصر ، أكثر مما فى بغداد أو البصرة .

وتجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون ، وإذا كذب أحدهم على مشترٍ ، فإنه يوضع على جمل ، ويعطى جرسا بيده ، ويُطَوَّفُ به فى المدينة ، وهو يدق الجرس ، وينادى قائلا : « قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب » .

ويعطى التجار فى مصر ، من بقالين وعطارين و بائعى خردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج أو خزف أو ورق ، حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء .

ويستخرجون من بذور الفجل واللفت زيتا للمصابيح يسمونه « الزيت الحار » . والسمسم هناك قليل وزيته عزيز ، وزيت الزيتون رخيص . والفستق أغلى من اللوز ، ولا تزيد العشرة أمنان من اللوز المقشور على دينار واحد .

ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمر المسرجة فى ذهابهم و إيابهم من البيوت

(١) والفسطاط على شمال النيل وهى مدينة حسنة ينقسم النيل لديها قسمين ، فيعدى من الفسطاط إلى عدوة أولى فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة ويعبر إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر إلى القسم الثانى كالجسر الأول إلى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة . صورة الأرض ص ١٤٦

إلى السوق . وفى كل حى على رأس الشوارع ، حمر كثيرة عليها براذع مزينة ، يركبها من يريد ، نظير أجر زهيد . وقيل إنه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى . ولا يركب الخيل إلا الجند والعسكر ، فلا يركبها التجار أو القرويون أو أصحاب الحرف ، ويركبها العلماء . ورأيت كثيرا من الحمر البلق كالخيل بل أجمل .

وكان أهل مدينة مصر فى غنى عظيم حين كنت هناك .

وفى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٧) ولد للسلطان ولد ، فأمر الناس بإقامة الأفراح ، فزينت المدينة والأسواق زينة لو وصفتها لما اعتقد بعض الناس صحة ما أقول ، ولما صدقونى . فقد كانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر ، والنقد والأمتعة المختلفة ، والملابس المذهبة والمقصبة ، بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس .

وكان الناس جميعاً يثقون بالسلطان ، فلا يخشون الجواسيس ولا الغمازين ، معتمدين على أن السلطان لا يظلم أحداً ولا يطمع فى مال أحد . ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقنى الناس فى فارس ، فإنى لا أستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرها . أما الأمن الذى رأيته هناك فإنى لم أره فى بلد من قبل .

وقد رأيت هناك نصرانيا من سراة مصر ، قيل إن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد . وحدث فى سنة ما أن كان النيل ناقصاً ، وكانت الغلة عزيزة فأرسل الوزير إلى هذا النصرانى وقال : « ليست السنة رخاء والسلطان مشفق على الرعية ، فاعطِ ما استطعت من الغلة ، إمانقداً و إما قرضاً » ، قال النصرانى : « أسعدالله السلطان والوزير ، إن لدى من الغلة ما يمكننى من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات [1] » . ولا شك أن سكان مصر ، فى ذلك الوقت ، كانوا كثيرين ، فإن سكان نيشابور خمسهم ، مع الإسراف فى التقدير . وكل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغى أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار وأى سلام كانت فيه الرعية ، وأى عدل كان للسلطان ، بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر . لم يكن السلطان يظلم أو يجور على أحد ، ولا كان أحد من الرعية يخفى أو ينكر شيئا مما يملك .

(١) يقصد مدينة مصر .

ورأيت هناك رباطا يسمى « دار الوزير » لا يباع فيه سوى القصب . وفى الدور الأسفل منه يجلس الخياطون ، وفى الأعلى الرفاءون . وسألت القيم عن أجرة هذا الرباط الكبير . فقال: كانت كل سنة عشرين ألف دينار مغربى ، ولكن جانباً منه قد تخرب وهو يعمر الآن ، فيحصل منه كل شهر ألف دينار ، يعني إثنى عشر ألف دينار فى السنة . وقيل إن فى هذه المدينة مائتى رباط أكبر منه أو مثله .

وصف مائدة السلطان :

يقيم السلطان مأدبة فى كل من العيدين . ويأذن بالاستقبال فى قصره للخواص والعوام . وتنصب مائدة الخواص فى حضرته ومائدة العوام فى سرايات أخرى . وقد سمعت كثيراً عن هذه المآدب فرغبت فى رؤيتها ، رأى العين ، فذهبت عند أحد كتاب السلطان ، وكنت قد صاحبته فتوطدت الصداقة بيننا ، وقلت له : « رأيتُ مجالس ملوك وسلاطين العجم مثل السلطان محمود الغزنوى وابنه السلطان مسعود ، وقد كانا ملكين عظيمين ذوى نعمة وجلال ، وأريدُ أن أرى مجلس أمير المؤمنين » . فنقل رغبتى إلى الموكل بالستار ، المسمى « صاحب الستر »[1] . وقد تفضل هذا فسمح لى بالذهاب ، فى آخر رمضان سنة أربعين وأربعمائة (٧ مارس ١٠٤٩) ، وكان المجلس قد أُعد لليوم الثانى وهو يوم العيد ، حيث يحضر السلطان بعد الصلاة فيجلس فى صدر المائدة .

حين دخلت من باب السراى رأيت عمارات وصفف وإيوانات إن أصفها يطول الكتاب . كان هناك اثنى عشر جناحا ، أبنيتها مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكلما دخلت جناحا منها وجدته أحسن من سابقه ، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع فى مائة ، عدا واحداً منها كانت مساحته ستين ذراعا فى ستين . كان بهذا الأخير تخت يشغل عرضه بتمامه وعلوه أربع أذرع ، وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث ، وعليه صور المصطاد

---

(١) لعله يريد صاحب الباب ، وهى ثانى رتبة الوزارة . قال ابن الطوير : وكان يقال لها الوزارة الصغرى ، وصاحبها فى المعنى يقرب من النائب الكافل فى زماننا ، وهو الذى ينظر فى المظالم إذا لم يكن وزير صاحب سيف ، فإن كان ثم وزير صاحب سيف ، كان هو الذى يجلس للمظالم بنفسه ، وصاحب الباب من جملة من يقف فى خدمته . صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٩

والميدان وغيرهما ، كما أن عليه كتابة جميلة . وكل ما فى هذا الحرم من الفرش والطرح من الديباج الرومى والبوقلمون ، نسجت على قدر كل موضع تشغله . وحول التخت درابزين من الذهب المشبك ، يفوق حد الوصف ومن خلف التخت ، بجانب الحائط ، درجات من الفضة . وبلغ هذا التخت من العظمة أنى لو قصرت هذا الكتاب كله على وصفه ما استوفيت الكلام ، وما كفى .

وقيل إن راتب السكر ، فى ذلك اليوم الذى تنصب فيه مائدة السلطان ، خمسون ألف مَنّ . وقد رأيت على المائدة شجرة ، أعدت للزينة ، تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً .

ومطبخ السلطان خارج القصر ، ويعمل فيه دواماً خمسون غلاما . ويصل القصر بالمطبخ طريق تحت الأرض . وجرت العادة ، فى مصر ، أن يحمل إلى دار الشراب السلطانية (شرابخانة) ، كل يوم ، أربعة عشر حملا من الثلج . وكان لمعظم الأمراء والخواص راتب يومى من هذا الثلج . ويصرف منه لمن يطلبه من مرضى المدينة . وكذلك كل من يطلب من أهلها مشروبا أو دواء من الحرم السلطانى فإنه يعطاه . كما أن هناك زيوتا أخرى كزيت البلسان وغيره كان للناس كافة أن يطلبوها فلا تمنع عنهم .

سيرة سلطان مصر :

بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حد أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم ، بل يسدلون عليها الستائر . ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شىء منها . يحكى أنه كان بمصر يهودى وافر الثراء يتّجر بالجواهر ، وكان مقربا من السلطان الذى كان يعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة ، فاعتدى عليه الجنود وقتلوه . فلما ارتكبوا هذا الجرم خشوا بطش السلطان ، فركب عشرون ألف فارس منهم وخرجوا إلى الميدان . وهكذا خرج الجيش إلى الصحراء وخاف أهل المدينة مغبة هذه المظاهرة إذ ظل الجيش فى الصحراء حتى منتصف النهار . فخرج إليهم خادم القصر ووقف بباب السراى وقال : « إن السلطان يسأل إذا كنتم مطيعين

أم لا ؟ » . فصاحوا صيحة واحدة : « نحن عبيد مطيعون ولكننا أذنبنا » ، فقال الخادم : « يأمركم السلطان بأن تعودوا » . فعادوا فى الحال .

واسم هذا اليهودى المقتول أبو سعيد ، وكان له ابن وأخ . وقيل إنه لا يعرف مدى غناه إلا الله ، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة زرع فى كل منها شجرة ، كأنها حديقة ، وكلها أشجار مثمرة . وقد كتب أخوه ، لما ملكه من الفزع ، رسالة للسلطان يقول فيها : « إنى أقدم للخزانة مائتى ألف دينار مغربى حالا » . فأمر السلطان بعرض الرسالة على الناس وتمزيقها على الملأ ، وقال : « كونوا آمنين ، وعودوا إلى بيتكم ، فليس لأحد شأن بكم ، ولسنا بحاجة لمال أحد » واستمالهم إليه[1] .

وكان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى التى نزلت بها ، من الشام إلى القيروان ، نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السُرُج والحصير والبوريا وسجاجيد الصلاة ورواتب القُوّام والفراشين والمؤذنين وغيرهم . وكتب والى الشام فى بعض السنين إلى السلطان بأن الزيت قليل ثم استأذن فى أن يصرف للمساجد الزيت الحار ، المستخرج من بذور الفجل واللفت . فأجيب « إنك مأمور لا وزير ، وليس من الجائز أن تغير أو تبدل فى شىء يتعلق ببيت الله » .

ويتقاضى قاضى القضاة ألفى دينار مغربى فى الشهر ، ومرتب كل قاض على قدر مرتبته ، وذلك حتى لا يطمع القضاة فى أموال الناس أو يظلمونهم .

والعادة فى مصر أن يقرأ مرسوم السلطان فى المساجد فى منتصف رجب ، وهو :

« يا معشر المسلمين ، حل موسم الحج ، وسيجهز ركب السلطان كالمعتاد ، وسيكون معه الجنود والخيل والجمال والزاد » . وينادى بذلك فى شهر رمضان أيضاً . ويبدأ الناس فى السفر ابتداء من أول ذى القعدة ، وينزلون فى موضع معين ، ثم يسيرون فى منتصف هذا الشهر . ويبلغ خرج الجيش الذى يرافق السلطان ألف دينار مغربى فى اليوم ، هذا

---

(١) قال مَنْ Mann فى كتابه اليهود فى مصر "The Jews in Egypt" إن الخليفة أعطى أخوى اليهودى المقتول أمانا ولكنه لم يستمر إلا بضع ساعات ، ثم قتل الأخوان بعد ذلك فى نفس اليوم . وعندى أن نص ناصر خسرو يخالف ما استنتجه Mann الذى اندفع يعدد تضحيات اليهود فى مصر . راجع الجزء الأول ص ٨٧ وما بعدها . وراجع كتابى عن ناصر خسرو (بالفرنسية) ص ٩٩ .

عدا عشرين ديناراً مرتبة لـكل رجل فيه . ويبلغون مكة فى خمسة وعشرين يوما ويمكثون بهـا عشرة أيام ، ثم يعودون إلى مصر فى خمسة وعشرين يوماً . ونفقاتهم فى الشهرين ستون ألف دينار مغربى ، عدا التعهدات والصلات والمشاهرات وثمن الجمال التى تَنفُق فى الطريق .

وقد قُرِئَ على الناس ، سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، المرسوم التالى من سجل السلطان :

« يقول أمير المؤمنين إنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هـذا العام فإن به قحطا وضيقا وقد هلك به خلق كثيرون وإنى أقول هذا شفقة بالمسـلمين » فلم يسافر الحجاج . وكان السلطان يرسل الـكسوة للـكعبة كالمعتاد ، لأنه يرسلها مرتين كل سنة ، فلما سافرت الـكسوة مع وفد السلطان ، عن طريق القلزم ، سافرت معهم [1] فخرجت من مصر أول ذى القعدة ، وبلغت القلزم فى الثامن منـه ، ومن هناك أقلعت السفينة ، فبلغنا بعد خمسة عشر يوماً مدينة تسمى الجار ، فى الثانى والعشرين من ذى القعدة ، وقمنا من هناك فبلغنا مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أربعة أيام .

المدينة :

والمدينة بلد على حافة الصحراء أرضها رطبة وملحة ، يجرى بها ماء قليل وهى كثيرة النخل . والقبلة هناك ناحية الجنوب . ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام قدر المسجد الحرام ، ومقامه عليه الصلاة والسلام بجانب المنبر ، يسار المصلين وهم متوجهون ناحية القبلة . فحين يذكر الخطيب ، وهو فوق المنبر ، النبى عليه السـلام ويصلى عليه ، يلتفت ناحية اليمين ويشير إلى المقام الشريف . وهذا المقام مخمس ترتفع حوائطه من بين أعمدة المسجد ، ويحيط به خمسـة أعمدة ، وكان فى آخره حظيرة أحيطت بسياج حتى لا يدخلها أحد ، وأسدل على الجزء المـكشوف منها شبكة حتى لا تدخلها الطيور . وبين قبر الرسول والمنبر مسافة من الرخام ، تشبه الساحة وتسمى «الروضة» ، ويقال إنها روضة من رياض الجنة ، كما قال رسول الله عليه الصـلاة والسلام : « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » . ويقول الشيعة إن هناك قبر فاطمة الزهراء عليها السلام . وللمسجد باب واحد .

---

(١) هذا النص يبين أن لناصر صفة خاصة فى ذهابه .

وخارج المدينة ناحية الجنوب ، صحراء بها مقبرة فيها قبر (أمير المؤمنين) حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه[١] ، يسمونها « قبور الشهداء » .

وقد أقمنا يومين بالمدينة ، ثم غادرناها لضيق الوقت فسرنا شرقا . وعلى منزلين منها جبل ومضيق يشبه الوادى يسمى الجُحفة . وهناك «ميقات» حجاج المغرب والشام ومصر . والميقات هو الموضع الذى يحرم منه الحجاج . ويقال إن الحجاج نزلوا هناك فى سنة ما ، وكانوا كثيرين ، فنزل عليهم السيل فجأة ، فأهلكهم . لذلك سمى هذا المكان الجحفة[٢] . و بين مكة والمدينة مائة فرسخ من الصخر ، قطعناها فى ثمانية أيام .

وقد بلغنا مكة فى يوم الأحد السادس من ذى الحجة ، ونزلنا عند باب الصفا ، وكان بمكة قحط ، فكانت الأربعة أمنان من الخبز بدينار نيسابورى ، وقد هاجر منها المجاورون ولم يفد عليها حاج من أى بلد . وقد أدينا فريضة الحج لله الحق سبحانه وتعالى يوم الأربعاء فى عرفات ، ولبثنا بمكة يومين . وقد خرج من الحجاز خلق كثير مما أصابهم من الجوع والفقر ، وتفرقوا فى البلاد .

ولا أذكر مناسك الحج ووصف مكة الآن . سأذكر ذلك عند ذكر آخر نوبة للحج ، حين بقيت ستة أشهر بمكة مجاوراً ، وسأشرح ما رأيت .

ثم توجهنا ناحية مصر فبلغناها بعد خمسة وسبعين يوماً . وقد هاجر إليها من الحجاز ، فى هذا العام ، خمسة وثلاثون ألف آدمى ، فكساهم السلطان وأجرى عليهم الرزق سنة كاملة . وقد كانوا جميعا جائعين عرايا . ولما أمطرت السماء فى بلادهم وكثر فيها الطعام ، كساهم السلطان ، صغيرهم وكبيرهم ، وأغدق عليهم الصلات ثم رحلهم إلى الحجاز . وفى شهر رجب سنة أربعين وأربعمائة (ديسمبر سنة ١٠٤٨) قرأوا على الناس مرة أخرى ، مثالا للسلطان بأن فى الحجاز قحطا ، وليس من الخير أن يسافر الحجاج ، فلينفقوا المال على أنفسهم وليفعلوا ما أمر الله به . وفى هذه السنة أيضاً لم يسافر الحجاج . ولكن السلطان لم يقصر البتة فى إرسال ما كان يرسله كل سنة من الكسوة وأجور الخدم والحاشية ، وأمراء

---

(١) لاحظ غنى زاده أن فى هذا السطر خطأ فان إطلاق كلمة أمير المؤمنين على حمزة خطأ ظاهر . ص ٨٤ (٤) ، ولعلها من زيادات النساخ .

(٢) راجع حوادث سنة ٨٠ هجرية أيام عبد الملك بن مروان .

مكة والمدينة وصلة أمير مكة وقد كانت ثلاثة آلاف دينار فى الشهر ، وكانت ترسل إليه الخيول والخلع مرتين فى السنة[١] . وعهد بهذا ، فى هذه السنة ، إلى رجل اسمه القاضى عبد الله ، من قضاة الشام . وقد ذهبت معه عن طريق القلزم[٢] . وقد بلغت السفينة الجار فى الخامس والعشرين من ذى القعـدة ، وكان موعد الحج قد قرب كثيراً ، وكان الجمل يؤجر بخمسة دنانير فذهبنا مسرعين .

بلغت مكة فى الثامن من ذى الحجة ، وأديت فريضة الحج لله سبحانه وتعالى . وقد حدث أن قافلة عظيمة أتت للحج من بلاد المغرب ، وفى أثناء عودة حُجّاجها ، عنـد باب المدينـة المنورة ، طلب العرب « الخفارة » منهم فقامت الحرب بينهم . وقتل من المغاربة أكثر من ألفى رجل ، ولم يعد كثير منهم إلى المغرب . وفى هذه الحجة أيضا ، قام جماعة من أهل خراسان ، عن طريق الشام ومصر ، فبلغوا المدينة فى سفينة ، وقد بقى عليهم أن يقطعوا مائة فرسخ وأربعة حتى عرفات وهم فى السادس من ذى الحجة . فقالوا : إن كلا منا يدفع أربعين ديناراً لمن يرحلنا إلى مكة فى هذه الأيام الثلاثة الباقيـة لنلحق الحج ، فجاء الأعراب وأوصلوهم إلى عرفات فى يومين ونصف يوم ، وأخذوا أجورهم ذهباً ، وكانوا قد شدوهم إلى جمال سريعة ، وأتوا بهم من المدينة إلى عرفات . وقد هلك اثنان منهم ، وكانوا موثقين على الجمال ، وكان أربعة منهم نصف أموات ، وقد بلغوا عرفات ونحن هناك ساعة صلاة العصر ، وكانوا لا يستطيعون الوقوف أو الـكلام ، قالوا إنا توسلنا كثيراً فى الطريق أن يأخذ هؤلاء الأعراب الذهب الذى اشـترطنا وأن يتركونا ، فإنه لا طاقة لنـا على مواصلة السفر ، ولـكنهم لم يسـمعوا لنا وساقونا على هذا النحو . ومهما يكن فقد حج هؤلاء الأربعة وعادوا عن طريق الشام .

وبعد أن أكملت الحج ، توجهت نحو مصر ، فقـد كانت لى بها كتب ، ولم يكن فى نيتى أن أعود إليها . وقد صحبت أمير مكة فى طريقه إلى مصر ، فقـد كان له رسم على السلطان يعطاه كل سنة لقرابته من أبناء الحسين بن على صلوات الله عليهما . فركبت

---

(١) وهو الشريف تاج المعالى شكر .

(٢) ناصر يسافر مرة أخرى مع مبعوث السلطان .

السفينة معه حتى مدينة القلزم ، ومن هناك سرنا إلى مصر[١] .

في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة (١٠٤٩) ، وأنا بمصر ، جاء الخبر أن ملك حلب قد شق عصا الطاعة على السلطان ، وكان تابعاً له ، وكان آباؤه ملوكاً على حلب . وكان للسلطان خادم اسمه عمدة الدولة ، هو أمير المطالبين ، وكان عظيم الجاه والمال . ويسمى مطالباً من يبحث في تلال مصر عن الكنوز والدفائن ، ويأتي لهذا الأمر رجال من المغرب وديار مصر والشام ، ويتحمل كل منهم المشاق وينفق المال الكثير في تلال مصر ومحاجرها ، وكثيراً ما يجدون الدفائن والكنوز ، وكثيراً ما ينفقون المال ولا يهتدون إلى شيء منها ، فإنهم يقولون إن أموال فرعون مدفونة في هذه المواضع ، ويأخذ السلطان خمس ما يكشفه المطالب والباقي له . قصارى القول أن السلطان بعث هذا الخادم إلى حلب ، وأمده بقوة ليشد أزره ، وأعطاه كل ما ينبغي للملوك من الخيام وغيرها . فلما بلغ حلب وقاتل قُتل . وكانت أمواله من الكثرة بحيث استغرق نقلها من خزائنه إلى خزائن السلطان شهرين . وكان من جملتها ثلاثمائة جارية أكثرهن كالبدور ، وبعضهن سراريه . وقد أمر السلطان بأن يكنّ مخيرات ، فمن رغبن في الزواج منهن زوجن ، ومن لم يردن أعدن إلى بيوتهن وصرفت إليهن أموالهن كاملة ، فلم تجبر واحدة منهن على شيء .

ولما قتل عمدة الدولة خاف ملك حلب أن يرسل له السلطان جيشاً ، فبادر بإرسال ابنه وهو في السابعة من عمره مع زوجه ، ومعهما كثير من التحف والهدايا للسلطان ، وذلك ليعتذرا عمّا فعل . فلما جاءا مكثا ما يقرب من شهرين خارج مصر ، ولم يؤذن لهما بالدخول ، ولم تقبل تحفهما إلى أن شفع لهما الأئمة والقضاة عند السلطان ، وتوسلوا إليه أن يقابلهما ، ففعل ثم رجعا بالتشريف والخلع[٢] .

---

(١) هذه الجملة تبين أن ناصرا ينوه قصدا بأن ليس في نيته إطالة إقامته في مصر ، وصحبته لأمير مكة تبين مدى احترامه في الرحلة .

(٢) هذه الأميرة هي ابنة مطاب بن سابق النميرى ، سيد حران . واسمها السيدة علوية . وكان يصحبها في زيارتها لمصر شيخ الدولة على بن أحمد بن الأيسر الذى كان مبعوثا من قبل معز الدولة سنة ١٠٥١/٤٤٣ ليدفع الجزية المفروضة على هذا الأمير لإمبراطور الروم في القسطنطينية . وقد ذكر كامل الدين أبو حفص عمر في كتابه « زبدة الحلب في تاريخ حلب » تفاصيل استقبال هذه الأميرة في مصر . وهو مخطوط في المكتبة الأهلية في باريس (٧٢٨) ورقات ٧٢ — ٧٣ . وقد أعطت المستنصر ، =

ومن جملة ما رأيت فى مصر أنه إذا أراد أحدهم غرس حديقة ، يستطيع ذلك فى أى فصل من فصول السنة . فإنه يحصل دائما على الشجر الذى يريد فيزرعه مثمراً ، أو بغير ثمر . وهناك تجار لذلك ، يقدمون كل ما يطلب منهم ، فقد زرعوا الأشجار فى أصص ووضعوها فوق الأسطح . وكثير من سقوف بيوتهم حدائق أكثرها مثمر ، من النارنج والترنج والرمان والتفاح والسفرجل والورد والريحان والزهر . فإذا اشترى أحدهم شجراً حمل الحمالون الأصص بالشجر بعد شدها على لوح من خشب ونقلوها إلى حيث يشاء ، ثم يحفر الزراع الأرض لغرس الشجر إما بالأصص أو بعد نزعه منها ، من غير أن يضار الشجر بهذا . ولم أر هذا النظام فى أى مكان آخر ، كما أنى لم أسمع به . والحق أنه نظام جميل جدا .

العودة الى خراسان عن طريق الصعيد الأعلى وبلاد العرب والعراق :

والآن أعود إلى وطنى ، من مصر عن طريق مكة ، حرسها الله تعالى من الآفات .

أديت صلاة العيد فى القاهرة ، وغادرت مصر فى سفينة يوم الثلاثاء الرابع عشر من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة (١٠ ابريل ١٠٥٠) ، واتجهنا نحو الصعيد الأعلى ، وهو ولاية مصرية فى الجنوب ، يأتى منها ماء النيل إلى مصر . وأكثر رغدها منه . وهناك على ضفتى النيل ، كثير من المدن والقرى يطول وصفها .

وقد بلغنا مدينة تسمى أسيوط ، يزرع فيها الأفيون ، وهو الخشخاش وحبه أسود . حين تنمو الشجرة تكسر ويربط كيس فى موضع الكسر فيخرج منه عصير يشبه اللبن ، فيجمعونه ويحفظونه ، وهو الأفيون [١] . وبذور هذا الخشخاش صغيرة مثل الكمون . وينسجون فى أسيوط عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها فى العالم ، والصوف الدقيق الذى يصدر إلى بلاد العجم والمسمى الصوف المصرى ، كله من الصعيد الأعلى ، لأنهم

= علاوة على الهدايا والتحف ، مبلغ أربعين ألف دينار . وقد أمر بأن تكتب لها إجازة ، أملتها هى ، بتثبيت معز الدولة على إمارة حلب وما يتبعها . كما أرسل معها خلعا لهذا الأمير وأقربائه . تعليقات شيفر ص ١٧١ — ١٧٢ .

(١) ومما تختص به مصر الأفيون . وهو يجتنى من الخشخاش الأسود بالصعيد . رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر . ص ٢٨ .

لا ينتجون الصوف بمدينة مصر نفسها ، وقد رأيت فى أسيوط فوطة من صوف الغنم لم أر مثلها فى لهاور أو ملتان ، وهى من الرقة بحيث تحسبها حريراً .

ومن هناك بلغنا مدينة تسمى قوص ، رأيت فيها أبنية عظيمة من الحجارة تبعث على العجب ، وهى مدينة قديمة محاطة بسور من الحجر ، وأكثر أبنيتها من الحجارة الكبيرة التى يزن الواحد منها عشرين أو ثلاثين ألف منّ . والعجيب أنه ليس على مسافة عشرة أو خمسة عشر فرسخا منها جبل أو محجر ، فمن أين وكيف نقلوا هذه الحجارة ؟

ومن قوص بلغت مدينة تسمى إخميم ، وهى مدينة واسعة عامرة رجالها أشداء ، لها سور حصين وبها نخل وبساتين كثيرة . وقد أقمت بها عشرين يوما[1] . وفى هذه الجهة طريقان . أحدهما صحراوى لا ماء فيه ، والثانى طريق النيل ؛ وقد ترددنا أى الطريقين نسلك . وأخيراً سرنا فى طريق النيل وبلغنا مدينة أسوان .

عند الجانب الجنوبى من أسوان جبل يخرج من وسطه النيل . ويقال إن السفن لا تستطيع المضى فى النيل وراء هذا الجبل ، لأن الماء هناك ينحدر من شلالات عظيمة . وعلى مسافة أربعة فراسخ من هذه المدينة طريق ولاية النوبة ، وهى ولاية أهلها جميعاً نصارى . ويرسل ملوكها ، من قديم ، الهدايا لسلطان مصر . وبين البلدين عهود ومواثيق ، فلا يذهب جيش السلطان هناك ، ولا يؤذى أهلها . ومدينة أسوان محصنة جدا بحيث لا يستطيع أحد أن يقصدها من النوبة ، وبها جيش دائم للمحافظة عليها . ويقابل المدينة جزيرة[2] وسط النيل كأنها حديقة ، فيها نخيل وزيتون وأشجار أخرى وزرع كثير ، ويروى زرعها بالسواقى . وقد لبثت بها واحداً وعشرين يوما . وكان أمامنا حتى شاطىء البحر صحراء فسيحة طولها أكثر من مائتى فرسخ[3] . وكان حينذاك الموسم الذى يعود فيه الحجاج على الجمال فانتظرناهم لنستأجرها ونذهب بها وهى راجعة . وكنت عرفت وأنا فى أسوان رجلا تقيا صالحا يعرف شيئاً من علم المنطق . وقد عاوننى فى اكتراء الجمل واختيار الرفيق وغير ذلك . وقد استأجرت جملا بدينار ونصف دينار ، ورحلت عن هذا البلد فى

---

(١) وفى إخميم جهاز من الكتان المعمول شقة ومناديل . صورة الأرض . ص ١٥٦ .

(٢) جزيرة فيله .

(٣) راجع تعليقات غنى زاده ص ٩١ (١١) حيث صحح النص بزيادة كلمة أكثر (زيادى) .

الخامس من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٢٩ يوليو ١٠٥٠) وكان الطريق يتجه نحو الجنوب الشرقى .

بعد ثمانية فراسخ من رحلتنا بلغنا جهـة تسمى ضيقة ، وهى واد فى الصحراء ، على جانبيه حائطان من الجبال ، وسعته مائة ذراع ، وقد حفر فيـه بئر يخرج منه ماء كثير ، ولكنه ليس عذبا . وبعد أن تركنا ضيقة ، سرنا خمسة أيام فى صحراء لا ماء فيها ، وكان مع كل منا قربة ماء . ثم بلغنا منزلا يسمى الحوض ، وهو جبل حجرى فيه عينان يتفجر منهما ماء عذب يستقر فى حفرة ، ولم يكن بدّ من أن يذهب رجل إلى حيث العينان ليحضر الماء لشرب الإبل ، التى مضى عليها سبعة أيام لم تشرب فيها ولم تأكل ، إذ أن علفها قد نفد كله . وكانت تستريح مرة فى الأربع وعشرين ساعة ، وذلك من الوقت الذى تشتد فيه حرارة الشمس حتى صلاة العصر ، وتسير بقية الوقت . والمنازل التى ينزلون بها معلومة ، فليس ممكناً النزول فى أى مكان ، لتعذر وجود ما توقد به النار . أما فى هذه المنازل فإنهم يجدون بعر الإبل ، فيتخذونه وقوداً يطبخون عليـه ما تيسر ، وكأن الإبل تعلم أنها إن أبطأت ماتت عطشاً ، فهى تسير غير محتاجة لأن يسوقها أحد ، متجهة من تلقاء نفسها ناحية المشرق فى هذه الصحارى حيث لا أثر أو علامة تدل على الطريق . وهناك أمكنة يقل فيها الماء مسافة خمسة عشر فرسخاً ويكون ملحاً ، وأمكنة لا يوجد فيها ماء قط ، مسافة ثلاثين أو أربعين فرسخا .

وفى العشرين[1] من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٢ أغسطس ١٠٥٠) بلغنا مدينة عيذاب ، ومن أسوان حتى عيذاب التى بلغناها بعد خمسة عشر يوماً مائتا فرسخ بالتحديد . ومدينة عيذاب هذه تقع على شاطىء البحر وبها مسجد جمعة ، وسكانها خمسمائة وهى تابعة لسلطان مصر . وفيها تحصل المكوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن . ومنها تنقل البضائع على الإبل إلى أسوان فى هـذه الصحراء التى اجتزناها ، ومن هناك تنقل بالسفن إلى مصر فى النيل . وعلى يمين عيذاب ناحية القبلة ، جبل من خلفه صحراء عظيمة بها مراع واسعة وخلق كثيرون يسمون البجة وهم قوم

---

(١) راجع تعليقات غنى زاده ص ٩٣ (٤) .

لا دين لهم ولا ملة ، لا يؤمنون بنبيّ أو إمام ، وذلك لبعدهم عن العمران . وهم يسكنون صحراء طولها أكثر من ألف فرسخ وعرضها ثلاثمائة فرسخ ، وليس فى هذه المسافة الشاسعة سوى مدينتين صغيرتين تسمى الأولى بحر النعام ، والثانية عيذاب . وتمتد هذه الصحراء من مصر إلى الحبشة وذلك من الشمال إلى الجنوب ، وعرضها من بلاد النوبة حتى بحر القلزم وذلك من الغرب إلى الشرق . ويقيم بها البجة ، وهم ليسوا أشرارا ، فهم لا يسرقون ولا يغيرون ، بل يشتغلون بتربية ماشيتهم (١) . ويسرق المسلمون وغيرهم أبناءهم ، ويحملونهم إلى المدن الإسلامية ليبيعوهم فيها .

وبحر القلزم هذا خليج يتفرع من المحيط عند ولاية عدن ويسير شمالا حتى مدينة القلزم الصغيرة ويسمى هذا البحر بكل مدينة تقع عليه ، فمرة يسمى القلزم ومرة عيذاب ومرة بحر النعام . وقيل إن به أكثر من ثلاثمائة جزيرة ، تأتى السفن منها محملة بالزيت والكشك ، وقيل إن هناك بقراً وخرافا كثيرة . والناس هناك مسلمون ، بعضهم تابع لمصر وبعضهم لليمن . وليس فى مدينة عيذاب الصغيرة غير ماء المطر ، فلا بئر فيها ولا عين . فإذا لم تمطر السماء أحضر البجة الماء وباعوه . وقد بقينا هناك ثلاثة أشهر وكنا نشترى قربة الماء بدرهم أو بدرهمين . وسبب بقائنا هذه المدة أن السفينة لم تقلع إذ كانت الريح شمالية ، وكان ينبغى لرحلتنا ريح الجنوب . وحينما رآنى الناس طلبوا إلىّ أن أكون خطيبهم فلم أردّهم ، وخطبت لهم تلك المدة حتى أتى الموسم . ثم سارت السفينة شمالا إلى أن بلغنا جدة . ويقال إن الجمال النجيبة لا توجد فى مكان آخر غير هذه الصحراء ، وهى تنقل منها إلى مصر والحجاز .

وقد حكى لى رجل أعتمد على قوله من مدينة عيذاب قال : « كنت فى سفينة محملة بالجمال لأمير مكة ، فمات جمل منها فرموه فى البحر فابتلعته سمكة فى الحال ، ولم يبق خارج فمها غير رجله ، فجاءت سمكة أخرى وابتلعت هذه السمكة بالجمل ، ولم يظهر عليها أى أثر من ذلك » . ويسمى هذا السمك بالقرش .

ورأيت فى هذه المدينة جلد سمك يسمونه فى خراسان الشفق ، ويظنون أنه نوع من

---

(١) وبصعيد مصر ، من جنوب النيل ، معدن الزبرجد فى برية منقطعة عن العمارة ويكون من حد جزائر بنى حدان إلى نواحى عيذاب وهى ناحية للبجة وقوم من العرب من ربيعة وليس بجميع الأرض معدن للزمرد غيره . صورة الأرض ص ١٥٠ .

الضب ، ولـكنى رأيت فى عيذاب أنه سمك وله كل ما للسمك من زعانف .

حينما كنت فى أسوان كان لى صـديق ذكرت اسمه قبلا وهو أبو عبد الله محمد بن فليج ، فلما ذهبت من هناك إلى عيذاب كتب ، من إخلاصه لى ، لوكيله بها كتابا يقول فيه : إعط ناصراً ما يريد ، وهو يعطيك صكّا للحساب . فلما بقيت بها ثلاثة أشهر ، وأنفقت ما معى ، اضطررت أن أعطى هذه الورقة للوكيل فأكرمنى ، وقال : إن له والله لدى أشياء كثيرة ، وإنى معطيك ما تريد واعطنى صكّا به . فتعجبت من حسن صنع هذا الرجل محمد بن فليج الذى أظهر كل هذه الطيبة بغير سابقة منى إليه . ولو كنت رجلا دنيئاً واستحللت لنفسى أن آخذ لأخذت بهـذه الورقة أشياء كثيرة . وقد أخذت منه مائة منّ من الدقيق ، وهو مقدار كبير هناك وأعطيته صكّا به أرسله إلى أسوان . وقبل رحيلى من عيذاب ورد خطاب من محمد فليج لوكيله يقول فيه : أعط ناصرا كل ما يريد مهما تكن قيمته مما لى عنـدك ؛ وإذا أراد فأعطه من مالك وأنا أعطيك عوضاً عنه فقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه : « المؤمن لا يكون محتشما ولا مغتنما » . وقد كتبت هذا الخبر حتى يعرف القارىء أن الرجل يعتمد على الرجل ، وأن الـكرم فى كل مكان ، وأن أهله كانوا وسيكونون دائما .

وصف بلاد العرب

جدة :

وجُدة مدينة كبيرة لها سور حصين ، تقع على شاطئ البحر ، وبها خمسة آلاف رجل ، وهى شمال البحر (الأحمر) ، وفيهـا أسواق جميلة . وقبلة مسجدها الجامع ناحية المشرق ، وليس بخارجها عمارات أبداً ، عدا المسجد المعروف بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولها بوابتان إحداهما شرقية تؤدى إلى مكة ، والثانية غربية تؤدى إلى البحر . ويبلغ السائر من جدة جنوبا على شاطىء البحر ، اليمن ومدينة صعدة ، والمسافة إلى هناك خمسون فرسخا . وإذا سار شمالا بلغ الجار وهى تابعة للحجاز . وليس فى جدة شـجر ولا زرع ، وكل ما يلزمها يحضرونه إليها من القرى . وبينها وبين مكة إثنا عشر فرسخا . وأمير جدة تابع لأمير مكة تاج المعالى بن أبى الفتوح الذى هو أمير المدينة أيضا[1] . وقد

(١) هو تاج المعالى شكر بن أبى الفتوح حسن بن جعفر العلوى ، من بنى موسى العلويين الذين =

ذهبت إلى أمير جدة فأكرم وفادتي وأعفاني مما كان يجب عليّ من المكس ولم يطلبه . وهكذا خرجت من البوابة فى سلام . وقد كتب إلى مكة يقول عنى : هذا رجل عالم فلا يجوز أن يؤخذ شيء منه . وفى يوم الجمعة بعد صلاة العصر قمت من جدة فبلغت باب مكة يوم الأحد سلخ جمادى الثانى . وكان قد حضر إلى مكة للعمرة خلق كثيرون من نواحى الحجاز واليمن فى أول رجب وهو موسم عظيم مثل عيد رمضان ، وهم يحضرون وقت الحج . ولأن طريقهم قريب وسهل يأتون إلى مكة ثلاث مرات كل سنة .

وصف مكة :

تقع مكة بين جبال عالية ، ولا ترى من بعيد ، من أى جانب يقصدها السائر ، وأقرب جبل منها هو جبل أبى قبيس ، وهو مستدير كالقبة ، لو رمى سهم من أسفله لبلغ قمته . وهو شرقى مكة ، فترى الشمس من داخل المسجد الحرام ، وهى تشرق من فوقه فى شهر دى (ديسمبر) . وقد نصب على قمته برج من الحجر يقال إن إبراهيم عليه السلام رفعه عليه .

وتشغل هذه المدينة الوادى الذى بين الجبال والذى لا تزيد مساحته عن رمية سهمين فى مثلها ، والمسجد الحرام وسط هذا الوادى ؛ ومن حوله مكة والشوارع والأسواق . وحيثما وجدت ثغرة بين الجبال سدت بسور قوى وضعت عليه بوابة ، وليس بمكة شجر أبدا إلا عند الباب الغربى للمسجد الحرام المسمى باب ابراهيم ، حيث يوجد كثير من الشجر الكبير الذى يرتفع على حافة بئر .

وعند الجانب الشرقى للمسجد سوق تمتد من الجنوب إلى الشمال ، وفى أولها ناحية الجنوب جبل أبى قبيس الذى تقع الصفا على سفحه وتبدو على هذا السفح درجات كبيرة من الحجارة المستوية التى يصعد الحجاج عليها ويدعون ربهم . والمروة فى نهاية السوق ، شمالى الجبل ، وهى أقل ارتفاعا فى وسط مكة ، وقد شيدت عليها منازل

= حكموا مكة والمدينة منذ سنة ٩٦١/٣٥٠ . وكان أبو المعالى آخرهم ، وقد كان شاعرا ومحبا للأدباء ويذكر له ابن الأثير (ج ١٠ ص ١٢) قوله :

قوض خيامك عن أرض تضام بها ... وجانب الذل إن الذل مجتنب
وارحل إذا كان فى الأوطان منقصة ... فالمندل الرطب فى أوطانه حطب

كثيرة . وما يسمى السعى بين الصفا والمروة هو السعى فى هذه السوق من أولها لآخرها . ويجد من يرغب العُمرة وهو آت من بعيد ، أبراجا ومساجد على مسافة نصف فرسخ حول مكة فيحرم منها للعمرة . والإحرام هو نزع الملابس المخيطة من على الجسد ، وشد المحرم وسطه بإزار ، ولف جسده بإزار أو وشاح آخر ، وصياحه بصوت عال أن « لبيك اللهم لبيك » ، ثم يسير نحو مكة . فإذا أراد حاج أن يعتمر وهو بمكة ، فإنه يذهب إلى تلك الأبراج ويرتدى ثوب الإحرام ويهتف لبيك ويدخل مكة بنية العمرة . فحين يبلغ مكة يدخل المسجد الحرام ، ويسير نحو الكعبة ثم يطوف ناحية اليمين بحيث تكون هذه على يساره ، ويتوجه إلى الركن الذى به الحجر الأسود فيقبله ، ثم يمضى ويستمر فى الطواف حتى يعود إلى الحجر الأسود مرة أخرى فيقبله ، وبهذا يكون قد أتم طوفة واحدة . وعلى هذا النحو يطوف سبع مرات ، ثلاثا منها بسرعة وأربعا على مهل . وبعد تمام الطواف يتوجه نحو مقام إبراهيم عليه السلام ، وهو أمام الكعبة ، فيقف خلفه ، بحيث يكون المقام بينه وبين الكعبة ، وهناك يصلى ركعتين ، هما صلاة الطواف . ثم يذهب إلى حيث بئر زمزم ، فيشرب من مائها أو يمسح بها وجهه ، ثم يخرج من المسجد الحرام ، من باب الصفا الذى سمى كذلك لأن جبل الصفا يقع خارجه ، فيصعد على عتبات الصفا مولياً وجهه شطر الكعبة ويدعو بالدعاء المعلوم ، ثم ينزل ويتجه ناحية المروة مارا بالسوق التى يسير فيها من الجنوب إلى الشمال ، وعليه أن ينظر إلى أبواب المسجد الحرام حين يمر بها ، وأن يحث الخطى فى المسافة التى سعاها الرسول عليه الصلاة والسلام مسرعا ، والتى أمر الناس باجتيازها مسرعين ، وهى خمسون خطوة . وعلى طرفى هذا الموضع (الذى يسار فيه بسرعة) أربع منارات ، على الجانبين . فإذا بلغ الحاج الآتى من الصفا مابين المنارتين الأوليين أسرع حتى يصل إلى ما بين المنارتين الثانيتين ، ثم يسير الهوينى ، حتى يبلغ المروة فيصعد عتباتها ، ويدعو ذلك الدعاء المعلوم . وهكذا يكرر هذا السعى فى السوق ، بحيث يسعى من الصفا إلى المروة أربع مرات ، ومن المروة إلى الصفا ثلاث مرات . فيكون قد سعى فى هذه السوق سبع مرات .

وعندما ينزل الحاج من جبل المروة يجد سوقا بها عشرون دكانا متقابلة ، يشغلها جميعاً حجامون لحلق شعر الرأس . وحين يتم الحاج شعائر العمرة ويخرج من المسجد الحرم ،

يدخل السوق الكبيرة التى تقع ناحية الشرق والمسماة سوق العطارين ، وهى سوق جميلة البنايات وكلها عطارون .

وبمكة حمامان بلاطهما من الحجر الأخضر السنان . وقدرت أن سكانها ، القاطنين بها ، لا يزيدون على ألفين ، والباقى ويقربون من الخمسمائة ، من الغرباء والمجاورين . وفى ذلك الوقت كان بمكة قحط ، فكان الستة عشر منًّا من القمح بدينار مغربى ، وقد هاجر منها كثيرون .

وقد كان لأهالى كل مدينة من خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها منازل بمكة ، ولكن أغلبها كان خرابا وقتذاك . وقد بنى بها خلفاء بغداد عمارات كثيرة وأبنية جميلة ، وكان بعضها ، وأنا هناك ، خربا والبعض الآخر اشتراه الناس (أصبح ملكا خاصا) . وماء آبار مكة مالح ومُرّ لا يستساغ شربه . ولكن بها كثيراً من الأحواض والمصانع الكبيرة ، بلغت تكاليف الواحد منها أكثر من عشرة آلاف دينار . وهى تملأ من ماء الأمطار الذى يتدفق من الأودية . وكانت فارغة ونحن هناك .

وقد أنشأ ابن شاد دل أحد أمراء عدن مجرى للماء تحت الأرض ، وأنفق عليه أموالا كثيرة ، يسقى منه ما على حافتيه من شجر فى عرفات ، وقد حبس هذا الماء هناك حيث غرست الحدائق ، فلا يصل (قرب) مكة منه إلا القليل ، لأن القناة لا تبلغها . وهذا القليل يجمع فى حوض خارج مكة ، فيأخذ منه السقاءون ، ويذهبون به إليها ويبيعونه(١)

وعلى مسافة نصف فرسخ من طريق بُرْقة بئر يسمى بئر الزاهد ، عنده مسجد جميل . وماء هذا البئر عذب ، ويحمله السقاءون إلى مكة لبيعه . وجو مكة حار جدا ، وفى آخر بهمن القديم (يناير — فبراير) ، رأيت بها الخيار والأترج والباذنجان . وكانت كلها طازجة .

هذه هى المرة الرابعة التى أزور فيها مكة ، وقد مكثت بها مجاورا من غرة رجب ٤٤٢ (١٠ نوفمبر ١٠٥٠) إلى العشرين من ذى الحجة (٣ مايو ١٠٥١) . وقد أثمر بها العنب فى الخامس عشر من فروردين (مارس — أبريل) فأحضر من السواد إلى مكة

---

(١) أنشأته زبيدة زوج هرون الرشيد ، وذلك لإيصال ماء عين النعمان إلى مكة . وقد أصلحه كثير من الخلفاء وأمراء المسلمين . (شيفر ص ١٨٩) .

و بيع فى السوق . وكان البطيخ كثيرا فى أول اردبهشت (أبريل — مايو) . وكانت الفاكهة متوفرة طول الشتاء فلم تنقطع قط .

وصف بلاد العرب واليمن :

وحين يسير المسافر مرحلة واحدة جنوبى مكة يبلغ ولاية اليمن التى تمتد حتى شاطئ البحر . والحجاز واليمن متجاوران ولغتهما العربية . وفى الاصطلاح يقال لليمن حمير وللحجاز العرب . ويحيط البحر البلدين من ثلاث جهات ، فهما شبه جزيرة ، يحدها شرقا بحر البصرة وغربا بحر القلزم الذى تقدم أنه خليج وجنوبا البحر المحيط . وطول شبه الجزيرة هذه ، التى هى اليمن والحجاز من الكوفة إلى عدن أى من الشمال إلى الجنوب خمسمائة فرسخ ، وعرضها من عمان إلى الجار ، أى من الشرق إلى الغرب ، أربعمائة فرسخ . و بلاد العرب من الكوفة إلى مكة . و بلاد اليمن من مكة إلى عدن .

و بلاد العرب قليلة الخصب ، ويسكن أهلها الصحراء و يملكون الدواب والمواشى و يقيمون فى الخيام .

و بلاد حمير (اليمن) ثلاثة أقسام ، قسم منها يسمى تهامة وهو على الساحل الشرقى لبحر القلزم و به كثير من المدن والخصب ، مثل صعدة وزَبيد وصنعاء وغيرها . وهذه المدن مشيدة فى الصحراء وأمير هذا القسم عبد حبشى من أبناء شاددل .

والقسم الثانى من حمير جبلى يسمى نجدا ، و به أماكن مقفرة وأخرى شديدة البرد كما أن به أودية ضيقة وقلاعا محكمة .

والقسم الثالث ناحية المشرق و به مدن كثيرة منها نجران وعَثْر و بيشة وغيرها . و بهذا القسم طوائف كثيرة لكل منها ملك أو رئيس ، فليس له حاكم واحد ، فإن سكانه عتاة وأغلبهم لصوص وسفاكو دماء وهم كثيرون ومن كل جنس . ومساحة هذا القسم مائتا فرسخ فى مائة وخمسين .

وفى اليمن قصر غمدان [1] ، بمدينة اسمها صنعاء ، وقد بقى منه ما يشبه التل فى وسطها

---

(١) يذكر ياقوت قصر غمدان (ج ٦ ص ٣٠١ طبعة مصر) و يقول إن الذى بناه هو يشرح بن يحصب ، وإنه بنى على أربعة أوجه ، وجه أبيض ووجه أحمر ووجه أصفر ووجه أخضر ، وبنى =

ويقال ، هناك ، إن رب هذا القصر كان ملكا على العالم كله . كما يقال إن بهذا التل كنوزا ودفائن كثيرة ، ولكن أحدا لا يجرؤ على مد يده إليها ، سلطانا كان أو من الرعية . ويصنعون بصنعاء العقيق ، وهو حجارة تقطع من الجبل وتسوى على النار فى بواتق محاطة بالرمل ، ثم تعرض هكذا — وسط الرمل — لحرارة الشمس وبعد هذا يصقلونها بعجلة . وقد رأيت فى مصر سيفا أُحضر للسلطان من اليمن ، مقبضه قطعة واحدة من العقيق الأحمر كأنه ياقوت [1] .

وصف المسجد الحرام والكعبة :

قلنا إن الكعبة تقوم وسط المسجد الحرام ، وإن المسجد الحرام يقوم وسط مكة ، والمسجد ممتد طولا من الشرق إلى الغرب ، وعرضاً من الشمال إلى الجنوب . وسوره ليس قائم الزوايا ، بل أركانه مقوسة ، تميل إلى الاستدارة ، وذلك حتى تكون وجوه جميع المصلين شطر الكعبة ، فى أى جهة كانوا يصلون بالمسجد . وأقصى طول المسجد من باب إبراهيم إلى باب بنى هاشم ، أربع وعشرون وأربعمائة ذراع ، وعرضه من باب الندوة ، وهو جهة الشمال ، حتى باب الصفا ، وهو جهة الجنوب ، وأقصى اتساعه أربع وثلاثمائة ذراع . وبسبب استدارته ، تبدو ساحة المسجد أضيق فى جهة وأوسع فى جهة أخرى . وحوله ثلاثة أروقة رفعت أسقفها على أعمدة من الرخام . ووسط هذه الأروقة مربع . وعلى طول السقف من ناحية ساحة المسجد خمسة وأربعون طاقا ، وعلى عرضه ثلاثة وعشرون . وعدد الأعمدة الرخامية التى فيه أربعة وثمانون وأربعمائة عمود ، قيل إنها كلها ، أرسلت

= القصر على سبعة سقوف بين كل سقفين منها أربعون ذراعا ، وجعل فى أعلاه مجلسا بناه بالرخام الملون وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من أركانه تمثال أسد وكانت الريح إذا هبت إلى ناحية دخلت من شقوق فيه ثم خرجت فيسمع له زئير كزئير السباع (كما هو الحال فى تمثالى ممنون فى مصر . انظر دائرة المعارف البريطانية الرابعة عشرة مادة Memnon ، وكالذى يذكر المسعودى فى كلامه عن أديرة الصابئة) . وينسب بعض الكتاب هذا القصر إلى سليمان بن داود ، الذى أمر الشياطين ببنائه لبلقيس ، ويقال إنه هدم أيام عثمان بن عفان .

وقد أشار شيفر (١٩٣) إلى كتاب «بهجة الزمن فى أخبار اليمن» لضياء الدين عبدالله بن عبدالمجيد . وراجع المسعودى ج ١ ص ٢٨٤ عند كلامه عن وفد العرب إلى معد يكرب وهو بقصر غمدان .

(١) ذكر أحمد التيفشى فى كتابه عن الأحجار الكريمة باليمن الأنواع المختلفة للعقيق الذى يستخرج من هذا البلد . ولكنه لم يشر إلى كيفية صقله . (Schefer ص ١٩٤ (٢)) .

من الشام عن طريق البحر ، بأمر خلفاء بغـداد . وقيل إنه حين بلغت هذه العمد مكة ، بلغ ثمن الحبال التى شدت بها إلى السـفن والعجلات ، والتى قطّعت قطعا ، ستين ألف دينار مغربى . ومن هذه العمد عمود من الرخام الأحمر وضع عند باب الندوة ، قيل إنه اشترى بوزنه ذهباً ، ويقدر وزنه بثلاثة آلاف منّ . وللمسجد الحرام ثمانية عشر بابا ، عليها طيقان مقامة على عمد من الرخام ، وضعت بحيث لا تعوق فتح الأبواب . وعلى الجانب الشرقى أربعة أبواب هى من الركن الشمالى : باب النبى وبه ثلاثة طيقان مقفلة . وعلى هذا الجانب نفسه عند الطرف الجنوبى (للباب الأول) باب آخر يسمى باب النبى أيضاً ، وبين هذين البابين أكثر من مائة ذراع[1] . ولهذا الباب طاقان . وفى خارجه سوق العطارين . وقد كان منزل النبى عليه السلام فى هذه السوق ، وكان يدخل من هذا الباب للصـلاة فى المسجد . فإذا جاوز السائر هـذا الباب ، وجد على السور الشرقى أيضا ، باب على عليه السـلام ، وهو الباب الذى كان يدخل منه أمير المؤمنـين علىّ عليه السلام ، للصلاة بالمسـجد ، وله ثلاثة طيقان . فإذا جاوزه يجد عن ركن المسجد منارة أخرى يبدأ منها السعى ، وهى غير المنارة التى بباب بنى هاشم ، ومن عندها ينبغى الإسراع فى السـعى ، وهى إحدى المنارات الأربع المذكورة (المنارات الأربع فى طريق السعى)[2] .

وعلى الحائط الجنوبى الذى هو طول المسجد ، سبعة أبواب : أولها على الركن المقوس ، واسمة باب الدقاقين ، وله طاقان . وغربيه بقليل باب آخر ذو طاقين ، يقال له باب الفسانين (؟) وبعـده بقليل باب الصفا ، وله خمسة طيقان ، أكبرها الطاق الأوسط ، وعلى كل من جانبيه طاقان صغيران . وكان رسول الله عليه السـلام يخرج من هذا الباب ويذهب إلى الصفا ويدعو . وعتبة الطاق الأوسط مكونة من حجر أبيض كبير ، وكان بها حجر أسود وطئه الرسول عليه السلام بقدمه ، فارتسم نقش القدم المبارك عليه ، وقد نزع هـذا الجزء من الحجر الأسود وركب فى الحجر الأبيض بحيث تكون أطراف أصابع القـدم داخل

---

(١) يسمى هذان البابان الآن ، باب السلام وباب الجنائز . Schefer ص ١٩٥ . وراجع غنى زاده ص ١٠٤ (١١) حيث فسر « گوشهٔ جنوبى » بأن المقصود أن الباب الثانى فى الطرف الجنوبى للباب الأول . والطاق هو العقد .

(٢) فى هذه الجملة نقص واضطراب . غنى زاده ص ١٠٥ (٣) .

المسجد ، ويضع بعض الحجاج وجوههم على هذا الحجر و بعضهم يضعون أقدامهم تبركا ، وأعرف أن الأفضل أن أضع وجهى . و بعد هذا الباب بقليل ، ناحية المغرب ، باب السطوى[١] وله طاقان . ثم من بعده بقليل باب التمّارين وله طاقان ، ثم باب المعامل وله طاقان . ويقابله بيت أبى جهل وهو الآن مرحاض .

وعلى الحائط الغربى ، وهى عرض المسجد ، ثلاثة أبواب . الأول عند الركن الجنوبى واسمه باب عروة[٢] وله طاقان . وفى الوسط باب إبراهيم وله ثلاثة طيقان .

وعلى الحائط الشمالى وهى طول المسجد أربعة أبواب. فى الركن الغربى باب الوسيط وله طاق واحد . ومن بعده ، ناحيةَ المشرق ، باب العجلة وله طاق واحد . ومن بعده ، فى الوسط ، باب الندوة وله طاقان . ثم باب المشاورة وله طاق واحد . وعند زاوية المسجد ، فى الشمال الشرقى ، باب يسمى باب بنى شيبة[٣] .

والكعبة فى وسط ساحة المسجد ، وهى مستطيل طوله من الشمال إلى الجنوب ثلاثون ذراعا وعرضه من الشرق إلى الغرب ست عشرة ذراعا . وبابها شرقى ، بحيث يكون الركن العراقى على يمين الداخل ، وركن الحجر الأسود على يساره . ويسمى ركنها الجنوبى الغربى بالركن اليمانى ، وركنها الشمالى الغربى بالركن الشامى . والحجر الأسود مركب على زاوية الحائط فى حجر كبير ، بحيث إذا وقف رجل طويل القامة يكون مقابلا لصدره . وطول هذا الحجر شبر وأربعة أصابع ، وعرضه ثمانية أصابع ، وهو مستدير الشكل[٤] . و بينه و بين باب الكعبة أربع أذرع ويسمى ما بينهما الملتزم .

---

(١) كان يسمى باب الأجياد ويسمى الآن الباب الشريف . شيفر ١٩٦ .

(٢) صححه شيفر بأنه باب العمرة ثم قال إن الباب الثالث الذى يفتح فى الحائط الغربى هو باب الوداع وقد نسيه ناصر خسرو أو ناسخ النص . شيفر ص ١٩٧ .

(٣) لاحظ غنى زاده ص ١٠٦ (١٨) أن النص الفارسى أشار إلى سبعة عشر بابا مع أنه قال إن أبواب المسجد الحرام ثمانية عشر . وقد ذكرنا اسم الباب الناقص وهو باب الوداع .

ويلاحظ أن الرحالة المسلمين ، المقدسى وابن جبير والأزرقى وقطب الدين وغيرهم ، قد لاحظوا أن أسماء أبواب المسجد الحرام كانت تختلف باختلاف العصور . وللوقوف على هذه الأسماء المختلفة يراجع الجدول الذى عمله Burckardt فى الجزء الأول من ٢٠٤ — ٢٠٥ من رحلته فى الحجاز (ترجمة فرنسية ، Eyriés : Voyage en Arabie contenant la description des parties du Hedjaz regardées comme sacrées par les Musulmans ، وراجع Schefer ص ١٩٧) .

(٤) عندما احترقت الكعبة أثناء حرب عبدالله بن الزبير أذابت النار الحجر وشقته إلى ثلاث قطع . =

ويرتفع باب الكعبة عن الأرض أربع أذرع ، بحيث إذا وقف رجل مديد القامة على الأرض يصل إلى عتبته . وقد صُنع سلم من الخشب ، يضعونه وقت الحاجة أمام الباب ، فيصعد عليه الناس ويدخلون الكعبة ، ويسع عرض هذا السلم عشرة رجال ، يصعدون وينزلون بعضهم بجانب بعض . وأرض الكعبة عالية بهذا المقدار .

وصف باب الكعبة :

هو باب من خشب الساج ، له مصراعان . ارتفاعه ست أذرع ونصف ذراع وعرض كل من مصراعيه ذراع وثلاثة أرباع الذراع ، فعرضهما معاً ثلاث أذرع ونصف . وعلى صدر الباب وأعلاه كتابة ، كما أن عليه دوائر زخرفيـة من فضة ، وكتابات منقوشة بالذهب والفضة ، وقد كتبت عليه هذه الآية حتى آخرها : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة (مباركا وهدى للعالمين)[1] » . وله حلقتان كبيرتان من الفضة ، أرسلتا من غزنين ، وقد ركبتا فى مصراعيه بحيث لا تصل إليهما يد إنسان . ومن تحتهما حلقتان أخريان من الفضة ، أصغر حجما ، وموضوعتان بحيث تصل اليد إليهما . وفيهما قفل كبير من الفضة أيضا يقفل به الباب ولا يفتح مالم ينزع القفل .

وصف الكعبة من الداخل :

يبلغ سمك حائطها ستة أشبار . وأرضها مغطاة بالرخام الأبيض . وبالكعبة ثلاث خلوات صغيرة ، كأنها دكاكين ، إحداها تقابل الباب والأخريان على الجانب الشمالى . والأعمدة التى بالكعبة والتى أقيم عليها السقف كلها من خشب الساج

= فكان الزبير أول من ربط الركن الأسود بالفضة لما أصابه من حريق ثم كانت الفضة قد رقت وتزعزعت حول الحجر الأسود حتى خافوا على الركن أن ينقض فلما اعتمر هرون الرشيد وجاور فى سنة ٢٨٩/٩٠١ ، أمر بالحجارة التى بينها الحجر الأسود فثقبت بالماس من فوقها وتحتها ثم أفرغت فيها الفضة .

وفى ٣١٧/٩٣٠ استطاع أبو طاهر أن ينهب الكعبة وأن ينقل الحجر الأسود إلى لحسا كما سيقول ناصر خسرو (ص٩٤) ، وقد رده القرامطة ، بعد موت أبى طاهر ، سنة ٣٣٩/٩٥٠ . ويقال إن الحاكم بأمر الله أرسل إلى مكة رجلا ليكسر الحجر الأسود فضربه بقطعة من الحديد ثلاث مرات ، وقد قتل فى الحال وذبح الجند الذى أعد لحراسته ونهبت قافلة الحجاج من أهل مصر . راجع Schefer ص ١٩٠ وأخبار مكة للأزرقى ص ٢٣٥ (طبعة مكة) .

(١) سورة آل عمران آية ٩٦ .

المربع ، إلا عمودا واحداً مدوراً . وفى الجانب الشمالى قطعة مستطيلة من الرخام الأحمر ، يقال إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يصلى عليها . ويجتهد كل من يعرف ذلك أن يصلى هناك . وقد غطيت حوائط الكعبة بألواح الرخام الملون . وعلى الجانب الغربى منها ستة محاريب من الفضة ، ألصقت بالحائط بمسامير . ويبلغ ارتفاع كل منها قامة الرجل وهى مزينة بنقوش كثيرة من الذهب والفضة ، وهى مرتفعة عن الأرض . وحوائط الكعبة الأربعة ، حتى أربعة أذرع من الأرض ، خالية من النقوش ، وأما بعد ذلك إلى السقف ، فمزينة بالرخام المنقوش والموشى أغلبه بالذهب .

وفوق كل من الخلوات الثلاث التى ذكرتها والتى توجد إحداها فى الركن العراقى ، والأخرى فى الركن الشامى ، والثالثة فى الركن اليمانى ، فوق كل ركن منها ، لوحان من الخشب مثبتان على الحائط بمسامير من فضة ، وهى ألواح من خشب سفينة نوح عليه السلام ، طول كل منها خمس أذرع وعرضه ذراع واحد .

وقد أسدل على الخلوة التى خلف الحجر الأسود ستار من الديباج الأحمر . وحين يدخل السائر فى الكعبة يجد على اليد اليمنى زاوية مربعة بمقدار ثلاث أذرع فى مثلها . وهناك سلم يؤدى إلى سطح الكعبة ، عليه باب من الفضة له مصراع واحد ، يسمى باب الرحمة ، وعليه قفل من الفضة ، فإذا صار فوق سطح الكعبة يجد بابا آخر ، مثل الباب السابق منقوش بالفضة على وجهيه . وقد غطى سقف الكعبة بالخشب المغطى بالحرير الذى يحجبه عن الأنظار . وعلى حائط الكعبة الأمامى ، فوق العمد الخشبية ، كتابة ذهبية فيها اسم العزيز بالله سلطان مصر الذى استولى على مكة من الخلفاء العباسيين . وعلى الحائط أربعة ألواح أخرى كبيرة من الفضة ، متقابلة ، ومثبتة بمسامير من فضة . وعلى كل لوح منها اسم السلطان الذى أرسله من سلاطين مصر ، وكان كل منهم يرسل لوحا فى عهده .

وبين الأعمدة ثلاثة قناديل فضية معلقة ، وبلاط سطح الكعبة من الرخام اليمنى الذى يلمع كأنه البلور . وفى أركانها أربع روازن على كل منها لوح من الزجاج لينفذ منه النور ولمنع تسرب المطر .

والميزاب فى وسط الحائط الشمالى وطوله ثلاث أذرع ، وكله مطلىّ بالذهب .

والكسوة التى تغطى بها الكعبة بيضاء ، وقد طرزت فى موضعين ، عرض كل منهما ذراع ، و بينهما عشر أذرع تقريباً ، ومن فوقهما وتحتهما عشر أذرع أيضا ، بحيث ينقسم ارتفاع الكعبة إلى ثلاثة أقسام ، كل منها عشر أذرع ، بواسطة طرازى الكسوة . وعلى جوانب هذه الكسوة الأربعة نسجت محاريب ملونة مزينة بخيوط من ذهب . وعلى كل ناحية ثلاثة محاريب : محراب كبير فى الوسط ، ومحرابان صغيران على جانبيه فعلى النواحى الأربعة إثنا عشر محرابا .

وخارج الكعبة حائط علوه ذراع ونصف ، وتتصل نهايتاه بركنى الكعبة ، لأن هذا الحائط مقوس كنصف الدائرة ، وهو يبعد من منتصفه عن الكعبة مقدار خمس عشرة ذراعا ، وأرض هذا الموضع مبلطة بالرخام الملون المنقوش ، ويسمى الحِجْر . وبه يصب ماء الميزاب الذى فوق الكعبة ، وقد وضع تحته قطعة من الحجر الأخضر على شكل محراب ، يسقط عليها الماء ، وهى كبيرة بحيث يستطيع رجل أن يصلى عليها .

ومقام إبراهيم عليه السلام شرقى الكعبة . وهو الحجَر الذى به آثار قدمى إبراهيم عليه السلام . وهو مركب فى حجر آخر وعليه غلاف مربع من الخشب ، بارتفاع قامة الرجل ، وهو فى غاية الدقة ، ووضعت عليه ألواح من الفضة . وقد أُحكم ربط الغلاف بالحائط بسلاسل من الجانبين ، وعليه قفلان ، وذلك حتى لا يستطيع أحد أن يلمس الحجر . وبين الكعبة ومقام إبراهيم ثلاثون ذراعا .

بئر زمزم :

بئر زمزم[1] شرقى الكعبة ، حذاء ركن الحجر الأسود . وبين زمزم والكعبة ست

---

(١) يرجع تاريخها ، عند رواة العرب ، إلى أيام هاجر أم اسماعيل ، فإنه لما طلب الماء فلم تجده جاء جبريل وغمز الأرض بعقبه فنبع الماء وكانت زمزم . . . ثم بنيت مكة حولها وسكنتها قبيلة جرهم التى يقال إنها طمست البئر حين نفيت من مكة . وقد كشفها وزاد فى غورها عبد المطلب بن هاشم وولده الحارث . وقد وجد عبد المطلب بها الأوانى الذهبية والأسلحة التى ألقاها فيها بنو جرهم ، ثم أمر بتوزيع مائها على الحجاج الذين كانوا يفدون كل عام لزيارة الكعبة . وقد أخذ ماؤها فى التناقص فعمل الولاة فى السنين ٢٣ و ٢٤ و ٢٠٠ (٦٤٣ و ٦٤٤ و ٨١٥) على زيادة غورها وتدعيم جدرانها . =

وأربعون ذراعا ، وسعة البئر ثلاث أذرع ونصف فى مثلها . وماؤها ملح ولكنه يستساغ . وقد بنوا عند فوهتها خرزة من الرخام الأبيض ارتفاعها ذراعان ، وفى جوانب حجرة زمزم الأربعة أحواض يصب فيها الماء ، ويتوضأ الناس به . وأرضها من الخشب المشبك ليسيل الماء الذى يراق بها . وبابها ناحية المشرق .

***

وأمام البئر ناحية المشرق ، بناء آخر مربع عليه قبة ، يسمى سقاية الحاج ، وضع به أزيار يشرب منها الحجاج . وبعد هذا البناء ، ناحية الشرق ، بناء آخر مستطيل ، عليه ثلاث قباب ، يسمى خزانة الزيت ، به الشمع والزيت والقناديل .

وحول الكعبة أعمدة يتصل بعضها بالبعض بواسطة عروق من الخشب ، عليها زخارف ونقوش من الفضة ، ومعلق بها الحلق والكلاّبات ، حتى يوضع الشمع فى هذه وتدلى المصابيح من تلك بالليل ، ويسمى هذا الموضع المشاعل ، ويفصله عن الكعبة خمسون ومائة ذراع ، وهى مسافة الطواف .

فجملة المبانى التى بساحة المسجد الحرام ، عدا الكعبة المعظمة ، شرفها الله تعالى ، ثلاثة ، هى بيت زمزم وسقاية الحاج وخزانة الزيت .

وتحت السقف المحيط بالمسجد ، بجانب الحائط ، صناديق من جميع مدن المغرب ومصر والشام والروم والعراقين وخراسان وما وراء النهر وغيرها .

وعلى مسافة أربعة فراسخ شمالى مكة ، ناحية تسمى بُرقة يقيم بها أمير مكة مع جيش خاص به ، وهناك ماء جار وأشجار ، ومساحتها فرسخان طولا فى مثلهما عرضاً .

وفى هذه السنة كنت بمكة مجاوراً منذ أول رجب . وعادتهم أن يفتحوا باب الكعبة كل يوم فى هذا الشهر منذ شروق الشمس .

= ويقول الأزرقى (٣٠٠ — ٣٠١) إن فى قعر البئر ثلاث عيون : عين حذاء الركن الأسود وعين حذاء أبى قبيس وعين حذاء المروة . وفى ١٤١٩/٨٢٢ عمر بيت زمزم وأحواضه والظلة التى فوقه للمؤذنين على نفقة الشيخ على بن محمد بن عبد الكريم الجيلانى . وفى ١٥٢٦/٩٣٣ عمل لدائر بيت زمزم طراز مذهب وكتب فيه اسم السلطان سليمان . وفى ١٥٤١/٩٤٨ جدد الأمير خشقلدى بيت زمزم فرخمت أرضه وجعل عليه سقف فوقه مظلة مسقوفة بالخشب المزخرف عليه جالون فى وسطه قبة مصفحة بالرصاص . وفى ١٦١١/١٠٢٠ وضعت شبكة من الحديد بداخل البئر ومنخفضة عن سطح الماء بمقدار متر حتى لايغرق المجاذيب إذا ألقوا بأنفسهم فيها وقد أمر بذلك السلطان أحمد خان . راجع مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا ج ١ ص ٢٥٥ وما بعدها وشيفر ٢٠٦ .

وصف فتح باب الكعبة :

امتازت قبيلة من العرب تسمى بنى شيبة ، بحفظ مفتاح باب الكعبة ، وهم خدمها . وكان لهم خلع ومشاهرات من سلطان مصر . ولهم رئيس بيده المفتاح . وحين يجىء يصاحبه خمسة أو ستة أفراد ، وحين يصلون ينضم إليهم عشرة من الحجاج فيرفعون السلم الذى قدمنا وصفه ويضعونه أمام الباب ، فيصعد هذا الشيخ ويقف على العتبة ، ويصعد بعده رجلان ويرفعان الستار والديباج الأصفر ، يمسك كل منهما طرفا منه بحيث يحجب الشيخ وهو يفتح الباب . يفتح الشيخ القفل ، وينزعه من الحلق ، بينما الحجاج وقوف أمام الكعبة. فحين يفتح الباب يرفعون أيديهم بالدعاء ، فيعرف كل من يسمع صوتهم بمكة أن باب الكعبة قد فتح ، فيرفع الناس جميعاً أصواتهم عالية ويدعون ربهم ، وتحدث جلجلة عظيمة بالبلد . ثم يدخل الشيخ ، بينما الرجلان يمسكان الستار ، ويصلى ركعتين . ثم يعود فيفتح الباب على مصراعيه ، ويقف على العتبة ، ويقرأ الخطبة عليهم بصوت مرتفع ، ويصلى على رسول الله عليه الصلوات والسلام وعلى أهل بيته ، ثم يقف الشيخ وأصحابه على جانبى باب الكعبة ، بينما يأخذ الحجاج فى الصعود ودخول الكعبة ، فيصلى كل منهم ركعتين ثم يخرج ، ويدوم ذلك إلى قرب منتصف النهار . ويولون وجوههم أثناء صلاتهم بالكعبة نحو الباب ، مع جواز التوجه نحو الجوانب الأخرى . وقد أحصيت الناس فى وقت كانت الكعبة ممتلئة فيه ، حتى لم يكن بها مكان لداخل ، فكانوا عشرين وسبعمائة رجل . وعامة حجاج اليمن يشبهون الهنود ، فكل منهم يتشح بفوطة ، وشعورهم متدلية ، ولحاهم مضفرة ، وفى وسط كل منهم حربة قطيفية كالتى يتمنطق بها الهنود ، ويقال إن أصل الهنود من اليمن ، وأن قتالة أصلها كتارة (الحربة) ثم عربت . ويفتح باب الكعبة أيام الإثنين والخميس والجمعة من أشهر شعبان ورمضان وشوال . فإذا جاء ذو القعدة أغلق الباب .

عمرة الجعرانة :

على أربعة فراسخ من شمال مكة ، مكان يسمى الجِعْرَانة ، كان به النبى عليه السلام مع جيشه فى السادس عشر من ذى القعدة فأحرم منه وجاء إلى مكة واعتمر . وهناك

بئران : بئر الرسول و بئر على بن أبى طالب صلوات الله عليهما . وماء البئرين عذب جدا و بينهما عشر أذرع . وقد اتخذت هذه العمرة النبوية سنة تؤدى فى هذا الموسم . وقرب البئرين صخرة كبيرة ، فيها فجوات كأنها كؤوس ، يقال إن النبى عليه السلام عجن الدقيق فيها بيديه . والذين يزورون هذا المكان يعجنون الدقيق بأيديهم بماء هذين البئرين . و يتخذون من الأشجار الكثيرة هناك وقودا للخبز الذى يرسلونه إلى الأقطار تبركا . وهناك أيضاً صخرة كبيرة مرتفعة ، يقال إن بلالا الحبشى كان يقف عليها و يؤذن للصلاة ، ويصعد عليها الزائرون ويؤذنون وحين كنت بالجعرانة كان بها أناس كثيرون وكان بها أكثر من ألف جمل بالعماريات مما يبين كثرة الزائرين الآخرين .

***

ومن مصر إلى مكة عن الطريق الذى سرت فيه هذه المرة ثلاثمائة فرسخ . ومن مكة إلى اليمن إثنا عشر فرسخاً .

وتقع صحراء عرفات بين جبال صغيرة كالتلال ، ومساحتها فرسخان فى مثلهما . وكان بها مسجد بناه إبراهيم عليه السلام ، لم يبق منه هذه الساعة غير منبر خرب من الطوب النيئ ، يصعد عليه الخطيب فى صلاة الظهر و يخطب ، ثم يؤذنون للصلاة ثم يصلون جماعة ركعتين ، سنة المسافرين ، ثم يقيمون الصلاة و يصلون جماعة ركعتين أخريين ثم يجلس الخطيب على جمل و يتجه شرقا والناس وراءه . وعلى بعد فرسخ جبل حجرى صغير يسمى جبل الرحمة . هناك يقفون و يدعون حتى وقت الغروب .

وقد أوصل ابن شاد دل ، الذى كان أميراً لعدن ، الماء إلى جبل الرحمة من مكان بعيد وأنفق فى ذلك مالا طائلا . ويحمل الماء من هذا الجبل إلى صحراء عرفات ، حيث عملت أحواض تملأ ماء أيام الحج حتى يتيسر الماء للحجيج . وقد بنى هذا الأمير ، فوق جبل الرحمة ، طاقا مربعا كبيراً ، يضعون فوق قبته كثيرا من القناديل والشموع ليلة عرفة ويومه ، فيرى نورها من مسافة فرسخين . وقيل إن أمير مكة أخذ ألف دينار من ابن شاد دل ليجيز له إقامة هذا الطاق .

فى التاسع من ذى الحجة سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٢٧ ابريل ١٠٥١) قضيت الحجة الرابعة بعون الله سبحانه وتعالى . ولما غابت الشمس عاد الحجاج والخطيب من

عرفات ، وساروا فرسخا إلى المشعر الحرام . ويسمونه المزدلفة . وهناك بناء جميل كالمقصورة يصلى فيه الناس ويأخذون منه حجارة الرجم التى يرمونها بمنى. والعادة أن يقضى الحجاج هذه الليلة ، وهى ليلة العيد ، هناك ، حيث يصلون الفجر ، وعند طلوع الشمس يتوجهون إلى منى حيث يضحون . وهناك مسجد كبير يسمى مسجد خيف . وليس من الفروض إلقاء الخطبة وصلاة العيد بمنى فى ذلك اليوم ، ولم يأمر بهما المصطفى عليه السلام ويكون الحجاج بمنى فى العاشر من ذى الحجة ، وهناك يرمون الحجارة ، وشرح ذلك مذكور فى مناسك الحج . وفى الثانى عشر من ذى الحجة يغادر منى من عزم على العودة لبلاده ، ويذهب إلى مكة أهلها .

الى لحسا عن طريق الطائف ومطار والثريا وجزع وسربا وفلج واليمامة :

بعد إتمام الحج استأجرت جملا من أعرابى لأذهب إلى لحسا ، وقيل إنهم يبلغونها من مكة فى ثلاثة عشر يوما . وقد ودعت بيت الله يوم الجمعة تاسع عشر ذى الحجة سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٧ مايو سنة ١٠٥١) الموافق أول خرداد القديم (مايو — يونيو). وقد وجدنا مرجا بعد سبعة فراسخ من مكة عنده جبل ، ولما بلغناه وجدنا سهلا وقرى وبئرا اسمها بئر الحسين بن سلامة . وكان الجو بارداً ، وقد سرنا ناحية المشرق .

بلغنا الطائف يوم الاثنين الثانى والعشرين من ذى الحجة ، ومن مكة إلى هناك إثنا عشر فرسخا . والطائف ناحية على رأس جبل . وكان الجو بارداً فى شهر خرداد (مايو — يونيو) حتى لزم الجلوس فى الشمس ، بينما يكثر البطيخ بمكة فى هذا الوقت . وقصبة الطائف هذه مدينة صغيرة بها حصن محكم وسوق وجامع صغيران ، وبها ماء جار وأشجار رمان وتين كثيرة . وبجوارها قبر عبد الله بن عباس رضى الله عنه [1] . وقد بنى خلفاء بغداد هناك مسجداً كبيراً يقع القبر فى زاويته ، على يمين المحراب والمنبر . وبنى الناس هناك بيوتاً يسكنونها .

سرنا من الطائف واجتزنا جبالا وأراضىَ صخرية ، وكنا نجد حيثما سرنا قلاعا محصنة وقرى . وقد أرونى وسط الصخور قلعة خربة ، قيل إنها كانت بيت ليلى ، وقصتهم فى

---

(١) توفى بها سنة ست وثمانين هجرية (٦٨٧) فى العام الحادى والسبعين من عمره .

هذا عجيبة . ومن هناك بلغنا قلعة تسمى مُطار ، وبينها و بين الطائف إثنا عشر فرسخا . ثم بلغنا ناحية تسمى الثريا بها نخيل كثير ، وتزرع أرضها بمياه الآبار والسواقى . قالوا وليس لهذه الناحية حاكم أو سلطان ، فإن على كل جهة رئيسا أو سيدا مستقلا ، ويعيش الناس على السرقة والقتل وهم فى حرب دائم بعضهم مع بعض [١] . ومن الطائف إلى هناك خمسة وعشرون فرسخاً . و بعد ذلك مررنا بقلعة تسمى جزع . وعلى مسافة نصف فرسخ منها أربع قلاع ، نزلنا عند أكبرها وتسمى حصن بنى نسير [٢] ، وهناك قليل من النخيل ، و بيت العربى الذى استأجرنا جمله فى الجزع هـذه . وقد لبثنا هناك خمسة عشر يوما إذ لم يكن معنا خفـير يهدينا الطريق . ولـكل قوم من عرب هذا المـكان أرض محددة ترعى بها ماشيتهم ، ولا يستطيع أجنبى أن يدخلها ، فهم يمسكون كل من يدخل بغير خفير ويجردونه مما معه . فيلزم استصحاب خفير من كل جماعة حتى يتيسر المرور من أرضهم ، فهو وقاية المسافر ، ويسمونه أيضاً مرشد الطريق (قلاوز) . وقد اتفق أن جاء إلى الجزع رئيس الأعراب الذين كانوا فى طريقنا وهم بنو سواد ، واسمه أبو غانم عبس بن البعير ، فاتخذناه خفيراً ، وذهبنا معه . وقابلنا قومه ، فظنوا أنهم لقوا صيداً ، إذ أن كل أجنبى يرونه يسمى صيداً ، فلما رأوا رئيسهم معنا أسقط فى أيديهم ، ولولا ذلك لأهلـكونا . وفى الجملة لبثنا معهم زمناً ، إذ لم يكن معنا خفـير يصحبنا . ثم أخذنا من هناك خفيرين ،

---

(١) يقول شيفر ص ٢١٦ ، نقلا عن مخطوط فى مكتبته اسمه « تاريخ مستنصرى » ، فى الصفحتين ٤٥ — ٤٦ ، إن جمال الدين بن المجاور يؤيد ما ذهب إليه ناصر خسرو فيما يتعلق بسكان الجزء الجنوبى الشرقى من الطائف حيث يقول :

إن هذا المـكان يشتمل على قرى تـكاد تـكون متساوية فى المساحة . يسكن كلا منها جماعة أو قبيلة من الأعراب . وهم لا يرضون أن يقيم أجنبى فى أرضهم أو يقف بها . وفى كل قرية قلعـة من الحجر والطين ولـكل مواطن حجرة بها يضع فيها أملاكه وما ينهب ، ويأخذ منها حاجياته كل يوم . ويقيم السكان فى أربعة شوارع واسعة مشيدة حول القلعة وتخضع كل قرية لشيخها ، الذى يختار من بين كبارهم لسنه وذكائه ، ولا ينازعه أحد السلطة ولا يعارضه فى رأى . ولا تعرف هـذه البلاد سلطاناً ولا يدفع السكان أى ضريبة ، فلا يعطون غير ما يشاءون . وكل قرية فى عداء دائم مع الأخرى . ويعمل كل منهم على انتزاع ما يملك جاره . فأقارب زيد مشتغلون بانتزاع ما يملك أقارب عمرو ، ويزرع هؤلاء الأعراب القمح والشعير ، وفى بلادهم العنب والرمان واللوز . وغذاؤهم الرئيسى الزبدة والعسل . وهم يرجعون نسبهم إلى قحطان أو غيره .

(٢) صححها شيفر ببنى نمير ، وهم من أبناء عامر ، يسكنون الجبال والوديان فى جزء من بلاد نجد واليمامة . راجع ياقوت ج٢ ص ٢٨٩ ، وشيفر ص ٢١٧ .

أجر كل منهما عشرة جنيهات ، ليسيرا بنا بين قوم آخرين . وقد كان من هؤلاء العرب شيوخ فى السبعين من عمرهم قالوا لى إنهم لم يذوقوا شيئاً غير لبن الإبل طوال حياتهم ، إذ ليس فى هذه الصحراء غير علف فاسد تأكله الجمال ، وكانوا يظنون أن العالم هكذا . وظللت أتحول من قوم إلى قوم ، وأجد فى كل مكان خطراً وخوفا ، إلا أن الله تبارك وتعالى سلمنا منها .

وبلغنا مكاناً فى وسط أرض تملؤها الصخور يسمى سَرْبا . رأيت به جبالا كل منها كالقبة(١) ، لم أر مثلها فى أى ولاية ، وهى من الارتفاع بحيث لا يصل إليها السهم ، وملساء كبيضة الطائر ، وصلبة بحيث لا يظهر عليها شق أو التواء . وقد سرنا من هناك ، فكان زملاؤنا فى الطريق كلما رأوا ضبا قتلوه وأكلوه ، وكانوا يحلبون لبن الجمال حيث وُجد الأعراب . ولم أكن أستطيع أكل الضب أو شرب لبن الجمال . وفى كل جهة فى الطريق شجر به تمر فى حجم حبة البسلة ، فكنت أقنع بأكل حبات منها . وبعد معاناة مشاق ومتاعب كثيرة بلغنا فلج فى الثالث والعشرين من صفر (٤٤٣/١٠٥١) .

فلج :

ومن مكة إليها ثمانون ومائة فرسخ . وتقع فلج هذه وسط البادية وهى ناحية كبيرة ، ولكنها خربت بالتعصب . وكان العمران ، حين زرناها ، قاصرا على نصف فرسخ فى ميل عرضا . وفى هذه المسافة أربع عشرة قلعة للصوص والمفسدين والجهلة . وهى مقسمة بين حزبين بينهما خصومة وعداوة دائمة . وقد قالوا نحن من أصحاب الرقيم الذين ذكروا فى القرآن الكريم . وهناك أربع قنوات يسقى منها النخيل . أما زرعهم ففى أرض عالية يرفع إليها معظم الماء من الآبار . وهم يستخدمون فى زراعتهم الجمال لا الثيران ولم أرها هناك . وزراعتهم قليلة . وأجر الرجل فى اليوم عشرة سيرات(٢) من غلة ، يخبزها أرغفة . ولا يأكلون إلا قليلا من صلاة المغرب حتى صلاة المغرب التالية ، كما فى رمضان ويأكلون التمر أثناء النهار . وقد رأيت هناك تمرا طيبا جدا أحسن مما فى البصره وغيرها . والسكان هناك فقراء جدا و بؤساء ، ومع فقرهم فإنهم كل يوم فى حرب وعداء وسفك دماء

(١) تسمى هذه الجبال بجبل الطويق ، شيفر ٢١٩ .
(٢) يزن السير خمسة عشر مثقالا ، شيفر ص ٢٢٠ .

وهناك تمر يسمونه ميدون ، تزن الواحدة منه عشرة دراهم . ولا يزيد وزن النوى به عن دانق ونصف . ويقال أنه لا يفسد ولو بقى عشرين سنة . ومعاملتهم بالذهب النيشاپورى وقد لبثت بفلج هذه أربعة أشهر فى حالة ليس أصعب منها . لم يكن معى من شئون الدنيا سوى سلتين من الكتب ، والناس جياع وعراة وجهلاء ، ويلتزمون حمل الترس والسيف إذا ذهبوا للصلاة ، ولا يشترون الكتب . وكان هناك مسجد نزلنا فيه ، وكان معى قليل من اللونين القرمزى واللازورد ، فكتبت على حائط المسجد بيت شعر ووضعت فى وسطه ورق الشجر ، فرأوه وتعجبوا وتجمع أهل القلعة كلها ليتفرجوا عليه . وقالوا لى إذا تنقش محراب هذا المسجد نعطيك مائة منّ تمرا ، ومائة منّ تمرا عندهم شىء كثير ، فقد أتى ، وأنا هناك ، جيش من العرب وطلب منهم خمسمائة منّ تمرا فلم يقبلوا وحاربوا ، وقتل من أهل القلعة عشرة رجال ، وقلعت ألف نخلة ولم يعطوهم عشرة أمنان تمرا ! وقد نقشت المحراب كما اتفقوا معى ، وكان لنا فى المائة منّ من التمر عون كبير إذ لم يكن ميسورا أن نجد غذاء ، ولم يكن لدينا أمل فى الحياة ولم نكن نستطيع أن نتصور خروجنا من هذه البادية ، إذ كان ينبغى للخروج منها ، عن أى طريق ، اجتياز مائتى فرسخ من الصحراء ، كلها مخاوف ومهالك . ولم أر فى الأشهر الأربعة التى أقمتها بفلج خمسة أمنان من القمح فى أى مكان . وأخيرا أتت قافلة من اليمامة لأخذ الأديم وحمله إلى الحسا . فإنه يُحضر من اليمن إلى فلج حيث يباع للتجار . قال لى أعرابى : أنا أحملك إلى البصرة . ولم يكن معى شىء قط لأعطيه أجرا ، والمسافة مائتا فرسخ وأجرة الجمل دينار . ويباع الجمل العظيم هناك بدينارين أو ثلاثة . ولكنى رحلت نسيئة إذ لم يكن معى نقود ، فقال الأعرابى : أحملك إلى البصرة على أن تأجرنى ثلاثين دينارا ، فقبلت مضطرا ، ولم أكن قد رأيت البصرة قط . فوضع هؤلاء الأعراب كتبى على جمل أركبوا عليه أخى ، وسرت أنا راجلا . وتوجهنا فى اتجاه مطلع بنات النعش (الدب الأكبر) . كان الطريق مستويا لا جبال فيه ولا مرتفعات ، وكان ماء المطر متجمعا حيثما كانت الأرض أشد صلابة . ومضت ليال وأيام ، ولم يبد فى أى جهة أثر الطريق إلا أنهم كانوا يسيرون بالغريزة (السمع) ، ومن العجيب أنهم كانوا يبلغون فجأة بئر ماء مع عدم وجود أى علامة .

اليمامة .

وبالاختصار بلغنا اليمامة بعد مسيرة أربعة أيام بلياليها . وباليمامة حصن كبير قديم ، والمدينة والسوق ، حيث صناع من كل نوع ، يقعان خارج الحصن . وبها مسجد جميل . وأمراؤها علويون منذ القديم[1] . ولم ينتزع أحد هذه الولاية منهم إذ ليس بجوارهم سلطان أو ملك قاهر ، وهؤلاء العلويون ذوو شوكة ، فلديهم ثلاثمائة أو أربعمائة فارس . ومذهبهم الزيدية[2] ، وهم يقولون فى الإقامة « محمد وعلى خير البشر وحىّ على خير العمل » . وقيل إن سكان هذه المدينة شريفية (خاضعون للأشراف) . وباليمامة مياه جارية فى القنوات وفيها نخيل . وقيل إنه حين يكثر التمر يباع الألف منّ منه بدينار . ومن اليمامة إلى لحسا أربعون فرسخا . ولا يتيسر الذهاب إليها إلا فى فصل الشتاء حين تتجمع مياه المطر فيشرب الناس منها ، ولا يكون ذلك فى الصيف .

وصف لحسا (الأحساء أو الحسا) :

ولحسا مدينة فى الصحراء ، ولبلوغها ، عن أى طريق ، ينبغى اجتياز صحراء واسعة . والبصرة أقرب البلاد الإسلامية التى بها سلطنة إلى لحسا . وبينهما خمسون ومائة فرسخ . ولم يقصد سلطان من البصرة لحسا أبداً .

ولحسا مدينة وسواد أيضاً وبها قلعة ، ويحيط بها أربعة أسوار قوية متعاقبة من اللبن المحكم البناء بين كل اثنين منها ما يقرب من فرسخ . وفى المدينة عيون ماء عظيمة ، تكفى كل منها لإدارة خمس سواق ، ويستهلك كل هذا الماء بها ، فلا يخرج منها . ووسط القلعة مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التى فى المدن الكبيرة . وفيها أكثر من عشرين ألف محارب . وقيل أن سلطانهم كان شريفا وقد ردهم عن الإسلام ، وقال إنى أعفيتكم من الصلاة والصوم ، ودعاهم إلى أن مرجعهم لا يكون إلا إليه واسمه أبو سعيد . وحين يُسألون عن مذهبهم يقولون : إنا أبوسعيديون ، وهم لا يصلون ولا يصومون ، ولكنهم يقرون بمحمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وبرسالته . وقد قال لهم أبو سعيد إنى راجع إليكم ، يعنى بعد الوفاة . وقبره داخل المدينة ، وقد بنوا عنده قبرا

---

(١) من عائلة طباطبا ، ورأسهم هو الإمام يحى الهادى من نسل الحسن بن على بن أبى طالب ، شيفر ٢٢٤ .

(٢) الزيدية أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب .

جميلا ، وقد أوصى أبناءه قائلا : « يرعى الملك ويحافظ عليه ستة من أبنائى يحكمون الناس بالعدل والقسطاس ولا يختلفون فيما بينهم حتى أعود » . ولهؤلاء الحكام الآن قصر منيف ، هو دار ملكهم[١] . وبه تخت يجلسون هم الستة عليه ويصدرون أوامرهم بالاتفاق ، وكذلك يحكمون . ولهم ستة وزراء . فيجلس الملوك على تخت والوزراء على تخت آخر ، ويتداولون فى كل أمر . وكان لهم فى ذلك الوقت ثلاثون ألف عبد زنجى وحبشى ، يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين . وهم لا يأخذون عشوراً من الرعية ، وإذا افتقر إنسان أو استدان يتعهدونه حتى يتيسر عمله ، وإذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال الذى له . وكل غريب ينزل هذه المدينة وله صناعة ، يعطى ما يكفيه من المال حتى يشترى مايلزم صناعته من عدد وآلات ويرد (إلى الحكام) ما أخذ حين يشاء . وإذا تخرب بيت أو طاحون أحد الملاك ، ولم تكن لديه القدرة على الإصلاح ، أمروا جماعة من عبيدهم بأن يذهبوا إليه ويصلحوا المنزل أو الطاحون . ولا يطلبون من المالك شيئاً . وفى لحسا مطاحن مملوكة للسلطان ، تطحن الحبوب للرعية مجاناً ، ويدفع فيها السلطان نفقات إصلاحها وأجور الطحانين . وهؤلاء السلاطين الستة يسمون السادات ، ويسمى وزراؤهم الشائرة . وليس فى مدينة لحسا مسجد جمعة ، ولا تقام بها صلاة أو خطبة . إلا أن رجلا فارسيا اسمه على بن أحمد بنى مسجداً ، وهو مسلم حاج غنى كان يتعهد الحجاج الذين يبلغون لحسا . والبيع والشراء والعطاء والأخذ يتم هناك بواسطة رصاص فى زنابيل يزن كل منها ستة آلاف درهم ، فيدفع الثمن عدداً من الزنابيل ، وهذه العملة لا تسرى فى الخارج . وينسجون هناك فوطا جميلة ويصدرونها للبصرة وغيرها . وإذا صلى احد فإنه لا يمنع ، ولكنهم أنفسهم لا يصلون . ويجيب السلاطين من يحدثهم من الرعية برقة وتواضع . ولا يشربون مطلقا . وعلى باب قبر أبى سعيد حصان مهيأ بعناية ، عليه طوق ولجام ، يقف بالنوبة ليلا ونهاراً ، يعنون بذلك أن أبا سعيد يركبه حين يرجع إلى الدنيا . ويقال إنه قال لأبنائه : « حين أعود ولا تعرفونى ، إضربوا رقبتى بسيفى ، فإذا كنت أنا حييتُ فى الحال » . وقد وضعت هذه الدلالة حتى لا يدعى أحد أنه أبو سعيد .

(١) يعرف هذا القصر بدار الهجرة ، أنظر ص ٤٠ من : De Goeje, Historie des Qarmathes du Bahreïn . وراجع كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك اليمانى ص ٣٣ وما بعدها (طبعة مصر ١٩٣٩)

وقد ذهب أحد هؤلاء السلاطين بجيش إلى مكة ، أيام خلفاء بغداد ، فاستولى عليها ، وقتل من كان يطوف بالكعبة ، وانتزع الحجر الأسود من مكمنه ، و نقله إلى لحسا . وقد زعموا أن هذا الحجر مغناطيس يجـذب الناس إليه من أطراف العالم ، ولم يفقهوا أن شرف محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وجلاله هما اللذان يجذبان الناس ، فقد لبث الحجر فى لحسا سنين عديدة ولم يذهب إليها أحد . وأخيراً أشترى منهم الحجر الأسود وأعيد إلى مكانه[١] .

وفى لحسا تباع لحوم الحيوانات كلها ، من قطط وكلاب وحمير و بقر وخراف وغيرها ، وتوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشترى ماذا يشترى . وهم يسمنون الكلاب هناك كما تعلف الخراف ، حتى لا تستطيع الحركة من سمنها ، ثم يذبحونها و يبيعون لحمها .

والبحر على مسيرة سبعة فراسخ من لحسا إلى ناحية الشرق ، فإذا اجتازه المسافر وجد البحرين ، وهى جزيرة طولها خمسة عشر فرسخاً ، والبحرين مدينة كبيرة أيضاً ، بها نخل كثير . ويستخرجون من هذا البحر اللؤلؤ ، ولسلاطين لحسا نصف ما يستخرجه الغواصون منه . و إذا سار المسافر جنوب لحسا يبلغ عمان ، وهى فى بلاد العرب . وثلاثة جوانب منها صحراء لا يمكن اجتيازها . وولاية عمان ثمانون فرسخاً فى مثلها ، وهى حارة الجو ، ويكثر بها الجوز الهندى المسمى نارجيل . و إذا أبحر المسافر من عمان نحو الشرق ، يبلغ شاطىء كيش ومِكْران ، و إذا سار جنوبا يبلغ عدن . فإذا سار فى الجانب الآخر يبلغ فارس .

وفى لحسا تمر كثير حتى أنهم يسمنون به المواشى ، ويأتى وقت يباع فيه أكثر من ألف منّ بدينار واحد . وحين يسير المسافر من لحسا إلى الشمال سبعة فراسخ يبلغ جهة القطيف وهى مدينة كبيرة بها نخل كثير . وقد ذهب أمير عربى إلى أبواب لحسا ورابط هناك سنة واستولى على سور من أسوارها الأربعة وشن عليها غارات كثيرة ولكنه لم ينل من أهلها شيئاً ، وقد سألنى حين رآنى عما تنبىء به النجوم ، قال : أريد أن استولى

---

(١) انظر تعليقات ص ٨١ ، ٨٢ من هذا الكتاب وراجع سياست نامه ص ١٩٨ .

على لحسا فهل أستطيع أم لا فإن أهلها قوم لا دين لهم » . فأجبته بما فيه الخير له .

وعندى أن كل البدو يشبهون أهل لحسا ، فلا دين لهم ، ومنهم أناس لم يمس الماء أيديهم مدة سنة . أقول هذا عن بصيرة ، لا شيء فيه من الأراجيف ، فقد عشت فى وسطهم تسعة شهور دفعة واحدة لا فرقة بينها . ولم أكن أستطيع أن أشرب اللبن الذى كانوا يقدمونه إلىّ كلما طلبت ماء لأشرب ، فحين أرفضه وأطلب الماء يقولون : اطلبه حيثما تراه ، ولكن عند من تراه ؟ . وهم لم يروا الحمامات أو الماء الجارى فى حياتهم .

وصف فارس

البصرة :

والآن أعود إلى حكايتى :

حينما غادرنا لحسا[1] إلى البصرة كنا نجد الماء فى بعض الجهات ولا نجده فى أخرى ، حتى بلغنا البصرة فى العشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (٢٨ ديسمبر ١٠٥١) . للبصرة سور عظيم يحيط بها ، ما عدا الجزء المطل على النهر . وهذا النهر هو شط العرب ، ويلتقى دجلة والفرات عند حدود مدينة البصرة ، ويلتقى بهما أيضا قناة الحويزة فيسمى النهر حينئذ شط العرب . ويتفرع من شط العرب هذا قناتان كبيرتان بين منبعهما مسافة فرسخ وقد شقا صوب القبلة مسافة أربعة فراسخ ، ثم يلتقيان ويكونان قناة واحدة تسير مسافة فرسخ واحد ناحية الجنوب . ومن هاتين القناتين شقت ترع كثيرة ، مدت فى كل الأطراف ، وغرست أشجار النخيل والحدائق على شواطئها . والقناة العليا ، وهى الشمالية الشرقية ، تسمى نهر معقل ، والثانية ، وهى الغربية الجنوبية ، تسمى نهر الأبلة . ومنهما تتكون جزيرة كبيرة مستطيلة . والبصرة على أقصر ضلع من هذا المستطيل . والجنوب الغربى للبصرة صحراء ليس بها عمران ولا ماء ولا شجر مطلقا . وكان معظم البصرة خرابا ونحن هناك . والجهات العامرة متباعدة جدا ، من واحدة لأخرى نصف فرسخ من الخراب ولكن بابها وسورها محكمان وقويان ، وبها خلق كثير ودخل سلطانها كبير . كان أميرها فى ذلك الوقت ، ابن أبى كاليجار الديلمى الذى كان ملك فارس ، وكان وزيره رجلا فارسيا

---

(١) يقول النص اليمامة وصحتها لحسا كما يبدو من سياق الكلام .

اسمه أبو منصور شاه مردان[1] . وينصب السوق فى البصرة فى ثلاث جهات كل يوم ففى الصباح يجرى التبادل فى سوق خزاعة ، وفى الظهر فى سوق عثمان ، وفى المغرب فى سوق القداحين . والعمل فى السوق هكذا : كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكا ثم يشترى كل ما يلزمه ، ويحول الثمن على الصراف فلا يستخدم المشترى شيئا غير صك الصراف طالما يقيم بالمدينة .

حين بلغنا البصرة كنا من العرى والفاقة كأنا مجانين ، وكنا قد لبثنا ثلاثة شهور لم نحلق شعر رأسنا ، فأردت أن أذهب إلى الحمام ، التمس الدفء ، فقد كان الجو باردا ولم يكن علينا ملابس . كنت ، أنا وأخى ، كلانا يلبس فوطة بالية ، وعلى ظهرينا خرقة من الصوف متدلية من الرأس ، حتى قلت لنفسى من الذى يسمح لنا الآن بدخول الحمام ؟ فبعت السلتين اللتين كانت بهما كتبى ووضعت بعض دراهم من ثمنهما فى ورقة لأعطيها للحمامى ، عسى أن يسمح لنا بوقت أطول فى الحمام لنزيل ما علينا من كدر . فلما قدمت إليه هذه الدراهم ، نظر إلينا شذرا وظن أننا مجانين وانتهرنا قائلا اذهبوا فالآن يخرج الناس من الحمام . ولم يأذن لنا بالدخول ، فخرجنا فى خجل ومشينا مسرعين . وكان بباب الحمام أطفال يلعبون فحسبونا مجانين ، فجروا فى أثرنا ، ورشقونا بالحجارة وصاحوا بنا . فلجأنا إلى زاوية وقد تملكنا العجب من أمر الدنيا . وكان الأعرابى يطلب منا الثلاثين دينارا مغربيا ولم نكن نعرف وسيلة للسداد وكان بالبصرة وزير ملك الأهواز واسمه أبو الفتح على بن أحمد ، وهو رجل أخلاق وفضل يجيد معرفة الشعر والأدب وكان كريما وقد جاء البصرة مع أبنائه وحاشيته وأقام بها ، ولم يكن لديه ما يشغله ، وكنت عرفت رجلا فارسيا فاضلا من أصدقاء الوزير والمترددين عليه كل وقت ، وكان هذا الفارسى فقيرا ، لا وسعة عنده لإعانتنا ، فقص على الوزير قصتنا فلما سمعها أرسل إلى رجلا ومعه حصان أن اركب واحضر عندى كما أنت . فخجلت من سوء حالى وعريى ولم أر الذهاب مناسبا فكتبت رقعة معتذرا وقلت فيها إنى سأكون فى خدمته

---

(١) أبو نصر فيروز أبو كاليجار ولى الإمارة سنة ٤٤٠ / ١٠٤٨ ، ولقب بالملك الرحيم ، وقد عزله طغرل بيك سنة ١٠٥٥/٤٤٧ .

ووزيره منصور بن شاه مردان هو الذى أنشأ داراً للكتب فى البصرة كان بها نفائس الكتب وأعيانها ، وقد نهبها وأحرقها أعراب لحسا فى هجومهم على البصرة سنة ١٠٩٠/٣٤٨ : ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٣ طبعة مصر .

(بعد وصول ورقتى إليه) وكان قصدى من الكتابة شيئين . أن يعرف فقرى وعلمى حين يطلع على كتابتى وأن يقدر أهليتى ، وذلك حتى لا أخجل من زيارته . وقد أرسل إلىّ فى الحال ثلاثين دينارا لشراء كسوة ، فاشتريت حلتين جميلتين ، وفى اليوم الثالث ذهبت لمجلس الوزير فرأيته رجلا كاملا ، أديبا ، فاضلا ، جميل الخلقة ، متواضعا ، ديّنا ، حلو الحديث . وله أربعة أبناء أكبرهم شاب فصيح أديب عاقل ، اسمه الرئيس أبو عبد الله أحمد ابن على بن أحمد . وكان شاعراً وكاتباً ، فيه فتوة الشباب ورجاحة العقل ومظاهر التقوى ، وقد أضافنا الوزير عنده من أول شعبان إلى نصف رمضان . ثم أمر بإعطاء الأعرابى الذى استأجرنا جمله ، الثلاثين ديناراً التى له على ، فكفانى مؤونة هذا الدين ، اللهم تباركت وتعاليت فرّج ضيق المدينين من عبيدك من همّ القرض بحق الحق وأهله . ولما أردنا السفر ، رحّلنا عن طريق البحر ، بعد أن أفاض علينا بنعمه وأفضاله ، فبلغنا فارس فى كرامة وهدوء ، ببركة هذا الرجل الحر ، رضى الله عز وجل عن الرجال الأحرار .

وفى البصرة ثلاثة عشر مشهداً باسم أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، يقال لأحدها مشهد بنى مازن ، وذلك أن أمير المؤمنين عليا صلى الله عليه وسلم جاء إلى البصرة فى ربيع الأول سنة خمس وثلاثين (سبتمبر ٦٥٥) من هجرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وكانت عائشة رضى الله عنها قد أتت محاربة ، وقد تزوج أمير المؤمنين عليه السلام ليلى بنت مسعود النهشلى ، وكان هذا المشهد بيتها ، وقد أقام به أمير المؤمنين اثنين وسبعين يوما ، ثم رجع إلى الكوفة[1] . وبجانب المسجد الجامع مشهد آخر يسمى مشهد باب الطيّب . ورأيت فى مسجد البصرة عموداً من الخشب طوله ثلاثون ذراعا وسمكه خمسة أشبار وأربعة أصابع ، وكان أحد طرفيه أسمك من الطرف الآخر ، قيل أنه من أخشاب بلاد الهند ، استولى عليه أمير المؤمنين علىّ عليه السلام وأحضره للبصرة . والأحد عشر مشهدا الأخرى ، كل منها بموضع ، وقد زرتها كلها .

بعد أن أيسرنا ، ارتدينا ملابسنا ، وذهبنا يوما إلى ذلك الحمام الذى لم يسمح

---

(١) وقد أنجب على منها ولديه عبيد الله وأبا بكر اللذين قتلا مع أخيهما الحسين .

لنا بدخوله من قبل . فوقف الحمامى عند دخولنا من الباب ، وكذلك وقف كل من الحاضرين ، حتى دخلنا ، ثم جاء المدلك والقيم وقاما بخدمتنا . فلما فرغنا ودخلنا غرفة الملابس ، وقف كل من بها ، ولم يجلسوا حتى لبسنا ثيابنا وخرجنا . وفى أثناء ذلك كان الحمامى يقول لصاحب له : هـذان هما الرجلان اللذان لم ندخلهما الحمام يوم كذا . وكان يظن أننى لا أعرف لغته ، فقلت له بالعربية : حقا ما تقول فنحن اللذان كنا نلبس خرقة من الصوف على ظهرنا . فخجل الرجل واعتذر . وكان بين هذين الحالين عشرون يوما . وقد ذكرت هذا الفصل حتى يعرف الناس أنه لا ينبغى التذمر من أزمات الزمان واليأس من رحمة الخالق جل جلاله وعم نواله فإنه تعالى رحيم .

وصف المد والجزر بالبصرة ووصف أنهارها :

يحدث المد ببحر عُمان عادة مرتين كل أربع وعشرين ساعة ، فيرتفع الماء مقـدار عشر أذرع . وحين يبلغ الارتفاع أقصى مداه يبدأ الجزر بالتدريج . فينخفض المـاء عشرا أو اثنتى عشرة ذراعا . ويعرف بلوغ ارتفاع الماء مقدار الأذرع العشر بظهوره على عمود أقيم هناك أو على حائط . ولو كانت الأرض مستوية وغير عالية ، لعظم امتداد البحر إليها . ويسير النهران ، دجلة والفرات ، بغاية البطء ، حتى يتعذر ، فى بعض الجهات ، معرفة اتجاه التيار فيهما . وحين يبدأ المد يدفع البحر ماءهما مسافة أربعين فرسخا حتى يظن إنهما يرتدان إلى منبعيهما . أما فى الأماكن الأخرى التى تقع على شاطىء البحر ، فإن امتداد المد إليها يتوقف على ارتفاعها وانخفاضها ، فحيثما استوت الأرض ازداد المد ، وحيثما ارتفعت قل . ويقال إن المد والجزر متعلقان بالقمر ، فيبلغ المد أقصى مداه حين يكون القمر على الأفقين ، يعنى أفقى المشرق والمغرب . ومن ناحية أخرى حين يكون القمر فى اجتماع الشمس واستقبالها يزداد الماء ، أى أن المد يزيد فى هـذه الأوقات ويعظم ارتفاعه ، وحين يكون القمر فى التربيعات تأخذ المياه فى النقصان ، يعـنى لا يكون علوها كثيرا وقت المد ، ولا ترتفع ارتفاعها وقت الاجتماع والاستقبال . وكذلك يكون جزرها فى هذه الحالة أقل هبوطا منه فى وقت الاجتماع والاستقبال . وبهذه الدلائل يقولون

إن المد والجزر متعلقان بالقمر ، والله تعالى أعلم .

والأبلة ، التى تقع على النهر المسمى بها ، مدينة عامرة . وقد رأيت قصورها وأسواقها ومساجدها وأربطتها ، وهى من الجمال بحيث لا يمكن حدها أو وصفها . والمدينة الأصلية تقع على الجانب الشمالى للنهر ، وعلى جانبه الجنوبى يوجد من الشوارع والمساجد والأربطة والأسواق والأبنية الكبيرة مالا يوجد أحسن منه فى العالم ، وهذا الجانب الجنوبى يسمى شق عثمان . والشط الكبير ، الذى هو دجلة والفرات مجتمعين ، والمسمى شط العرب ، يقع شرقى الأبلة ، والمدينة فى الجنوب . ويلتقى نهرا الأبله ومعقل عند البصرة . وقد ذكرت ذلك من قبل .

وصف أحياء البصرة :

والبصرة عشرون ناحية ، فى كل منها كثير من القرى والمزارع وهى : حِشان ، شربه ، بِلاس ، عقر ميسان ، المقيم ، نهر حرب ، شط العرب ، سعد ، سام ، الجعفرية ، المشان ، الصُمد ، الجونة ، الجزيرة العظمى ، مروت ، الشرير ، جزيرة العرش ، الحميدة ، الحويزة ، المنفردات .

ويقال إنه كان من المتعذر فى وقت ما أن تمر سفينة من فم نهر الأبلة ، لعظم عمق مائه ، فأمرت امرأة من أثرياء البصرة بتجهيز أربعمائة مركب وملأتها كلها بنوى التمر وأغرقتها هناك بعد إحكام سدادها ، فارتفع القاع وتيسر عبور السفن . وفى الجملة فقد غادرنا البصرة فى منتصف شوال سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (٢٠ فبراير ١٠٥٢) ، فركبنا الزورق وسرنا فى نهر الأبله ، ورأينا طوال أربعة فراسخ فى اجتيازه حدائق وأكشاكا ومناظر لا تنقطع على شاطئيه . ويتفرع من هذا النهر ترع كل منها فى سعة نهر . فلما بلغنا شق عثمان وهى أمام الأبله نزلنا وأقمنا بها . وفى السابع عشر من شوال (٢٢ فبراير) ركبنا سفينة كبيرة تسمى بُوصِى . وكان الناس الكثيرون الواقفون على الجانبين يصيحون قائلين : سلمك الله تعالى يا بوصى . وقد بلغنا عبادان فنزل الركاب من السفينة .

تقع عبادان على شاطىء البحر ، وهى كالجزيرة ، إذ أن الشط ينقسم هناك إلى قسمين

مما يجعل بلوغها متعذراً ، من أى ناحية ، بغير عبور الماء . ويقع المحيط جنوب عبادان ، ولذا فإن الماء يبلغ سورها وقت المد ، كما أنه يبتعد عنها أقل من فرسخين أثناء الجزر . ويشترى بعض المسافرين الحصير من عبادان ، ويشترى البعض الآخر المأكولات منها . وفى صباح اليوم التالى ، أجريت السفينة فى البحر ، وسارت بنا شمالا ، وكان الماء حلواً مستساغا ، لغاية عشرة فراسخ ، ذلك لأن ماء الشط يسير كاللسان فى وسط البحر . ولما ارتفعت الشمس ظهر فى البحر شىء يشبه العصفور الدرى ، وكان يكبر كلما اقتربنا منه ، فلما واجهناه من اليسار على مسافة فرسخ خالفت الرياح ، فرموا المرساة ، ولفوا الشراع . فسألت ما هذا ؟ قالوا إنه الخشاب .

وصف الخشاب (المنار) :

يتكون من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق . وهو مربع قاعدته متسعة وقمته ضيقة ، ويرتفع عن سطح البحر أربعين ذراعا ، وعلى قمته حجارة وقرميد مقامة على عمد من خشب كأنها سقف ، ومن فوقها أربعة عقود يقف بها الحراس . ويقول البعض إن الذى بنى الخشاب هذا تاجر كبير ، ويقول آخرون بل بناه أحد الملوك . وكان الغرض منه شيئين : أحدهما أنه بنى فى جهة ضحلة يضيق البحر عندها ، فإذا بلغتها سفينة كبيرة ارتطمت بالأرض . فى الليل يشعلون سراجا فى زجاجة بحيث لا تطفئه الرياح ، وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون ، والثانى ليعرف الملاحون الاتجاه ، وليروا القرصان إن وُجدوا فيتقونهم بتحويل اتجاه السفينة . ولما اجتزنا الخشاب ، بحيث أصبح لا يرى ، رأينا آخر مثله ، ولكن ليس على سطحه قبة لأنهم لم يستطيعوا إكماله .

***

ومن هناك بلغنا مدينة مهروبان ، وهى مدينة كبيرة على شاطىء البحر الشرقى ، بها سوق كبير وجامع جميل ، ولكن ماءها من المطر ، وليس بها آبار أو قنوات من الماء العذب ، وقد اتخذ أهلها أحواضا ومصانع ليكون الماء متوفراً دائما . وقد بنى بها ثلاثة أربطة ، كل منها كأنه حصن محكم ومرتفع . وقد رأيت على منبر مسجدها الجامع اسم

يعقوب بن الليث ، فسألت واحداً كيف كان ذلك ؟ فقال : إن يعقوب بن الليث الصفار[(١)] استولى على البلاد لغاية هذه المدينة ، ولم يكن لأمير آخر من أمراء خراسان هذه القوة . وفى الوقت الذى كنت بها ، كانت مهروبان ملكا لأبناء أبى كاليجار الذى كان ملك فارس ، ومأكولات هذه المدينة تحمل إليها من المدن والولايات الأخرى ، إذ ليس بها شىء سوى السمك . وفيها تحصل المكوس ، فهى ميناء . وحين يسير المسافر منها جنوبا على شاطىء البحر ، يبلغ توه وكازرون . وقد لبثت بمهروبان زمنا ، لأنه قيل إن الطرق ليست آمنة لما بين أبناء أبى كاليجار من الحروب . فقد كان كل منهم على رأس جيش وكان الملك مضطرباً[(٢)] . وسمعت أن بأرّجان رجلا عظيما فاضلا هو الشيخ السديد محمد بن عبد الملك ، وكنت قد سئمت من كثرة ما أقمت بمهروبان ، فكتبت له خطابا وأعلمته بحالى والتمست منه أن يرحلنى من هذه المدينة إلى بلد أمين . فلما أرسلت الكتاب جاءنى فى اليوم الثالث ثلاثون راجلا مدججون بالسلاح وقالوا : قد أرسلنا الشيخ لنكون فى خدمتك إلى أرجان ، وقد اصطحبونا آمنين إليها .

أرجان مدينة كبيرة بها عشرون ألف رجل ، وفى الجانب الشرقى منها نهر ينحدر من الجبل الذى شقت عند جانبه الشمالى أربع ترع عظيمة تتخلل المدينة وقد أنفق فى إنشائها مال كثير . وتسير هذه الترع إلى ماوراء أرجان وقد زرعت على شواطئها الحدائق والبساتين وبها كثير من النخل وأشجار النارنج والترنج والزيتون . وبنيت أرجان بحيث يكون ما تحت الأرض من بيوتها مساويا لما فوقها . ويتخلل الماء هذه المساكن الأرضية والسراديب ، فى جميع جهات المدينة ، حيث يستروح الناس فى فصل الصيف . والناس

---

(١) رأس الأسرة الصفارية ٢٥٤ — ٢٦٥/٨٦٨ — ٨٧٨ .

(٢) كان لفيروز أبى كاليجار عز الملوك بن المرزبان تسعة أبناء : فيروز خسرو الذى خلفه على ملك البويهيين والذى لقب بالملك الرحيم ، وأبو منصور فولاذستون ، وأبو طالب كمران ، وأبو المظفر بهرام ، وأبو على كيخسرو ، وأبو سيد خسرو شاه وثلاثة آخرون أصغر سنا . وقد ثار أبو منصور فولاذستون على أخيه فى شيراز ، واحتمى فى قلعة اصطخر ، وحاصر أخاه أبا سعيد خسرو شاه . وقد أدت الخصومات بين الملك الرحيم وأخوته إلى عزل خوزستان وفارس إلى سنة ٤٤٧/١٠٥٥ وهى السنة التى اضطر التى اضطر فيها أبو منصور الذى اعترف بسيادة طغرل بيك إلى الفرار من شيراز والاتجاه إلى فيروز آباد .

هناك على مذاهب شتى . وإمام المعتزلة اسمه أبو سعيد البصرى وهو رجل فصيح يدعى العلم بالهندسة والحساب ، وقد تباحثت معه وسأل كل منا الآخر وأجابه ، كما سمعت منه فى علمى الكلام والحساب وغيرهما .

غادرت أرجان فى أول المحرم سنة أربع وأربعين وأربعمائة (٢ مايو ١٠٥٢) ، وقد اتجهنا ناحية أصفهان عن طريق كوهستان ، فبلغنا فى الطريق جبلا به شق ضيق يقول العامة إن بهرام كورشقه بسيفه ويسمونه شمشير بُريد . ورأينا فى هذا المكان ماء متدفقا يتفجر من عين على يميننا ، وينزل من مكان عال ، ويقول العامة إن هذا الماء يدوم تفجره فى الصيف وأما فى الشتاء فيقف ويتجمد .

ثم بلغنا لوردغان ، وبينها وبين أرجان أربعون فرسخاً ، ولوردغان هذه هى حدود فارس . ومن هناك بلغنا خان لنجان ورأيت اسم السلطان طغرل بيك مكتوبا على بابها ومنها إلى أصفهان سبعة فراسخ . ويعيش أهل خان لنجان آمنين هادئين ، كل منهم مشتغل بعمله وشئون بيته . وفى الثامن من صفر سنة أربع وأربعين وأربعمائة (١٠ يونيو ١٠٥٢) قمنا من هناك فبلغنا مدينة أصفهان . ومن البصرة إليها ثمانون ومائة فرسخ . وهى مشيدة على أرض مستوية ، ماؤها عذب وهواؤها عليل . وحيثما حفرت الأرض عشر أذرع خرج ماء عذب بارد . وللمدينة سور مرتفع حصين به بوابات ومقاتلات وعلى السور شرفات ، وفيها أنهار جارية وأبنية جميلة مرتفعة ، وفى وسطها مسجد جمعة جميل جدا . ويقال إن طول سورها ثلاثة فراسخ ونصف . وكلها عامرة من الداخل فلم أر بها خرابا قط ، وبها أسواق كثيرة ، ورأيت فيها سوقا من أسواق الصرافين كان بها مائتا صراف . ولكل سوق سور وبوابة محكمة ، وكذلك للأحياء والشوارع . وأربطتها نظيفة ، وفى شارع اسمه كوطراز (شارع الطرازين) خمسون رباطا جميلا ، فى كل منها تجار ومستأجرون كثيرون . والقافلة التى صحبناها فى الطريق كانت تحمل ثلاثمائة وألف خروار من البضائع . ولما دخلنا أصفهان لم يتحدث عن دخولنا أحد ، إذ لا تضيق أماكن السكنى أو تتعذر الإقامة أو المؤن بها . ولما استولى السلطان طغرل بيك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق رحمة الله عليه على هذه المدينة ولى عليها شابا نيسابوريا ، كان كاتبا مجيدا حسن الخط ،

هادئا حسن اللقاء ولقبه الخواجه العميد[1] كان صاحب فضل ، حلو الحديث ، كريما . وكان السلطان قد أمر بأن لا يُطالب الناس بشيء مدة ثلاث سنين ، فسار على ذلك ، وأعاد المهاجرين إلى أوطانهم . وكان هذا الرجل من كتاب الشورى . وكان بأصفهان ، قبل مجيئنا ، قحط عظيم ، ولكن حين بلوغنا إياها كان الشعير قد جمع وكان المن والنصف من خبز القمح يساوى درهما عدلا ، وكذلك كانت ثلاثة الأمنان من الشعير . وقال الناس هناك إن أحدا منهم لم ير أنه بيع بها بدرهم أقل من ثمانية أمنان من الخبز . ولم أر فى كل البلاد التى تتكلم الفارسية ، مدينة أجمل ولا أكثر سكانا وعمرانا من أصفهان . وقيل إنه إذا خزن بها القمح أو الشعير أو غيرهما من الحبوب مدة عشرين سنة لا يفسد . وقال البعض إن هواءها كان أحسن قبل إنشاء السور ، وإنه تغير بعد إنشائه ، بحيث تفسد بعض الأشياء . أما الريف فقد ظل هواؤه كما كان . وقد أقمت بأصفهان عشرين يوما بسبب تأخر قيام القافلة . وفى الثامن والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين وأربعمائة (٣٠ يونيو ١٠٥٢) بلغنا قرية تسمى هَيْثم آباد ، ومن هناك بلغنا قصبة نايين عن طريق الصحراء وجبل مسكيان . ومن أصفهان إلى هناك ثلاثون فرسخا . وقد سرنا من نايين مسافة ثلاثة وأربعين فرسخا حتى بلغنا قرية كرمة من ناحية بيابان التى بها عشر أو اثنتا عشرة قرية ، وهى جهة جوهاجار وبها نخيل . وكانت تابعة قديما للقُفص[2] . وحين بلغناها كان الأمير گيلكى قد استولى عليها منهم ونصب عليها نائبا من قبله ، وجعل مقامه فى قرية ذات قلعة تسمى پيادة . وقد ضبط هذا الحاكم الولاية وجعل طرقها آمنة . وإذا قطع القُفص الطريق يرسل إليهم الأمير گيلكى جنده فيقبضون عليهم ويستردون منهم المال ويقتلونهم . وقد أصبح الطريق آمناً ، واستراح الناس بفضل هذا الأمير العظيم ، اللهم تباركت وتعاليت احفظ وانصر وأعن السلاطين العادلين ، وارحم

---

(١) يلقب حكام أصفهان بلقب العميد والعميد المذكور هنا هو سورى بن المعتز ، وقد جاء ذكره فى تاريخ البيهقى ص ٥١١ طبعة الهند وفى راحت الصدور للراوندى ص ٩٤ .

(٢) أصلها كوفج ثم عربت . وهم قوم يسكنون جبال كرمان ويسمون الكوج أيضا ويذكرون غالبا مع البلوج فيقال كوج وبلوج . وإليها أشار نظام الملك فى كتابه سياست نامه الفصل العاشر ص ٦٠ وقد ذكر قصة نهب الكوج والبلوج لدير كچين وكيف تحايل السلطان محمود الغزنوى على قتلهم .

المتوفين منهم . وقد بنيت ، فى هـذا الطريق الصحراوى ، بين كل فرسخين فى المواضع غير الملحة قبابٌ صغيرة وخزانات يتجمع فيها ماء المطر ، وقد شيدت القباب حتى لا يضل المسافرون الطريق ، ولـكى يأووا إليها ساعات فى الحر والبرد . وقد رأينا فى الطريق الرمل المتحرك ، وكل من يتحول عن العلامات (التى وضعت فى الطريق للإرشاد) ، فإنه لا يستطيع الخروج من وسط هذا الرمل و يهلك . و بدا لنا طوال ستة فراسخ أرض ملحة متحركة يختفى فيها من ينحرف إليها عن الطريق المحدود . ومن هناك ذهبنا عن طريق رباط زبيدة المسمى رباط المرامى ، وهو يحتوى على خمس آبار ، ولولا هذا الرباط والماء الذى به لما استطاع أحد اجتياز هذه الصحراء . ثم دخلنا ناحية طَبَس ، فى قرية تسمى رستاباد . وفى التاسع من ربيع الأول سنة أربع وأربعين وأربعمائة (٩ يوليو ١٠٥٢) بلغنا طبس . ويقال إن بينها و بين أصفهان عشرة ومائة فرسخ . وطبس مدينة مزدحمة ولوانها تشـبه القرية ، ماؤها قليل وزراعتها أقل وبها النخل والبساتين وتقع نيسابور على مسيرة أربعين فرسخاً منها ، شمالا . وخبيص على مسيرة أربعين فرسخاً جنوباً فى طريق الصحراء . وناحية المشرق جبل صعب المرتقى . وكان أميرها فى ذلك الوقت گيلـكى بن محمد الذى استولى عليها بالسيف . والناس هناك فى سلام وأمن عظيمين ، حتى أنهم لا يغلقون بيوتهم ليلا ، ويتركون البهائم فى الطريق ، مع أن المدينـة غير مسورة . ولا تجرؤ امرأة على الـكلام مع شخص أجنبى عنها ، فإذا فعلت قتل الإثنان . وكذلك لا سرقة ولا قتل ، بفضل حزم الأمير وعدله [1] .

وقد رأيت الأمن والعـدل ، فيما رأيت من بلاد العرب والعجم فى أربعة مواضع : الأول بالدشت أيام لشكرخان ، والثانى فى الديلم أيام أمير الأمراء جستان بن إبراهيم ، والثالث بمصر أيام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، والرابع بطبس أيام الأمير أبى الحسن گيلـكى بن محمد ، فلم أسمع على كثرة ما سافرت بمثل ما فى هذه الجهات من الأمن ولم أره .

وقد استبقانا الأمير رضى الله عنه ، سبعة عشر يوماً بطبس ، وأضافنا وأمر لنا بصلات وقت الرحيل ، معتذراً عن ضآلتها ، وأرسل معنا أحد فرسانه حتى زوزن التى تقع على مسيرة اثنين وسبعين فرسخا .

---

(١) تعرف هذه المدينه باسم طبس التمر أو طبس گيلـكى نسبة لأميرها گيلـكى بن محمد . انظر كتاب « حدود العالم » ، تعليقات مينورسكى ص ٣٢٦ (مجموعة جب ١١) . والمعجم ج ٦ ص ٢٨ مصر .

و بعد إثنى عشر فرسخا من قيامنا من طبس بلغنا قصبة تسمى الرقة ، بها مياه جارية وزرع و بساتين وأشجار وحصن ومسجد جمعة وقرى ومزارع كبيرة . وفى التاسع من ربيع الآخر (٨ أغسطس) غادرنا الرقة . وفى الثانى عشر من هذا الشهر بلغنا تون ، و بينهما عشرون فرسخاً . وتون مدينة كبيرة ، ولكن معظمها كان خرابا حين رأيتها . وهى على حافة واد به الماء الجارى والقنوات ، وفى جانبها الشرقى بساتين كثيرة . ولها حصن محكم . وقيل إنه كان بها أربعمائة مصنع للسجاد . وفى المدينة كثير من شجر الفستق فى بساتين المنازل . و يعتقد سكان بلخ وطُخارستان أن الفستق لا ينبت ولا ينمو إلا على الجبال .

ولما رحلنا من تون ، حكى لى الرجل الذى بعثه معنا الأمير گيلكى ، فقال : كنا ذاهبين ذات مرة من تون إلى كناباد ، فخرج علينا اللصوص وتغلبوا علينا ، فألقى بعضنا من الخوف بنفسه فى بئر تجرى تحت الأرض ، وكان لواحد من هؤلاء والد شفوق فجاء واستأجر رجلا لينزل إلى البئر ويخرج ولده منها . واستعان الجماعة بكل ما لديهم من الحبال وأتى رجال كثيرون ، ونزل الرجل مسافة سبعمائة ذراع حتى بلغ القاع وربط الولد بالحبل وجروه ميتا ، وقد قال الرجل حين طلع من البئر إن بها ماء عظيما يتدفق جاريا تحت الأرض مسافة أربعة فراسخ ، و يقال إن كيخسرو هو الذى أمر بحفرها .

وفى الثالث والعشرين من شوال (٢٣ أغسطس) بلغنا مدينة قاين ، وبينها و بين تون ثمانية عشر فرسخا ، تجتازها القافلة فى أربعة أيام ، وهى مسافة شاقة . وقاين مدينة كبيرة حصينة حولها خندق . وبها مسجد جمعة به مقصورة عليها عقد عظيم لم أر أكبر منه فى خراسان ، وهو غير متناسب مع حجم المسجد . وعلى جميع بيوت المدينة قباب ، وزوزن على مسيرة ثمانية عشر فرسخاً من الجانب الشرقى الشمالى لقاين . ومنها جنوبا إلى هراة ثلاثون فرسخا . ورأيت بقاين رجلا اسمه أبو منصور محمد بن دوست ، ملم بكل علم ، من طب وفلك ومنطق ، فسألنى : أى شىء خارج هذه الأفلاك والأنجم ؟ قلت : يسمى شيئاً ما يكون داخل الأفلاك ، أما ماوراءها فلا يجوز أن يسمى شيئاً . فقال : ما وراء السموات معنوى أم مادى ؟ قلت : لا جدال أن العالم محدود ، وحدّه فلك الأفلاك . والحد

ما يفصل فلكا عما عداه . فإذا عُلم هذا وجب أن يكون ما وراء الأفلاك مخالفاً لما فى داخلها . قال : هذا المعنى الذى يثبته العقل هل له نهاية من هذه الناحية ؟ إن كانت له نهاية فأين ؟ و إن كان لا نهايه له ، فكيف يقبل اللا متناهى الفناء ؟ ، وتكلمنا زمناً على هذا النحو ، فقال : أنا كثير الحيرة من هذا . فقلت : ومن لا يحار فيه . وعلى كل حال فقد لبثنا بقاين شهرا ، بسبب ثورة كانت فى زوزن آثارها عُبَيْد النيسابورى وتمرد رئيس زوزن . وقد أرجعت من هناك الفارس الذى بعثه معنا الأمير گيلكى . وخرجنا من قاين قاصدين سَرَخس فبلغناها فى الثانى من جمادى الآخرة (أول كتوبر) ، وقدرت من البصرة إلى سرخس تسعين وثلاثمائة فرسخ . وقد غادرنا سرخس عن طريق الرباط الجعفرى والرباط العمروى والرباط النعمتى ، وهى ثلاثة أربطة متقاربة على الطريق .

وفى الثانى عشر من جمادى الآخر بلغنا مدينة مرو الرود ، وخرجنا منها بعد يومين وتبعنا طريق آبِ كرم ، وفى التاسع عشر بلغنا فارياب بعد إن سرنا ستة وثلاثين فرسخا . وكان أمير خراسان جغرى بيك أبو سليمان داود بن ميكائيل بن سلجوق فى شبورغان ، وكان يقصد الذهاب إلى دار ملكه مرو . وقد اتبعنا طريق سنكلان ، بسبب الثورات ، ثم اتجهنا ناحية بلخ عن طريق سه دره ، فلما بلغنا رباطها سمعنا أن أخى أبا الفتح عبد الجليل كان فى حاشية وزير أمير خراسان المسمى أبا نصر .

وقد مضى على خروجنا من خراسان سبعة أعوام ، فلما بلغنا دستكرد ، رأينا أمتعة تنقل إلى شبورغان ، فسأل أخى الذى كان معى لمن هذه ؟ فقيل له : إنها لهذا الوزير . فسألهم هل تعرفون أبا الفتح عبد الجليل ؟ فقالوا إنه كان معنا ، ثم اقترب منا خادم وسألنا من أين أتيتم ؟ فقلنا من الحج . قال : إن لسيدى أبى الفتح عبد الجليل أخوين ذهبا للحج منذ سنوات وهو دائم الشوق إليهما ، وكلما سأل عنهما أحدا لا يدله . قال أخى : إنا نحمل من ناصر كتابا ، فحين يصل سيدك نسلمه إياه . و بعد قليل سارت القافلة وسرنا معها فقال هذا الخادم : إن سيدى يصل الآن ، فإذا لم يجد كما يضيق صدره ، فإذا أعطيتمانى الكتاب لأسلمه له يسر به . فقال له أخى : أتريد خطاب ناصر أم ناصراً نفسه ؟ هذا هو ناصر . ففرح الخادم ولم يعرف ماذا يفعل . وسرنا نحن إلى بلخ عن طريق ميان روستا .

وقد جاء أخى الخواجه أبو الفتح عبد الجليل إلى دستكرد عن طريق الصحراء ، وكان ذاهباً مع الوزير إلى أمير خراسان . فلما سمع بأمرنا عاد من دستكرد ، وانتظرنا على رأس قنطرة جموكيان إلى أن وصلنا . وكان هذا فى يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الآخر سنة أربع وأربعين وأربعمائة (٢٦ اكتوبر ١٠٥٢) . وقد التقينا ، وفرحنا باللقاء وشكرنا الله سبحانه وتعالى ، وذلك بعد أن فقدنا الأمل فى اللقاء ، وبعد أن تعرضنا للتهلكة مرات حتى يئسنا من الحياة . وفى هذا التاريخ نفسه بلغنا بلخ . فقلت هذه الأبيات الثلاثة فى هذا المقام :

« فإن يكن تعب الدنيا وعناءها طويلين ، فشرها وخيرها لا محالة منتهيان » .

« إن الفلك يتحرك من أجلنا ليل نهار ، وكلما راح منا واحد تلاه آخر » .

« إنا نروح ونغدو فى الحياة ؛ إلى أن تحين الروحة التى لا عودة منها » .

وتبلغ المسافة التى قطعناها من بلخ إلى مصر ، ومن مصر إلى مكة ، ومنها إلى فارس عن طريق البصرة ثم إلى بلخ ، عدا الأطراف التى زرناها فى الطريق ، ألفين ومائتين وعشرين فرسخا .

وقد وصفت بأمانة ما رأيت فى رحلتى . وأما ما سمعته ، وكان عليه اعتراض ، فلا ينسبه القراء إلىّ ولا يؤاخذونى أو يلومونى عليه . وإن وفقنى الله سبحانه وتعالى وسافرت إلى المشرق ، فسأضم وصف ما أشاهده هناك إلى هذه الرحلة إن شاء الله تعالى وحده العزيز ، والحمد لله رب العالمين والصلوة على محمد وآله وصحبه أجمعين .

كشاف

١ – أسماء الرجال والقبائل والفرق

(ب)

(غ)

(ف)

(ق)

٢ — أسماء البلاد والأماكن

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

٣ — أسماء الكتب

الكتب العربيـــــــــة

الكتب الفارسية

Quatremère : Histoire des Qarmathes du Bahreïn : ٩٣

: Histoire des Sultans Memlouks : ٣٥

: Mémoires historiques et geographiques sur l'Egypte : ٤٠

Rey : Monuments de l'architecture des Croisées en Syrie : ٩

Samuel Lyde : Ansaryeh and Ismaeleyeh : ١٢

Schefer : Relation du Voyage de Nasir é Hosraw : ك ، ٥ ، ٧ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩

De Vogüe : Les Temple de Jérusalem : ٢٩

Wiet : Les mosquées de Caire : ٣٩

ثم دائرة المعارف الإسلامية فى مادتى طراز والقرامطة ، الأولى لجروهمان ص ٣٩ والثانية لماسينيون صفحة : ت

ودائرة المعارف البريطانية فى مادة ممنون : ٧٩

ومجلة المستشرقين الألمانية (Z D M G) : ١٢

المقاييس والموازين والنقود التى جاء ذكرها فى الرحلة

المقاييس :

الميل : ثلاثة أو أربعة آلاف ذراع

فرسنگ (الفرسخ) : تسعة آلاف ذراع بذراع القدماء واثنا عشر ألف بذراع المحدثين

گز : ويساوى ٨٠ شبرا أو ١٢٥ س م } ويستعملها ناصر بمعنى واحد ، يقصد بهما
ارش : الذراع } الذراع (١)

گز الملك (گز شايگان) : أقل قليلا من ذراع ونصف

دستى : الشبر

كام : القدم

انگشت : الإصبع

الشبر .

الموازين :

جو : الحبة

دانگ (دانق) : ٨ حبات

مثقال : ٦ دوانق

سير : ١٥ مثقالا

مَنّ : ٤٠ سيرا

خرور : (حمل حمار) : ١٠٠ منّ

رطل أخلاط : ٣٠٠ درهم

الرطل الظاهرى : ٤٨٠ درهما

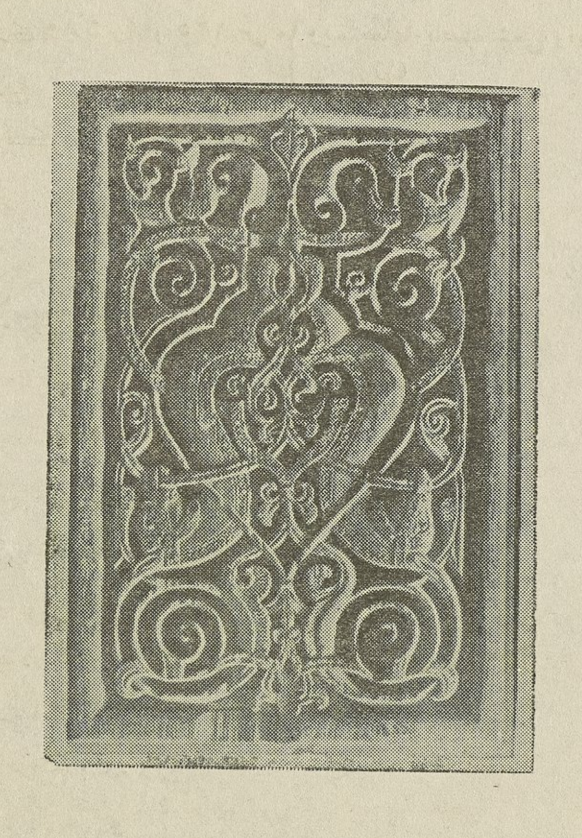
النقود :

الدينار المغربى ، وهو الذى كان فى المغرب وفى مصر أيام الفاطميين وكان معروفا للطولونيين قبلهم وقد سمى الجيشى والأحمدى والمغربى .

وثلاثة دنانير مغربية تساوى ثلاثة ونصف نيسابورية .

---

(١) تعليقات غنى زاده على سفرنامه طبعة برلين ص ٣٦ .



فهرس الكتاب

كشاف :



(١) تفضل الأستاذ ڤييت مدير دار الآثار العربية فسمح لنا باستخدام ما نريد من كليشهات الدار لتوضيح رواية ناصر خسرو ، فاستحق منا الشكر ؛ وكذلك تفضل الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق بإعارتنا بعض كليشهاته الخاصة ، فله منا الشكر .



—أهم المدن التي مر بها—
—ناصر خسرو—

